



المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية العلوم الاجتماعية

قسم التاريخ والحضارة

البيمار ستانات:

أوضاعها وآثارها في العصر المملوكي

((دراسة حضارية))

رسالة مقدمة لقسم التاريخ والحضارة

لنيل درجة الماجستير في الحضارة الإسلامية

إعداد الطالبة:

غادة بنت عبد الله بن عبد الرحمن القبران

إشراف:

الأستاذ الدكتور: إبراهيم بن محمد المزيني

أستاذ الحضارة الإسلامية بالقسم

الرياض ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

سُرُّ الدِّينِ الحَرَمِيِّ الحَمِيمِ

رفع مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك

المحتويات

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٨ - ٢٤	المقدمة.
٢٩ - ٥٥	التمهيد:
٣٠	المبحث الأول: الأحوال العامة في الدولة المملوكية.
٤٩	المبحث الثاني: البيمارستانات قبل العصر المملوكي.
٥٦ - ١٣٠	الفصل الأول: البيمارستانات في الدولة المملوكية:
٥٧	المبحث الأول: دوافع إنشاء البيمارستانات وعوامل ازدهارها.
٦١	المبحث الثاني: انتشار الكوارث والأوبئة والأمراض في العصر المملوكي.
٧٦	المبحث الثالث: بناء البيمارستانات والاشتراطات البيئية والفنية.
٨٠	المبحث الرابع: أنواع البيمارستانات: ثابتة، متنقلة.
٩٠	المبحث الخامس: رصد للبيمارستانات في الدولة وتطور أوضاعها.
١٣١ - ١٥٢	الفصل الثاني: أقسام البيمارستانات:
١٣٢	المبحث الأول: الأقسام العلاجية.
١٣٧	المبحث الثاني: الأقسام التعليمية.
١٤٠	المبحث الثالث: مرافق البيمارستانات التموينية والخدمية.
١٤٣	المبحث الرابع: تصنيع الأدوية والعلاجات.
١٤٩	المبحث الخامس: مخازن الأدوية وأساليب صرفها.

١٥٣-١٨٦	الفصل الثالث: التنظيمات الإدارية والمالية للبيمارستانات:
١٥٤- ١٧٨	المبحث الأول / الإدارية:
١٥٤	✻ الإشراف على البيمارستانات (ناظر البيمارستان، رئيس الأطباء "الساعور").
١٥٧	✻ الوظائف الإدارية والفنية.
١٦٤	✻ الرقابة الطبية والفنية (مراقبة الأطباء والصيدلة، مراقبة الخدمات والمرافق، المراقبة من خلال المحتسب).
١٦٨	✻ شروط وصفات الطبيب.
١٧٤	✻ المسؤولية الطبية.
١٧٩- ١٨٦	المبحث الثاني / المالية:
١٧٩	✻ حقوق الأطباء وأجورهم.
١٨٠	✻ الإيرادات وجهاتها.
١٨٣	✻ أوجه الصرف على البيمارستان.
١٨٧-٢٠٤	الفصل الرابع: الأثر العلاجي للبيمارستانات:
١٨٨	المبحث الأول: مداواة المرضى ومتابعة أحوالهم الصحية.
١٩٥	المبحث الثاني: الصلة بين البيمارستان والطب الشعبي.
١٩٧	المبحث الثالث: أثر البيمارستانات في الحروب ومعالجة الجنود.
٢٠١	المبحث الرابع: مواجهة البيمارستانات للأوبئة والأمراض.
٢٠٣	المبحث الخامس: الآثار الناتجة عن مزاوله البيمارستان لوظيفته.

٢٣٢-٢٠٥	الفصل الخامس: الأثر التعليمي للبيمارستانات:
٢٠٧	المبحث الأول: التعليم النظري.
٢١٣	المبحث الثاني: التعليم التطبيقي.
٢١٩	المبحث الثالث: تعليم الصيدلة والعقاقير.
٢٢١	المبحث الرابع: طرق تدريس الطب.
٢٢٨	المبحث الخامس: المكتبات.
٢٣٠	المبحث السادس: الاختبارات والإجازات الطبية.
٢٥٠-٢٣٣	الفصل السادس: الأثر الاجتماعي للبيمارستانات :
٢٣٤	المبحث الأول : علاقة الأطباء بالسلطين والأعيان.
٢٣٧	المبحث الثاني : علاقة الأطباء بالفقراء وعامة الناس.
٢٣٩	المبحث الثالث : أثر البيمارستانات في مواجهة الأزمات الاجتماعية.
٢٤٤	المبحث الرابع : الأثر الاجتماعي على المرضى داخل البيمارستان.
٢٤٩	المبحث الخامس : الأثر الاجتماعي على المرضى خارج البيمارستان.
٢٥٧-٢٥١	الخاتمة.
٣٢١-٢٥٨	الملاحق.
٣٤٤-٣٢٢	فهارس المصادر والمراجع.

المقدمة

المقدمة

الحمد لله الذي أبدع نظام الخليقة، ووجهها إلى خير طريقة، وعالج أسقام ضلالها بالهداية، وشفاهها من علل الغواية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. أما بعد...

فقد حظي علم الطب باهتمام بالغ من المسلمين في ظل الحضارة الإسلامية، ولقي تشجيعاً كبيراً من سلاطين المسلمين وملوكهم على مرّ العصور الإسلامية، تجلّى ذلك في الاهتمام الكبير بإنشاء البيمارستانات،^(١) والصرف عليها، وجذب الأطباء الأكفاء للعمل فيها، وتوفير كافة الاحتياجات المعنوية والمادية لضمان أداء هذه البيمارستانات رسالتها وقيامها بوظائفها على الوجه المنوط بها.

وتعدُّ البيمارستانات (دور المرضى) أحد المظاهر الطبية التي أبانت عن التفوق العلمي والتطبيق العملي الذي برع فيه المسلمون وفاقوا فيه غيرهم، ووصلوا بها إلى درجة متقدمة من التطور الحضاري والتقدم العلمي، وكانت الأهداف والغايات التي تتشدها رسالة البيمارستانات نبيلة وسامية، لا يقصد من ورائها إلا خدمة الإنسان والمجتمع دون أي ثمن أو مقابل، لا فرق في ذلك بين الغني والفقير والحاضر والبادي، والمسافر والمقيم، ولم تكن مهمة هذه البيمارستانات قاصرة على مداواة المرضى، بل كانت في الوقت نفسه دوراً للرعاية الاجتماعية، ومعاهد علمية لتعليم الطب والصيدلة، حيث تلقى فيها

(١) البيمارستانات جمع بيمارستان، كلمة فارسية معرّبة، وهي مركّبة من كلمتين (بیمار) بمعنى مريض أو ضعيف، و(ستان) بمعنى مكان. فهي إذاً مكان المرضى أو دار المرضى (محمد التونجي. المعجم الذهبي لفارسي عربي)، بيروت: دار العلم للملايين. [١٩٦٩م]. ص ١٣٠، ٣٣٣؛ ثم اختصرت في الاستعمال فصارت "مارستان" كما ذكرها (الجوهرى، إسماعيل بن حماد) ات ٣٩٣هـ/١٠٠٣م]. في الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق عبدالغفور عطار. ط٤. بيروت: دار العلم للملايين. - ٤٠٠هـ. ج ٣، ص ٩٧٨).

الدروس النظرية إلى جانب التطبيقات العملية، إضافة إلى أن هذه البيمارستانات في ذلك العصر كانت منظّمة تنظيمًا مثاليًا من جميع النواحي المتصلة بها، سواء من ناحية اختيار الموقع والتصميم والبناء وتمويلها وإدارتها، أو من ناحية أنظمتها العلاجية والإدارية والمالية.

ومن المعروف أنّ الرعاية الصحية شأنها شأن كثير من مشروعات المجتمع والخدمات المتصلة به - في كثير من عصور المسلمين - لم تكن من مهام الدولة بقدر ما كان ذلك يتم تقريبًا إلى الله سبحانه وتعالى وطلبًا لحسن ثوابه بجهود خيرية شعبية، فكان إذا أنشأ أحدهم بيمارستانًا، فإنه يوقف عليه الأوقاف الدارّة به، والضامنة له في الاستمرار في أداء رسالته المأمولة دونما انقطاع؛ ثم يأتي بعد ذلك دور الدولة في عملية التنظيم والإدارة والإشراف، وهو أبرزها، وهذا أمر معتاد في كثير من المرافق الخيرية التي تمسُّ حياة الناس.

ويعدُّ العصر المملوكي أحد العصور الإسلامية الزاهرة حضاريًا والناهضة علميًا وثقافيًا، حيث شهدت مصر وبلاد الشام في عصر سلاطين المماليك نشاطًا ثقافيًا واسعًا، مهّدت له الظروف السياسية التي أحاطت بالعالم الإسلامي في شرقه وغربه منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، والتي جعلت منهما مقصد العلماء وطلاب العلم، وخير دليل على ذلك الازدهار وتلك النهضة هو ما خلفه لنا ذلك العصر من تراث حضاري ضخم في شتى نواحي المعرفة الإنسانية عامة، والطب وميادينه وإبداعات رجاله بصفة خاصة.

وقد كان لتشجيع سلاطين المماليك واهتمامهم أثره البالغ في ذلك الازدهار الحضاري الذي كانت البيمارستانات في الدولة المملوكية أحد مظاهره العلمية والعملية، فقد كانت البيمارستانات أحد الميادين التي حازت على اهتمام الناس بكافة فئاتهم، وكان لها في ذلك العصر أهمية خاصة نتبينها في حاجة الناس الماسة إليها.

ولعل أوضح دواعي هذه الحاجة ما شهده ذلك العصر من كثرة انتشار الأمراض والأوبئة والمجاعات ووقوع الكوارث الطبيعية والحروب، ومن ثم كانت حاجة الناس إلى الأطباء والعلاجات بمختلف أنواعها أي حاجتهم إلى الطب بميادينه المختلفة ملحةً وضرورية، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن متابعة المرضى وتتبع أحوالهم بعد خروجهم من البيمارستانات كان من الخدمات الإنسانية التي برز بها ذلك العصر إذ إنه كان يُصرف لكل مريض حين خروجه من المارستان كسوة ومال كي يستعيد قواه ولا تحل به نكسة المرض إن أرهق نفسه بالعمل بعد خروجه من البيمارستان معافى.

وبناءً عليه كان واضحاً شعور سلاطين المماليك بحاجة الناس الماسة إلى العلاج، ومعايشتهم لأوضاعهم الصحية والاجتماعية، وهو ما ترتب عليه اهتمام واضح في بناء البيمارستانات بأنواعها المختلفة، وتشجيع الأطباء وتسهيل مزاولتهم لوظيفتهم وعمل التنظيمات الإدارية والمالية اللازمة لها، والاهتمام بشؤونها وأوضاعها كي تحقق الأهداف المأمولة منها في مجالات الرعاية الطبية ومواجهة سوء الأحوال الصحية.

إن ما يميز تقدم الطب عند المسلمين في عصورهم المتأخرة هو فن العلاج في البيمارستانات، وهو ما اشتهر به الطب في العصر المملوكي، ومن خلاله بلغت البيمارستانات مراحل متقدمة من العناية والتنظيم والتنوع في إنشائها ومنشأتها، وفي تقسيماتها وتمويلها، وإدارة أنظمتها المالية والعلاجية، وهو ما يستدعي دراستها والكشف عن كافة تفاصيل ذلك وتطوراتهِ توضيحاً لاهتمام المسلمين وتبانياً لتفوقهم في هذا الجانب خاصة، وبياناً لأسبقيتهم في ميادين الطب المختلفة بصفة عامة.

من هذا المنطلق فقد جاء اختياري لهذا موضوع "البيمارستانات: أوضاعها وآثارها في العصر المملوكي: دراسة حضارية" ليكون موضوعاً أتقدم به لدراسة الماجستير في الحضارة الإسلامية في قسم التاريخ والحضارة بكلية

العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وعقدت العزم على ذلك بعد عون الله تعالى ، وبمشورة من أساتذتي الكرام. وقد تكوّنت لديّ أسبابٌ موضوعيةٌ ودواعي علميةٌ كانت هي الأساس في تبين أهمية الموضوع ، واختياره لهذه المرحلة الدراسية ، وهذه الأسباب والدواعي يمكن إيجازها في النقاط الآتية:

✦ أن الموضوع يعدُّ أحد الموضوعات الحضارية التي تُبرز جانباً من الجوانب المضيئة في حضارتنا الإسلامية وأثرها في بناء الإنسان والاهتمام به والعناية بصحته ، ونتعرف من دراسته على جهود المسلمين في بناء البيمارستانات وتنظيم أوضاعها وأساليب أدائها لوظيفتها.

✦ أنه يلقي الضوء على مرحلة مهمة من تاريخ البيمارستانات عند المسلمين في العصر المملوكي ، وهو عصر له ملامحه وسماته التي ميّزته عن بقية العصور الإسلامية الأخرى ، لا في نهضته الحضارية فحسب ، بل في تطوراته الاجتماعية والصحية التي استدعت إنشاء هذه البيمارستانات وتهيئتها لأداء رسالتها الإنسانية مما جعل هذا الانفراد بسماته مدعاة للبحث والتعمق والدراسة لما فيه من توضيح لجانب من الجوانب المذكورة ومنها الناحية الصحية.

✦ أن هذه الدراسة تُلقي الضوء على جانبٍ مهمٍ يتعلق بتطور البيمارستانات في ذلك العصر وما تبع ذلك من تطور تنظيماتها وتعدد أساليب العلاج وطرقه وتخصصاته ، وكذلك تعدد وظائفها العلاجية والتعليمية ، وهو موضوع بحاجة إلى مزيد من الدراسة بأبعاده الطبية والاجتماعية والتعليمية وهو ما أراه مناسباً للبحث والدراسة ، وخاصة في مثل هذه الدراسة.

✦ أن البحث في هذا الموضوع يمدنا بإضاءات عديدة عن الأوضاع الاجتماعية والصحية، وبالذات في نواحي اجتماعية دقيقة مثل أعداد السكان وأوضاع ذوي الرعاية الطبية الخاصة، والعلاجات الشعبية، وغير ذلك من الأوضاع التي لا يمكن معرفتها إلا من خلال هذه الدراسة المتخصصة.

✦ وأخيراً فإن عدم وجود دراسة علمية سابقة، ومتعمقة عن هذا الموضوع شجعني على دراسته والبحث فيه أملاً في إضافة جديدة للمكتبة الحضارية.

وهذه الدراسة التي بين أيدينا يُفترض أنها تجيء تحقيقاً لمجموعة من الأهداف العلمية التي يمكن عرضها في الآتي:

- ❖ إبراز خيرية المجتمع الإسلامي وتكافل أفراده والعمل على تفعيل الأهداف الإسلامية النبيلة في عمل الخير والاهتمام بذوي الحاجة من المرضى وغيرهم.
- ❖ التعريف بدوافع إنشاء البيمارستانات وبنائها ورصدها وبيان أنواعها.
- ❖ التعرف على أقسام البيمارستانات وما يلحق بها من مرافق تعين في أداء رسالتها.
- ❖ استطلاع ما وصلت إليه التنظيمات الإدارية والمالية ذات الصلة بالبيمارستانات، مما كان له أثرٌ في ازدهار الخدمات الطبية في العصر المملوكي.
- ❖ التعرف على نوعية الأمراض التي انتشرت في مجتمعات ذلك العصر وطرق علاجها ونوعية الأدوية ومركباتها.
- ❖ التعرف على الدور العلاجي والتعليمي للبيمارستانات وأثر ذلك في المجتمع المملوكي.

ومما يجدر ذكره هنا أن هذه الدراسة لن تلتفت إلى تلك البيمارستانات من حيث تخطيطاتها الهندسية ومعالمها المعمارية ومواد البناء فيها وأساليبه وفنونه وتقسيماتها، إذ إنَّ ذلك من اختصاص أهل الدراسات الأثرية والمعمارية التي تُصحب عادةً بدراسات ميدانية القصد منها معرفة تقسيمات البناء ومواده وما اندثر منه وما تبقى إلى العصور الحاضرة.

❖ الدراسات السابقة وجديد الدراسة:

حيث كان من الأسباب المهمة في اختيار الموضوع حاجته لمزيد من الدراسة والتعمق، والموضوع الذي أتقدم به عن البيمارستانات في العصر المملوكي، فقد حاولت جهدي أن ألتمس ما قُدِّم من دراسات سابقة تناولت موضوع هذا البحث بشكل أو بآخر من خلال الاطلاع على قواعد المعلومات عن الرسائل والبحوث العلمية في المراكز البحثية والجامعات، إلا أنني لم أعر على دراسة علمية مستقلة تُغطي جوانب البحث فيه بأهدافه المنشودة.

غير أنه من الحق الاعتراف بأنَّ هذا الميدان بإطاره العام قد لفت اهتمام عددٍ من الباحثين مما يدل على أهميته وأهمية البحث فيه، وكانت الدراسات التي قُدمت حوله دراسات عامّة - في غالبيتها - تتناول البيمارستانات وأحوال الطب في الحضارة الإسلامية بمختلف عصورها.

وكانت أهم تلك الدراسات ذات الصلة بالموضوع حسب إطلاعي

مايأتي:

١- تاريخ البيمارستانات في الإسلام (أحمد عيسى بك) ط٢، نشر: دار الرائد العربي، بيروت، ١٤٠١هـ (١٩٨١م).

وهذه الدراسة من بابين، تطرق الباحث في الباب الأول لنشأة البيمارستانات ونظامها وأطبائها وأرزاقها، وفي الباب الثاني تطرق لذكر بيمارستانات البلاد الإسلامية بالتفصيل، ويتخلل هذه الدراسة نماذج

لبيمارستانات العصر المملوكي، ولقد أفادت الدراسة منها كثيراً في التعريف بالعديد من البيمارستانات، وبيان نشأتها وأوقافها، وأوضاعها التي صارت إليها بالإضافة إلى تراجم لمجموعة من الأطباء المطبّين بها.

٢. السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده (حياة ناصر الحجى) الطبعة الأولى، نشر مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).

وهذه الدراسة من قسمين:

القسم الأول، يشمل على تسعة فصول تطرقت الباحثة فيها إلى نظام الوقف وأثره في مجتمع مصر في عصر السلاطين المماليك، وتحدثت الباحثة حديثاً المختص في الفصل السابع حيث ذكرت أثر الأوقاف اجتماعياً، ومدى إسهامها في توفير الرعاية الصحية، مع ذكر البيمارستان المنصوري وما يقدمه من خدمات طبية، بالإضافة إلى تدريس الطب، وقد أفادت الدراسة من هذا القسم في بعض ما يتصل بالأوقاف ودورها في توفير الرعاية الصحية بالبيمارستان المنصوري.

أما عن القسم الثاني، فإنه يشمل مقدمة لوثيقة سرياقوس^(١) وتعريفها مع ذكر أوصافها وأهميتها، وفي هذه الوثيقة بنود خاصة بأوقاف البيمارستانات أفادت الدراسة منها.

(١) وثيقة سرياقوس: هي إحدى وثائق وقف السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ولها أهمية بالغة أولاً لكونها تؤدي إلى دراسات تاريخية جديدة تكشف الكثير من ألوان الحياة الحضارية في العصر المملوكي، وثانياً لأنها مفيدة من الناحية الاجتماعية والدينية حيث إنها وثيقة أصلية معاصرة. (حياة ناصر الحجى. السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، ط١. الكويت: مكتبة الفلاح. ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م. ص١٦٣)، وسرياقوس هي بليدة في نواحي القاهرة بمصر. (ياقوت، شهاب الدين بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي [ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م]. معجم البلدان، طبعة جديدة مصححة. بيروت: دار إحياء التراث العربي. مج٣، ج٥، ص٤٤).

٣- المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني (عبد الله عبد الرزاق السعيد) نشر دار الضياء للنشر والتوزيع، الأردن، ١٤٠٨هـ (١٩٨٧م).

وهذه الدراسة من ستة عشر فصلاً عرض في الستة فصول الأولى لنشأة المستشفيات الإسلامية وأنواعها في الحضارة الإسلامية والجوانب الفنية المتعلقة بعمارتها، وفي الفصول من السابع وحتى السادس عشر كتب عن البيمارستانات في كل قرن هجري مبتدئاً بالقرن الأول ومنتهاً بالقرن العاشر.

وهذا الكتاب يمكن أن يكون نسخاً مقارباً لما سبق إليه أحمد عيسى بك في كتابه تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ومع هذا فقد أفاد منه البحث في توكيد بعض معلومات البيمارستانات المملوكية حسب الحاجة.

٤- بحث الاحتكار المملوكي وعلاقته بالحالة الصحية (حسن حبشي) حوليات كلية الآداب عين شمس، مج ٩، دار الشعب، (١٩٦٤م)، من ص ١٣٣ إلى ص ١٥٧.

هذا البحث تطرق إلى نظام الاحتكار والمصادر في مصر المملوكية، وأشار الباحث إلى ما ترتب على ذلك من آثار خطيرة، فمن ذلك ارتفاع أسعار حاجات المعيشة الضرورية، مما أدى بالتالي إلى ضعف القدرة الإنتاجية من ناحية وضعف المقاومة الصحية من ناحية أخرى، وما كان جراً ذلك من تفشي الأوبئة والأمراض وهذه المعلومات أفادت الدراسة كثيراً فيما يتصل بالأوبئة والأمراض المنتشرة في ذلك العصر.

٥- بحث آداب الطب عند العرب في العصر الوسيط (عمر موسى باشا) نشر معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب (١٩٨٠م)، من ص ١٣٥ إلى ص ١٤٩.

وهو بحث يشير إلى المدارس الطبية في العصر المملوكي، ومعلومات أخرى متعلقة برئاسة الطب، وذكر البيمارستانات والقائمين على النظر في تدبير أمورها، والدراسة أفادت من هذا البحث فيما يتصل ببعض عناصر الموضوعات التي طرقها والاستئناس ببعض معلوماته ومصادره.

٦. البيمارستانات في حلب (أنور دويدري) بحث منشور في حولية (عاديات حلب)، معهد التراث العلمي العربي بحلب، ١٩٧٥م، من ص ١٢٩ إلى ص ١٤٥.

هذا البحث ذكر فيه الباحث تسلسلاً للبيمارستانات الموجودة في حلب وأشار إلى البيمارستان النوري والأرغوني الكامل، وما كانا عليه من حسن إنشاء وترتيب، والأوقاف عليهما، وقد أفادت الدراسة من هذا البحث أيضاً في الاستئناس ببعض المصادر التي اعتمدها عن هذين البيمارستانين.

٧- بحث تعليم الطب عند العرب (عبد المنعم صُفُو) نشر معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، (١٩٨٠م)، من ص ٢٦٧ إلى ص ٢٨٣.

وهو بحث يتناول أنواع البيمارستانات على مدى العصور الإسلامية وفيه وصف لبيمارستان أرغون الكامل بحلب، وقد أفادت الدراسة من هذا البحث في نقاط تتصل بهذا البيمارستان.

٨ - بحث الرعاية الصحية في مكة المكرمة في العصر المملوكي (علي السيد علي محمود) بحث منشور في المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٤١٦هـ (١٩٩٥م)، من ص ١٣١ إلى ١٥٨.

وهو بحث يتناول الاهتمام بالشؤون الصحية للأفراد، وتوفير الرعاية الصحية لهم، وبروز الطب والأطباء والخدمات التي تقدم بالبيمارستانات واختصر الباحث حديثه على ذكر البيمارستان المستصري بمكة المكرمة

وما كان عليه من نظام إداري ومالي والخدمات التي يقدمها، وأشار للأوقاف المحبوسة عليه، وجهات صرفها وأنها تعدُّ خير دعامة لاستمرار تقديم الرعاية الصحية لأهل مكة المكرمة والوافدين، وقد أفادت الدراسة من هذا البحث في مواضع عديدة منه.

٩. بحث المدارس الطبية المتخصصة في الحضارة الإسلامية (إبراهيم بن محمد المزيني) بحث منشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد الثالث عشر ذو القعدة ١٤١٥هـ (أبريل ١٩٩٥م) من ص ٣٤٩ إلى ص ٤١١.

وهو بحث يركز على أماكن تدريس الطب في الحضارة الإسلامية عامّة ليس محصوراً في زمن محدد، ويختصُّ بالمدارس الطبية المتخصصة التي نشأت خصوصاً لتدريس الطب وفيه معلومات ذات صلة بالبيمارستان المنصوري والدراسة أفادت منه.

تلك نماذج مهمة من الدراسات ذات الصلة المباشرة بموضوع هذا البحث من حيث بعض جزئياته مع اختلاف موضوع الدراسة ذاته، وبالجملة فقد أفادت دراستي من مجموع هذه الدراسات في كثير من مباحث الدراسة وتفصيلاتها بما يُملئ عليّ الشكر لمن كتبها والدعاء لهم.

وأحبُّ أن أشير إلى أنني تتبعت كتب البليوجرافيا والفهارس الصادرة عن الجامعات ومراكز البحث العلمي في المملكة وخارجها؛ فلم أعر على دراسة سابقة تناولت الموضوع على النحو الذي أقدمه في هذه الرسالة.

وفيما يتعلق بدراستي هذه واختياري لهذا الموضوع، فإنني أمل أن يكون فيها إظهاراً للبيمارستانات في العصر المملوكي وإبرازاً للنواحي التنظيمية فيها (الإدارية - المالية)، وكذلك بياناً لآثارها العلاجية والاجتماعية

والتعليمية بما يميّز سمو حضارتنا الإسلامية بكافة جوانبها، وبخاصة في مجال الرعاية الصحية وما يتصل بحياة الناس وخدماتهم، وهو الجديد في دراستي هذه، وهذا ما أسعى إلى تحقيقه بإذن الله تعالى لتتميّز الدراسة عن أي دراسة أخرى سابقة.

❖ منهج البحث:

قمت بتوفيق الله تعالى بجمع المادة العلمية من مظانها المختلفة، ثم تم تصنيفها إلى موضوعات متجانسة، ومن ثم تمت دراستها وتحليلها ونقدها بموضوعية علمية، وبمنهجية موضوعية - حسب إمكانياتي واستعدادي لمثل هذه المرحلة - بعد ذلك تمت صياغة المادة العلمية بأسلوب علمي دقيق مراعية قواعد اللغة العربية والترابط بين المعلومات وتسلسل الأحداث، وموضحة الحقائق التاريخية والحضارية بشكل مرتّب ومتناسق وفق المنهج التاريخي الاستقرائي، وصولاً إلى النتائج المتوخاة، والتي هدفت إليها هذه الدراسة، وبمتابعة وتوجيه مشرف البحث ليحقق ما هو مأمولٌ منه بحول الله وتوفيقه.

كما استعنت في دراستي بالمنهج الوصفي خاصة في جانب الوثائق أو التوثيق، وهو قريب الشبه بالمنهج التاريخي، ويُعنى بخدمة الآثار التاريخية بالتوثيق لمعلوماتها، وإرجاعها لمصادرها وأصولها، والترجمة، والتعريف بأشخاصها، والتعليق عليها، وتفسيرها، وبيانها.

❖ خطة البحث:

لقد اقتضت طبيعة هذا الموضوع بما توافر من مادة علمية أن يقسّم إلى ستة فصول وخاتمة؛ ثم أتبعتها ببعض الملاحق التي رأيت أنّها تخدم الموضوع، وقبل ذلك كله صدرتها بتمهيد يشتمل على مبحثين هما:

المبحث الأول: الأحوال العامة في الدولة المملوكية.
المبحث الثاني: البيمارستانات قبل العصر المملوكي.
ثمَّ جاء الفصل الأول بعنوان: البيمارستانات في الدولة المملوكية
ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: دوافع إنشاء البيمارستانات وعوامل ازدهارها.
المبحث الثاني: انتشار الكوارث والأوبئة والأمراض في العصر المملوكي.
المبحث الثالث: بناء البيمارستانات والاشتراطات البيئية والفنية.
المبحث الرابع: أنواعها (ثابتة، متنقلة).
المبحث الخامس: رصد للبيمارستانات في الدولة وتطور أوضاعها.
بعدها جاء الفصل الثاني بعنوان: أقسام البيمارستانات، ويشتمل على
المباحث الآتية:

المبحث الأول: الأقسام العلاجية.
المبحث الثاني: الأقسام التعليمية.
المبحث الثالث: مرافق البيمارستانات التموينية والخدمية.
المبحث الرابع: تصنيع الأدوية والعلاجات.
المبحث الخامس: مخازن الأدوية وأساليب صرفها.
ثمَّ جاء الفصل الثالث بعنوان: التنظيمات الإدارية والمالية
للبيمارستانات، ويشتمل على المباحث الآتية:
المبحث الأول / الإدارية:

✽ الإشراف على البيمارستانات (ناظر البيمارستان، رئيس
الأطباء "الساعور").

- ✿ الوظائف الإدارية والفنية.
- ✿ الرقابة الطبية والفنية (مراقبة الأطباء والصيادلة، مراقبة الخدمات والمرافق، المراقبة من خلال المحتسب).
- ✿ شروط وصفات الطبيب.
- ✿ المسؤولية الطبية.

المبحث الثاني / المالية:

- ✿ حقوق الأطباء وأجورهم.
- ✿ الإيرادات وجهاتها.
- ✿ أوجه الصرف على البيمارستان.

ثمَّ جاء الفصل الرابع بعنوان: الأثر العلاجي للبيمارستانات، ويشتمل على المباحث الآتية:

- المبحث الأول: مداواة المرضى ومتابعة أحوالهم الصحية.
 - المبحث الثاني: الصلة بين البيمارستان والطب الشعبي.
 - المبحث الثالث: أثر البيمارستانات في الحروب ومعالجة الجنود.
 - المبحث الرابع: مواجهة البيمارستانات للأوبئة والأمراض المنتشرة.
 - المبحث الخامس: الآثار الناتجة عن مزاوله البيمارستان لوظيفته.
- ثمَّ جاء الفصل الخامس بعنوان: الأثر التعليمي للبيمارستانات، ويشتمل على المباحث الآتية:

- المبحث الأول: التعليم النظري.
- المبحث الثاني: التعليم التطبيقي.

المبحث الثالث: تعليم الصيدلة والعقاقير.

المبحث الرابع: طرق تدريس الطب.

المبحث الخامس: المكتبات.

المبحث السادس: الاختبارات والإجازات الطبية.

بعدها جاء ختام الفصول وهو الفصل السادس بعنوان: الأثر الاجتماعي

لبيمارستانات، ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: علاقة الأطباء بالسلطين والأعيان.

المبحث الثاني: علاقة الأطباء بالفقراء وعامة الناس.

المبحث الثالث: أثر البيمارستانات في مواجهة الأزمات الاجتماعية.

المبحث الرابع: الأثر الاجتماعي على المرضى داخل البيمارستان.

المبحث الخامس: الأثر الاجتماعي على المرضى خارج البيمارستان.

وبعد هذه الفصول تأتي الخاتمة والتي احتوت على أهم النتائج التي

أسفرت عنها هذه الدراسة وبعض التوصيات التي أمكن تسجيلها في هذه

المناسبة؛ ثم جعلت بعدها بعض الملاحق التي هي في رأيي تخدم بعض

موضوعات البحث، ثم فهرس المصادر والمراجع التي خدمت البحث.

على أساس هذا التحديد استعنت بالله وبدأت في جمع المادة العلمية

اللازمة لهذا الموضوع، وهنا في البداية واجهتني بعض المصاعب التي لا

تحفى، فالمادة مبعثرة، والمعلومات متفرقة ومتناثرة في بطون المصادر

المخطوطة والمطبوعة، وقد استطعت بتوفيق من الله سبحانه وتعالى أن

أجمع مادتي العلمية مجتهدة في استقصاء ما وقفت عليه في المصادر من

معلومات تتعلق بهذا الموضوع، ومتابعة ماجد في كتب المحدثين عنه.

ويمكن هنا تقسيم هذه المصادر إلى مصادر معاصرة لزمن الدراسة، ومصادر ثانوية نقلت عن معاصرين، ومصادر أخرى عنيت بالتراجم ككتب التراجم والطبقات، ومصادر ذات صبغة موسوعية كمسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، وصبح الأعشى للقلقشندي.

إضافة إلى مجموعة من الوثائق التي يسرُّ الله لي الاطلاع عليها في مواقعها وبخاصة وقفية البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة، حيث تيسر لي تصويرها والإفادة منها.

ووثائق أخرى استفدت منها من خلال نشر الآخرين وأخصُّ ذلك العمل الكبير الذي قام به محمد أمين حول الموضوع بدراسة الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر حيث أشاد بأثر الأوقاف في الرعاية الصحية وخاصة داخل البيمارستان، وبيَّن مدى اهتمام الواقفين بالرعاية الصحية في ذلك العصر.

أما المراجع الحديثة، فهي كتب ومقالات باللغة العربية انصبَّ اهتمامي - بطبيعة الحال - على المتصل منها بالموضوع، وقليل من المصادر والمراجع الأجنبية المعرَّبة التي أمكن الإفادة منها فيما يتصل ببعض جوانب الموضوع قدر المستطاع.

أمَّا عن المصادر المخطوطة، فقد يسرُّ الله لي الاطلاع على مجموعة منها والإفادة من بعض معلوماتها، وأخصُّ بالذكر:

درَّة الأسلاك في دولة الأتراك لابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر الحلبي (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م). - ج ١، نسخة مصورة في جامعة القاهرة برقم (٢٢٩٦١).

ومن المصادر المخطوطة أيضاً: كتاب المقصد الرفيع المنشأ الهادي إلى صناعة الإنشاء. لمؤلفه الخالدي، بهاء الدين محمد بن لطف الله العمري (ت ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م). نسخة مصورة بجامعة القاهرة رقم (٢٤٠٤٥).

أمّا المصادر المطبوعة والمتخصّصة بالعصر المملوكي، فهي كثيرة، وقد شكّلت بحقّ الرافد الأساس لمادة هذا البحث، ويمكن العرض لمجموعة منها وفق الآتي:

- كتاب: " عيُون الأنباء في طبقات الأطباء " لابن أبي أصيبعة مؤفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم الخزرجي المتوفى سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م).
فقد اعتمد البحث بدرجة كبيرة على هذا الكتاب في تراجم وأخبار عديدٍ من أطباء ذلك العصر.

ويأتي كتاب: " نهاية الأرب في فنون الأدب " لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري المتوفى سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٢م) في مقدمة مصادر هذا البحث أهمية إذا ترجع أهميته إلى كون النويري إلى جانب معاصرتة قد تولى النظر في بيمارستان قلاوون بالقاهرة لسنوات أربع، وتفرد في ذكر بعض المعلومات عنه وأورد عن سبب بنائه أخباراً أولية مما جعل لهذا الكتاب أهمية كبيرة باعتباره مصدراً أولياً استفاد البحث منه.

- كتاب " التعريف بالمصطلح الشريف " لأبن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٩م) وقد تضمن هذا الكتاب معلومات ووصايا مهمّة ذات صلة بالموضوع. كما أنّ كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للمؤلف نفسه تضمن معلومات قيمة تتعلق بالموضوع.

- كتاب " صبح الأعشى في صناعة الإنشاء " لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)، وهو مصدر لا غنى للباحث في ذلك العصر من الرجوع إليه، حيث وردت فيه كثيرٌ من النظم الحضارية في العصر

المملوكي، وقد أفاد البحث منه كثيراً وخاصة في ما يتصل بالتعريفات وبعض المعلومات المتصلة بالموضوع، إضافة إلى الاستعانة به في بعض ملاحق البحث.

- كما يأتي في مقدمة هذه المصادر مؤلفات المقرئزي تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م). "السلوك لمعرفة دول الملوك" و"المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار"، وكان الأول منهما بحق المصدر المرافق لكثير من فصول الرسالة ومباحثها، وقد لازمني هذا الكتاب طيلة مراحل البحث وخطواته، وذلك لقرب المؤرخ المقرئزي للأحداث لصلته بها حيث عمل في بعض مناصب الدولة، وقد امتاز كتاب السلوك بغزارة مادته العلمية وبالذات الحضارية التي أفاد البحث منها كثيراً. كما أن كتاب المواعظ والاعتبار قد احتوى معلومات مهمة أفاد البحث في بعض جزئياتها، وكذلك كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقرئزي أيضاً.

- ومن هذه المصادر التي أثرت البحث بمعلومات علمية جيدة، كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني: أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨ م).

- كما لا يفوتني أن أذكر كتاب "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان" لبدر الدين بن محمد بن محمود المشهور (بالعيني) المتوفى سنة ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م) وقد تضمن هذا الكتاب معلومات مهمة تتعلق بالكوارث والأوبئة والأمراض التي حدثت في ذلك العصر.

- وكان من هذه المصادر التي أفاد منها البحث كثيراً كتاب "المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي" لأبي المحاسن ابن تغري بردي (ت

٨٧٤هـ/١٤٦٩م) حيث حفل بمادة علمية غزيرة أفاد البحث منها كثيراً.

- ومن هذه المصادر أيضاً كتاب: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لمحمد

ابن عبدالرحمن السخاوي المتوفى سنة ٩٠٢هـ (١٤٩٦م).

وقبل أن أختتم حديثي عن أهم المصادر التي اعتمد عليها هذا البحث

أجدها مناسبة لذكر ما قامت به بعض المراجع الحديثة في استكمال بعض

الجوانب التي أغفلتها المصادر، وأخصُّ منها على سبيل المثال لا الحصر:

- كتاب "الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر" لمحمد محمد أمين، فقد

كان هذا الكتاب من المراجع المهمة التي اعتمد عليها البحث كثيراً وكان

بحقُّ مرافقاً لي طيلة مدة عملي في هذا الموضوع.

- ومن هذه المراجع كتاب "تاريخ البيمارستانات في الإسلام" لأحمد

عيسى بك، حيث ذكر جملة من البيمارستانات ذات صلة مباشرة بالبحث.

- وكذلك "الموجز في الطب الإسلامي" لسعيد الديوه جي، حيث ذكر

أنواع البيمارستانات وأقسامها ولكن بشكل موجز، وقد أفاد البحث منه

في بعض جزيئاته.

بالإضافة إلى هذه المراجع فقد اعتمد البحث على عددٍ قليل من الكتب

الأجنبية المتصلة بموضوع البحث وخاصةً ما ترجم منها إلى اللغة العربية.

وأخيراً يطيب لي أن أتوجه بالشكر الجزيل لله أولاً على ما أنعم به عليّ

من إتمام هذا البحث وأعانني عليه، ثمَّ أثنِّي بالشكر الجزيل وجميل

العرفان لوالديَّ الكريمين متَّهماً الله بصحة وعافية، وأجزل لهما من الخير

العميم بما ربياني به صغيرة وتعاهداني كبيرة، ولأخوتي الكرام عاضديّ

تشجيعاً ودفعاً ومعونة، فجزاهم الله عني خير الجزاء وأوفره، والثناء

موصولٌ لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور إبراهيم بن محمد الحمد المزيني

الذي أسدى إليّ نصحه وجاد لي بمكنته، ثم متابعتة المستمرة، أثناء بحثي وصبره الجميل، وآراءه العلمية والمنهجية السديدة، التي كان لها أكبر الأثر في إنجاز هذا العمل بهذه الصورة، حيث كان متابِعاً لي في كل فقرة من فقرات البحث حتى وصل إلى هذا الشكل، فتعلمت منه الصبر، وحبّ البحث، والحرص على الدقة والموضوعية في الكتابة، كما كان له الفضل الكبير بعد الله في تذليل كافة الصعوبات التي واجهتني خلال إعدادي هذا البحث، فجزاه الله عني خير الجزاء وأوفره وجعل ذلك في موازين حسناته، ورزقه الله الصحة والعافية في دينه ودنياه، ونفع الله به وبعلمه.

كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر والعرفان لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ممثلةً في كلية العلوم الاجتماعية التي أتاحت لي فرصة مواصلة دراسة الماجستير، وأخصُّ بالشكر عميدها الدكتور فوزان بن عبد الرحمن الفوزان، ووكيلها لشؤون الدراسات العليا الدكتور محمد بن علي السحيباني لما يبذلانه من جهود مشكورة في سبيل تذليل الصعاب أمام الباحثين.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لقسم التاريخ والحضارة ممثلاً في رئيسه السابق الأستاذ الدكتور محمد بن سليمان الخضير، ورئيسه الحالي الأستاذ الدكتور عمر بن صالح العُمري، والأساتذة الكرام الذين لم يبخلوا علي بإسداء النصح والتوجيه.

كما يمتد الشكر لأستاذي الكريم الدكتور حمود بن محمد النجيدي على متابعتة هذا البحث منذ كان فكرة وتحمله الصعاب في طريق توجيهي لتسجيله، وما أسداه لي من توجيه ومتابعة طيلة البحث، فجزاه الله عني خير الجزاء.

والشكر يتواصل لأستاذيَّ الكريمين الأستاذ الدكتور عبد الله بن سعيد الغامدي والدكتور عبدالعزيز بن راشد العبيدي اللذين تفضلاً بقبول مناقشة هذه الرسالة وتقويمها، وقد كان لتوجيهاتهما السديدة وآرائهما العلمية والمنهجية النيرة الأثر الكبير في تواصل بناء هذا العمل فجزاهما الله عني وعن طلابهما خير الجزاء.

وصلَّى الله على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

الباحثة:

غادة بنت عبد الله بن عبد الرحمن القبلان

الرياض ذوالحجة ١٤٢٧هـ

ديسمبر ٢٠٠٦م

التهميد

- المبحث الأول: الأحوال العامّة في الدولة المملوكية.
- المبحث الثاني: البيمارستانات قبل العصر المملوكي.

المبحث الأول: الأحوال العامّة في الدولة المملوكية:

أودُّ قبل الدخول في موضوع البحث أن أتحدث بشيء من الإيجاز عن الأحوال العامة في العصر المملوكي لتتشكل أمامنا الصورة الواقعية لأرضية البحث بما يخدم كثيراً من جوانب الدراسة فيه.

ولعله مناسباً أن تأتي محاور هذا المبحث وفق الآتي:

١ - الحالة السياسية:

لقد شهد هذا العصر أحداثاً سياسية خطيرة ألمت بالعالم الإسلامي، وشاركت في رسم صورته السياسية، ومنها دخول هولاء المغولي سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٧م) بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله،^(١) وسيطرته بعدها على حلب ودمشق، وقد انقرضت بمقتله دولة بني العباس من بغداد، وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسع وخمسين وست مئة (١٢٦٠م)،^(٢) حينما بويع المستنصر بالله^(٣) بالخلافة من قبل السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٥٨).

(١) هو أبو أحمد عبد الله ابن أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس، وهو أمير المؤمنين آخر خلفاء بني العباس بالعراق وتوفي سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م). (ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي دمشقي لت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م. البداية والنهاية، اعتنى به حسان عبد المنان. لبنان: بيت الأفكار الدولية. [٢٠٠٤م]. ج ٢، ص ٢٠٤٤).

(٢) المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م). السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية. [١٤١٨هـ / ١٩٩٧م]. ج ١، ص ٤٩٩.

(٣) هو أبي القاسم أحمد ابن أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبي العباس أحمد العباسي، وكان معتقلاً ببغداد فأطلق؛ ثم قصد الظاهر حين بلغه ملكه، فقدم إلى مصر، وبويع له بالخلافة يوم الاثنين في ثالث عشر من رجب سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠م)، وهذا الخليفة هو الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباس، وكان قتله بأرض العراق بعد ما هُزم من كان معه من الجنود في ثالث المحرم من سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م). (ابن كثير. البداية والنهاية. ج ٢، ص ٢٠٥٦ - ٢٠٥٨).

٦٧٦هـ/١٢٥٩-١٢٧٧م^(١) في القاهرة وانتقلت بذلك الخلافة العباسية إلى صورة أخرى وموقع آخر غير بغداد.^(٢) حيث أشار بهاء الدين الخالدي إلى إن الظاهر بيبرس البندقداري كان أول سلطان لبس الحلة السوداءً بالديار المصرية حتى قدم عليه من بغداد أمير المؤمنين المستنصر بالله فقلده السلطنة،^(٣) وقد تتابعت الحملات الصليبية على ديار المسلمين خلال ذلك العصر، وكذلك شهد العصر خروج المسلمين من الأندلس بسقوط غرناطة^(٤) آخر معقل من معاقل المسلمين فيها سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م).^(٥)

وعلى الرغم من تتابع هذه الأحداث وتأثيراتها في عالمنا الإسلامي إلا أن ذلك العصر شهد قيام السلطنة المملوكية وتوسع سيادتها على أجزاء مهمة من العالم الإسلامي مما مكّنها من خوض معارك حاسمة دفاعاً عن الإسلام ضد أخطر عدوين آنذاك وهما المغول والصليبيين، فكان أن وقعت معركة

(١) هو بيبرس بن عبدالله الملك الظاهر ركن الدين البندقداري الصالح النجمي، سلطان الديار المصرية، أصله من مماليك الأمير علاء الدين أيدكن البندقداري؛ ثم انتقل إلى ملك الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولما تسلطن بيبرس صار علاء الدين أستاذه من جملة أمرائه، وكان من أجل الملوك وأعظمهم، توفي في الثامن والعشرين من محرم سنة ٦٧٦هـ (١٢٧٧م). (ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي [ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م]. الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم محمد شلتوت. مكة المكرمة: نشر مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي. - ١٣٩٩هـ [١٩٧٩م]. ج ١، ص ٢٠٣).

(٢) ابن كثير. البداية والنهاية. ج ٢، ص ٢٠٥٦.

(٣) الخالدي، بهاء الدين محمد بن لطف الله العمري (ت ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م). المقصد الرفيع المنشأ الهادي إلى صناعة الإنشاء (مخطوط)، مصور بجامعة القاهرة. رقم (٢٤٠٤٥)، ص ١٢٢.

(٤) غرناطة: هي أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الأندلس وأعظمها وأحسنها وأحصنها يشقها النهر المعروف بنهر قلزم. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج ٣، ج ٦، ص ٣٨٣).

(٥) أحمد مختار العبادي. في تاريخ المغرب والأندلس. بيروت: دار النهضة العربية. (د. ت). ص ٧٧.

عين جالوت^(١) التي دارت رحاها يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) بقيادة السلطان سيف الدين قطز (٦٥٧-٦٥٨هـ / ١٢٥٨-١٢٥٩م)،^(٢) يقف إلى جانبه قائده المظفر الظاهر بيبرس، فوضعت حداً لجحافل التتار المغول، وأوقفت تقدمهم في بلاد المسلمين.^(٣) وكذلك تمكن سلاطين المماليك من إجلاء الصليبيين وتصفية وجودهم في المنطقة حينما تمكنوا من قيادة الجبهة الإسلامية، وسجّل لهم التاريخ مواجهات حاسمة مع الصليبيين، وإنجازات رائدة حققها كل من الظاهر ركن الدين بيبرس، والملك المنصور سيف الدين قلاوون، (٦٧٨-٦٨٩هـ / ١٢٧٩-١٢٩٠م) (٤) وابنه الأشرف صلاح الدين خليل (٦٨٩-٦٩٣هـ / ١٢٩٠-١٢٩٣م)، حتى تمّ طرد الصليبيين من آخر موطن قدم لهم في المنطقة وهي جزيرة أرواد على مسافة ميلين من الساحل تجاه أنطربطوس، في صفر سنة ٧٠٢هـ (أكتوبر ١٣٠٣م)،^(٥) وذلك في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون خلال مدة حكمه الثانية.

(١) عين جالوت: هي بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين كان الروم قد استولوا عليها مدة؛ ثم استنقذها منهم صلاح الدين الملك الناصر يوسف بن أيوب في سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م). (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج ٣، ج ٦، ص ٣٦٩).

(٢) هو السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز سلطان الديار المصرية، تولى السلطنة بعد المنصور علي بن المعز أيك في أواخر سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٨م)، فلم يتهنّ بالملك، وخرج لحرب التتار فكسرهم ومهد البلاد، وعاد نحو البلاد المصرية، بعد ذلك تعامل (تأمر) عليه بيبرس البندقداري وأربعة أمراء آخر، وقتلوه وتسلمن بيبرس من بعده، وكان قتله في شهر ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ (١٢٥٩م). (ابن تغري بردي. الدليل الشافي. ج ٢، ص ٥٤٥).

(٣) ابن كثير. البداية والنهاية. ج ٢، ص ٢٠٥١.

(٤) هو قلاوون السلطان المنصور سيف الدنيا والدين، أبو المعالي وأبو الفتوح الصالحي النجمي، اشترى بألف دينار ولهذا كان يقال له الألفي، كان من أحسن الناس صورة في صباه وأبهاهم، واستقلّ بالملك سنة ثمان وسبعين وست مئة. (الكتبي، محمد بن شاكرات ٧٦٤هـ/١٣٦٢). فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر. ج ٣، ص ٢٠٣-٢٠٤).

(٥) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م). المختصر في أخبار البشر، بيروت، دار المعرفة. دت. - مج ٢، ج ٤، ص ٤٧.

إضافة إلى تلك الجهود المشهودة في مواجهة كل من المغول والصليبيين، فقد سُجِّلَ للسلطين المماليك صفحات زاخرة لما قاموا به من أعمالٍ شكّلوا بها سياسة خارجية مهمة أشهرتهم في العالم الإسلامي، ووضعتهم في مقام قادة الأمة وحماتها، وكذا ظهرت سياستهم الداخلية بما زاد من بروزهم التاريخي.

- السياسة الداخلية:

إن حكم المماليك ينقسم إلى عصرين باعتبار جنس المماليك الذين حكموا خلال هذين العصرين إذا يبدأ عصر المماليك الأول سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) بسيطرة السلطان المعز أيك التركماني (٦٤٨ - ٦٥٥هـ / ١٢٥٠-١٢٥٧م) أول السلطين المماليك في مصر وقد انتهى هذا العصر باستيلاء الظاهر برقوق من المماليك البرجية (الدولة المملوكية الثانية) على الحكم سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٢م) وعرفت هذه الدولة بدولة المماليك الجراكسة وانتهت سنة ٩٢٢هـ (١٥١٧م).^(١)

وكان السلطان المملوكي بتنظيماته للدولة يشرف على جميع السلطات الداخلية، من تنفيذية وقضائية وتشريعية، ولكن احتفاظه بمنصب السلطنة كان يتوقف أكثر ما يكون على قوة مماليكه ومقدار إخضاعه لغيرهم من المماليك. ولذا حفل تاريخ دولة المماليك بالسلطين الذين ارتقوا إلى منصب السلطنة عن طريق الاستيلاء على السلطنة وجعل السلطان الجالس على العرش تحت إرادتهم كخطوة أولى تمهد للخطوة الثانية التي تؤدي إلى عزل السلطان أو نفيه أو قتله؛ ثم إعلان نفسه سلطاناً، ولذا كان الحرس السلطاني أصحاب امتيازات كبرى في الدولة.^(٢)

(١) سعيد عاشور. مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، بيروت: دار النهضة العربية. ص ١٦٧.

(٢) ابن عبد الظاهر محيي الدين عبدالله بن رشيد الدين (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م). تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل. ط ١. القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر. ص ٤٠.

وهذا وضع ساهم في إضعاف الدولة المملوكية، واضطراب أمورها، حيث إنَّ المماليك في عصرهم الأول خاصَّة، لم يخلو من المؤامرات والدسائس، وهذا ما يحدث إذا نُصب سلطان مملوكي في السلطة فإنه سرعان ما يُعزل أو يُقتل، وقد ورد في تعليقٍ على هامش بعض نسخ كتاب الخطط المقرزية ما يصور هذا الوضع تماماً حيث ورد مانصه: "وتوفي الأشرف برسباي ثالث عشر ذي الحجة، سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، فكانت مدَّته ست عشرة سنة وتسعة شهور، ثم قام من بعده ولده: الملك العزيز يوسف، وسنَّه نحو خمس عشرة سنة، ثم خلع في تاسع عشر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة، فكانت مدَّته نحو ثلاثة أشهر، وقام من بعده الملك الظاهر جقمق في تاسع عشر ربيع المذكور، وخلع نفسه من الملك في مرض موته، وتولى بعده بعهد ولده. الملك المنصور عثمان في حادي عشري المحرم سنة سبع وخمسين وثمانمائة، فكانت مدَّة الظاهر جقمق أربع عشرة سنة ونحو عشرة شهور، ثم خلع ولده المنصور عثمان في سابع ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة، فأقام في الملك أحداً وأربعين يوماً، وتولى عوضه الملك الأشرف أينال: في ثامن من ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وخلع نفسه في مرض موته في جمادى الأولى سنة خمس وستين وثمانمائة، فكانت مدَّته ثمان سنين وشهرين، وتولى بعده ولده الملك المؤيد أحمد ثم خلع في ثامن عشر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة، فكانت مدَّته أربعة أشهر. وتولى الملك الظاهر خشقدم تاسع عشر رمضان، سنة خمس وستين وثمانمائة، ومات عشر شهر ربيع الأول سنة اثنين وسبعين، فكانت مدَّته نحو ست سنين ونصف، ثم تولى الملك الظاهر بلباي في حادي عشر الشهر المذكور، ثم خلع في سابع جمادى الأولى من السنة المذكورة، فكانت مدته ستة وخمسين يوماً. ثم تولى الملك الظاهر تمرغا في ثامن جمادى الأولى المذكور، ثم خلع في العشر الأول من شهر رجب الفرد، سنة

اثنتين وسبعين وثمانمائة، وكانت مدّته نحو تسعة وخمسين يوماً، وتولى الملك الأشرف قايتباي في ثاني عشر رجب من السنة المذكورة، وتوفى في ثاني عشري ذي القعدة سنة إحدى وتسعمائة، فكانت مدته تسعاً وعشرين سنة وأربعة شهور وأياماً، وتولى بعده ولده الملك الناصر محمد (سنة تسع مئة)؛ ثم قتل بالجيزة^(١) في آخريوم الأربعاء، النصف من ربيع الأول سنة أربع وتسع مئة، فكانت مدته سنتين و ثلاثة أشهر وأياماً؛ ثم تولى خاله الملك الظاهر قانصوه الأشرفي قايتباي في ضحوة يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول المذكور؛ ثم خلع في سابع ذي الحجة سنة خمس وتسع مئة، فكانت مدته نحو عشرين شهراً، وتولى عوضه الملك الأشرف جان بلاط الأشرفي قايتباي، وأتانا خبرة بمنزله الجديدة في العود من المدينة الشريفة، في يوم الجمعة سادس عشري ذي الحجة سنة خمس وتسعمائة، فكانت مدّته ستة شهور وأياماً، ثم خلع في يوم السبت ثامن عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعمائة وتولى الملك العادل طومان باي الأشرفي قايتباي ثم خلع سلخ رمضان من السنة المذكورة، فكانت مدّته نحو مائة يوم، وتولى بعده الملك الأشرف قانصوه الغوري الأشرفي قايتباي مستهل شوال من السنة المذكورة^(٢).

وكان من ضمن الأسباب التي ساهمت أيضاً في ضعف الدولة المملوكية هو صغر سن بعض السلاطين مما يؤدي بالتالي إلى تلاعب الأوصياء والقائمين عليهم بأمور الدولة وهذا يؤدي إلى عدم الاستقرار السياسي، فنرى السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس يُولى

(١) الجيزة: هي بليدة في غربي فسطاط مصر قبالتها ولها كورة كبيرة واسعة وهي من أفضل كور مصر. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج ٢، ج ٣، ص ١٠٣-١٠٤).

(٢) المقرئزي. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقرئزية)، نشر محمد علي بيضون. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية. - ١٤١٨هـ (١٩٩٨م). ج ٣، ص ٤٢٥ -

السلطنة وعمره سبع سنين و أشهر، وهناك السلطان الملك الناصر بدر الدين أبو المعالي حسن بن محمد الذي وُلِيَ السلطنة وعمره إحدى عشر سنة، وأيضاً السلطان الملك المظفر شهاب الدين أبو السعادات أحمد فقد وُلِيَ السلطنة وعمره سنة واحدة ونصف، فقام بأمره الأمير طَطَّرَ.^(١)

لقد كانت المواكب السلطانية في عصر سلاطين المماليك ذات أناقة وعظمة. وقد كان لكل طبقة من المماليك لباسها الخاص الذي اتخذ من أغلى الأقمشة وزُين بالذهب والفضة. وكان الأمراء يتبعون السلطان في موكبه ويحفون به كل حسب ترتيبه ويحف بكل أمير مماليكه وأمرأه الخاصون به، وكان السلطان يحاول دائماً إقامة نظامٍ للوراثة ينحصر في أولاده، فيأخذ البيعة لأحدهم ويُشهد عليها العلماء والقضاة الأربعة، ولكن هذا كله كان اسمياً، فالأمر في النهاية مرجعه إلى القوة وحدها التي تقرر السلطان القادم.^(٢)

- السياسة الخارجية:

من خلال الظروف التي تعرفنا عليها والتي أحاطت بالعالم الإسلامي في تلك المرحلة أصبحت مصر قاعدة الخلافة العباسية ومركز المقاومة الإسلامية وقلب العالم الإسلامي النابض، وأصبحت ذات مكانة في نظر

(١) المقريزي. الخطط. ج٣، ص ٤١٥، ٤١٩، ٤٢٥. والأمير طَطَّرَ هو: السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو الفتح طَطَّرَ، تسلطن في يوم الجمعة تاسع عشرين شعبان سنة ٨٢٤ هـ، بقلعة دمشق ولقب بالملك الظاهر طَطَّرَ، والملك الظاهر هذا هو السلطان الثلاثون من ملوك الترك بالديار المصرية، والسادس من الجراكسة، وتوفي في نهار الأحد رابع ذي الحجة من سنة ٨٢٤ هـ (١٤٢١م)، وكانت مدة حكمه أحد عشر شهراً. (ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق جمال محمد محرز، وفهيم محمد شلتوت. نشر تراثا. ج١٤، ص١٩٨-٢٠٦).

(٢) ابن عبد الظاهر. تشریف الأيام والعصور. ص٤٢.

القوى الغير إسلامية، وأيضاً هي القوة المتحكمة في أفضل طرق التجارة بين الشرق والغرب.

لقد مثل عصر سلاطين المماليك أنشط عصور التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى من ناحية السياسة الخارجية، حيث تمت العديد من المراسلات و العلاقات التي جرت بين سلاطين المماليك والدول الأخرى، ونستشهد على ذلك بما حدث من علاقة المماليك بالحجاز حيث استطاع الظاهر بيبرس - بفضل إحيائه الخلافة العباسية في مصر وحرصه على التوفيق بين أمراء مكة والمدينة وإمدادهم بالمال - أن يستعيد مكانة مصر في بلاد الحجاز، وصار الخطباء يدعون له على منابر تلك البلاد وضربت السكة باسمه، وكذلك قام في عام ٦٦٦هـ (١٢٦٧م) بكسوة الكعبة وعمل لها مفتاحاً؛ ثم سير قافلة الحاج من الطريق البري في سينا،^(١) ومنذ هذا التاريخ " استقام أمر الناس في السفر من طريق مصر إلى مكة بغير جباية، وبطل ما كان يأخذه صاحب مكة من حج مصر والشام وجميع الركوب التي تصل إلى مكة المشرفة".^(٢) وفي السنة نفسها كتب السلطان الرسولي صاحب اليمن إلى الظاهر بيبرس بالخضوع والانتماء إلى جانبه، وأن يخطب له ببلاد اليمن، وأرسل إليه هدايا وتحفاً كثيرة، فبادلته السلطان بيبرس بالهدايا.^(٣)

ولقد استمر حرص أمراء مكة والمدينة على إظهار ولائهم لسلاطين المماليك مثال ذلك ما حدث سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م)، عندما حلف الشريف

(١) سينا: هو اسم موضع بالشام يضاف إليه الطور فيقال: طور سينا وهو الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام، وتؤدي فيه، وهو كثير الشجر. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج ٣، ج ٥، ص ١٠٧).

(٢) الجزيري، عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الجزيري الحنبلي (ت ٩٧٧هـ/١٥٦٩م). الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، نشر حمد الجاسر. ط ١. الرياض: منشورات دار اليمامة. -١٤٠٣هـ (١٩٨٣م). ج ١، ص ٦٧٢.

(٣) ابن كثير. البداية والنهاية. ج ٢، ص ٢٠٦٦.

أبونمي أمير مكة للسلطان المنصور قلاوون بالطاعة، بل التزم أمير مكة بتعليق الكسوة الواصلة من مصر على الكعبة في كل موسم، وأنه لا يعلق عليها كسوة غيرها، وأن يقدم علم السلطان المنصور على كل علم في كل موسم، وألا يتقدمه علم غيره، وأن يسهل زيارة البيت الحرام أيام مواسم الحج وغيرها للزائرين، وأن يحرس الحجاج، وأن يستمر بإفراد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصوري، وأن يفعل في الخدمة فعل المخلص الولي للسلطان، ويمثل مراسمه امتثال النائب للمستتيب.^(١)

كما يضيف ابن عبدالظاهر أن هناك علاقة جرت بين المنصور قلاوون، وملك اليمن وينصُّ على أنه لما "وصلت اليمن أخبار تولى السلطان المنصور سيف الدين قلاوون أرسل له الملك المظفر أيضاً هدية من العود والعنبر والرماح والسيوف يحملها أخوه الأمير مجد الدين وطلب من السلطان المصري أمناً مكتوباً على قميص، فكتب الأمان وأرسل إليه. ولم يكتف الملك المظفر بذلك، بل أرسل هدية أخرى في سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) وكانت جملة من الخصيان والأفراس والفيلة والبيبغاء والرماح والبهار والقماش والأطباق، وقد قبل السلطان الهدية وأنعم على صاحب اليمن ورسله بالخلع والعطايا".^(٢)

أما بالنسبة لعلاقة السلاطين المماليك ببلاد المغرب والأندلس، فإن هناك علاقة قوية بين الجانبين حيث "حرص سلاطين المغرب على توطيد علاقتهم بالشرق، لاسيما وأن مصر كانت طريق حجهم... فكان سلاطين المغرب يداومون الكتابة إلى سلاطين مصر يطلبون الإذن بحج بعض رجالهم وخاصة نساء دولتهم من أمهات السلاطين وزوجاتهم. ولم يكن سلاطين مصر يترددون في منحهم الأمان والحرية خلال رحلتهم الطويلة، فكانوا دائماً

(١) محمد الحداد. السلطان المنصور قلاوون، ط ١. القاهرة: نشر مكتبة مدبولي.. ١٤١٣هـ

(١٩٩٣م). ص ١٠٢.

(٢) تشریف الأيام والعصور. ص ٤٩.

يستقبلون موكب حجاجهم ويحافظون عليه سواء داخل الحدود المصرية أو في بلاد الحجاز".^(١)

ولقد أقام المنصور سيف الدين قلاوون علاقات مع الدول الأخرى، فقد كانت انتصاراته على الصليبيين "سبباً في أن يكتب إمبراطور الروم ميخائيل الثامن رسالة إلى السلطان قلاوون يعرض فيها مودته ويظهر استعداداه لتسهيل السفر لرسله الذين يمرون ببلاده، وكذلك فعل ولده اندرونيكوس الثاني فأرسل إلى المنصور أيضاً هدية هي حمل من الحرير الأطلس وأربعة أحمال من البسط".^(٢)

ويوجد كذلك تبادل للرسل والهدايا بين مصر وبعض الممالك المسيحية " فأرسل الملك ألفونس صاحب قشتالة في سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م) رسولين إلى السلطان المنصور سيف الدين قلاوون ومعهما هدية من الخيل و البغال، فأحسن السلطان ضيافتهم وأجزل لهما العطايا".^(٣)

٢ - الحالة الاقتصادية:

اهتم السلاطين المماليك اهتماماً بالغاً بالزراعة باعتبارها عصب الحياة، وقاموا بشق الترغ ليصل الماء إلى الأراضي التي يصعب وصول الماء إليها، وإنشاء الجسور وكان السبب في ذلك هو أن ماء النيل إذا قويت زيادته يهدم الدور ويفسد المزروعات، وهذا ما حدث حينما قويت زيادة ماء النيل في سنة ثلاث وعشرين وسبع مئة "وعرف السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون"^(٤) أن متى غفل دخل الماء إلى القاهرة وغرق أهلها ومساكنها، فركب

(١) ابن عبد الظاهر. تشریف الأيام والعصور. ص ٥٠.

(٢) ابن عبد الظاهر. تشریف الأيام والعصور. ص ٤٥.

(٣) ابن عبد الظاهر. تشریف الأيام والعصور. ص ٥٠.

(٤) هو السلطان الملك الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون، ولد سنة أربع وثمانين وست مئة، تولى السلطنة ثلاث مرات الأولى: (٦٩٣ - ٦٩٤هـ / ١٢٩٣ - ١٢٩٤م) والثانية: (٦٩٨ - ٧٠٨هـ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨م) والثالثة: (٧٠٩ - ٧٤١هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠م)، وتوفي يوم الأربعاء تاسع عشر ذي الحجة سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠م). (الكتبي. فوات الوفيات. ج ٤، ص ٣٥-٣٦).

السلطان إلى البحر ومعه الأمراء، فرأى ما هاله، وفكر فيما يدفع ضرر النيل عن القاهرة، فاقتضى رأيه عمل جسر عند نزول الماء، وانصرف^(١).

من هنا يتضح أن المتغيرات الطارئة على ماء النيل صعوداً أو انخفاضاً كانت مردوداته سلبية على الاقتصاد المملوكي وبالتالي تؤدي أثرها في المجتمع.

كما عني الناس بالثروة الحيوانية فأكثرُوا من إنتاج الأغنام، واهتموا اهتماماً بالغاً بتربية الخيول، وإلى جانب ذلك ازدهرت الصناعة لكثرة الثروة، وخاصة صناعة المنسوجات والمعدن والزجاج والخزف، وامتازت مصنوعات ذلك العصر بصفات خاصة وطابع مميز، وكان للتجارة أيضاً دورٌ في بروز الناحية الاقتصادية في ذلك العصر، وكان وراء هذا النشاط التجاري حركة المغول التوسعية مما أدت إلى تعطيل معظم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب، ومن أهمها طريق الحرير، وبذلك لم يبق آمناً إلا أن طريق البحر الأحمر، مما جعل مصر تقوم في ذلك العصر، بدور الوسيط بين الشرق والغرب، وبالتالي اهتموا بتشييدها وإنشاء الفنادق والخانات في طرق التجار، ولكن رغم الثروة الهائلة والرخاء الذي أمتاز بها ذلك العصر إلا أن هناك نوبات قحط ومجاعة ربما تكررت في بعض مراحل ذلك العصر وربما كان وراء ذلك جانبان مهمان هما:

١ - الجانب الطبيعي: وهو الذي يتمثل بوجود الكوارث والأوبئة والأمراض.^(٢)

(١) المقرئزي. الخطط. ج ٣، ص ٢٩٣، وقد أفرد المقرئزي عنواناً ذكر فيه مقاييس النيل وزياداته وأشار إلى روايات بداية قياس النيل عبر العصور وطريقة ذلك وآثاره. (للمزيد من ذلك أنظر الخطط ج ١، ص ١٠٨-١١٥).

(٢) وسيأتي حديث عنها ضمن الفصل الأول من هذه الدراسة.

٢ - الجانب السياسي: وهو الذي يتمثل باحتكار بعض السلاطين للأموال.^(١)

٣ - الحالة الاجتماعية:

عاش غالبية المجتمع المملوكي حياة بذخ وإسراف، وآتت بآثارها الواضحة على مجتمع ذلك العصر، وهنا يمكن الإشارة إلى مجموعة طبقات شكلت المجتمع المملوكي في ذلك العصر وفق الآتي:

القسم الأول: هم الخاصّة من أهل الدولة وكبار رجالها ومن تبعهم.

القسم الثاني: هم أهل اليسار من التجارة، وأولى النعمة من ذوي الرفاهية.

والقسم الثالث: الباعة، وهم متوسطو الحال من التجار، ويقال لهم أصحاب البزّ، ويلحق بهم أصحاب المعاش، وهم السوق.

والقسم الرابع: أهل الفلح، وهم أهل الزراعات والحرث، سكان القرى والريف.

والقسم الخامس: الفقراء، وهم جلّ الفقهاء وطلاب العلم، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم.

والقسم السادس: أرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن.

والقسم السابع: ذوو الحاجة والمسكنة، وهم الذين يتكفّفون الناس ويعيشون منهم.^(٢)

(١) حسن حبشي. "الاحتكار المملوكي وعلاقته بالحالة الصحية"، حوليات كلية الآداب.

جامعة عين شمس، القاهرة: دار ومطابع الشعب. (١٩٦٤م). مج ٩، ص ١٣٥.

(٢) المقرئزي. إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق جمال الدين الشيال. ط ١. بور سعيد:

مكتبة الثقافة الدينية. - ١٤٢٠ هـ (٢٠٠٠م). ص ٩.

وانتشرت الأسواق في تلك المرحلة "وقد كان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق شيء كثير جداً" ^(١) واشتهر في ذلك العصر المحتسب وهو الذي ينظم الحياة الاجتماعية بما يقوم به من مراقبة الأسواق، بل تظهر أهميته كذلك فيما جاء به من ذكر ما كان يقوم به من أعمال أخرى فكان "يقصد مجالس الولاية والأمراء، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويعظهم ويذكرهم، ويأمرهم بالشفقة على الرعية والإحسان إليهم" ^(٢)، بالإضافة إلى الخبازين والأساكفة، والأطباء والمؤدبين حتى السقائين والغسالين، فلا يخفى على المحتسب كيفية الحسبة عليهم ومعرفة أخطائهم، وبالتالي عاش الناس حياة استقرار اجتماعي يحكمها القانون، فلا يتعدى شخص على الآخر، وكذلك عنى سلاطين المماليك بتجميل المدن والطرق ونظافتها، فكان المحتسب يقوم بمعاينة من يخالف ذلك، "وأما الطرقات ودروب المحلات، فلا يجوز لأحد إخراج جدار داره ولا دكانه فيها إلى الممر المعهود، وكذلك كل ما فيه أذية وأضرار على السالكين، كالميازيب الظاهرة من الحيطان في زمن الشتاء، ومجاري الأوساخ الخارجية من الدور في زمن الصيف إلى وسط الطريق" ^(٣).

ولقد اهتم السلاطين المماليك بالحياة الاجتماعية اهتماماً بالغاً حيث قاموا بإنشاء الكثير من المنشآت الاجتماعية، مثل الفنادق والخانات والأسبلة والحمامات والبيمارستانات وغيرها، وقد نقل المقرئ عن ابن عبدالظاهر أن عدة حمامات القاهرة إلى آخر سنة خمس وثمانين وستمئة، تقرب من ثمانين حماماً. ^(٤)

(١) المقرئ. الخطط. ج ٣، ص ١٧٢.

(٢) الشيزري. عبدا لرحمن بن نصر (ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م). نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني. بيروت: دار الثقافة. (د. ت.). ص ١١٥.

(٣) الشيزري. نهاية الرتبة. ص ١٤.

(٤) المقرئ. الخطط. ج ٣، ص ١٤٦.

وكان للنساء نصيبٌ في الحياة الاجتماعية حيث عاش بعض نساء ذلك العصر ببذخ وعيشة راغدة، وذلك من خلال ما أحدثته النساء في الملابس والتفنن بها، من ذلك ما حدث في عام خمس وأربعين وسبع مئة بشهادة المقرئزي حيث يقول: "وذلك أنَّ الخواتين نساء السلطان وجواريهن أحدثن قمصاناً طوالاً تخب أذيالها على الأرض، بإكمال سعة الكم منها ثلاثة أذرع، فإذا أرخته الواحدة منهن غطى رجلها، وعُرف القميص منها فيما بينهن بالبهطلة ومبلغ مصروفه ألف درهم فما فوق".^(١)

كما امتازت الحياة الاجتماعية في عصر المماليك بكثرة المناسبات الدينية والمحلية كالاحتفال بوفاء النيل أو انتصار سلطان أو ولاية سلطان من ذلك ما يشير إليه المقرئزي ضمن أحداث سنة اثنتين وخمسين وسبع مئة، فيقول: "وفيه توجه الأمير بزلار أمير سلاح إلى الشام، ومعه التشريف والبشارة بولاية السلطان وتحليق العساكر له على العادة. وفيه دقت البشائر، ونودي بزينة القاهرة ومصر، فزينتا".^(٢)

إضافة إلى ما أشرت إليه من الأمراض الوبائية التي فشت في المجتمع المملوكي في ذلك العصر فقد أكد سعيد عاشور على وجود عديدٍ من الأمراض الاجتماعية التي انتشرت بين جميع الطبقات مثل الزنا والخمور والرشوة والاعتقاد بالأولياء والمشايخ والبدع والموالد ومعتقدات باطلة أخرى، وغيرها من الأمراض الاجتماعية التي فشت في عصر سلاطين المماليك.^(٣)

(١) السلوك. ج ٣، ص ٤٢٧.

(٢) السلوك. ج ٤، ص ١٣٩.

(٣) سعيد عاشور. المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط ١. القاهرة: دار النهضة العربية. (١٩٦٣م). ص ٢٢٥، ٢٢٧.

٤ - الحالة الدينية:

إنَّ خير ما يدل على اتساع دائرة النشاط الديني في ذلك العصر هو كثرة المنشآت الدينية التي أقيمت فيه والتي ساهم في إنشائها السلاطين والأمراء والأثرياء من أبناء الشعب، والتي مازال بعضها موجوداً إلى عصرنا الحاضر، واهتموا بها وأوقفوا الأوقاف عليها. وقد امتازت مساجد ذلك العصر بطرازها المعماري الفريد، واتصف العصر المملوكي بانتشار التصوف مما أدى إلى كثرة بناء منازل للصوفية عرفت باسم الخانقاهات^(١)، والربط^(٢) ووقف عليها الأوقاف للإنفاق على من فيها من الصوفية، وكان من أجل خانقاه بنياناً في القاهرة هي خانقاه ركن الدين بيبرس والتي بناها قبل أن يتولى السلطنة، وقد بدأ في بنائها في سنة ست وسبع مئة " ولما كملت في سنة تسع وسبع مئة، قرّر بالخانقاه أربع مئة صوفيّ، وبالرباط مائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت، وجعل بها مطبخاً يُفَرَّق على كلّ منهم في كلّ يوم اللحم والطعام وثلاثة أرغفة من خبز البرّ، وجعل لهم الحلوى"^(٣)، ولم يلبث أن انقسم الصوفية إلى فرق، لكل فرقة شيخها وشعارها، فازداد عدد اللذين أقبلوا على هذا اللون الجديد من ألوان الحياة الدينية، وأخذ السلاطين يتقربون إلى الله ببناء الخانقاهات ووقف الأوقاف عليها والعطف

(١) الخَانِقَاهَات: ويقال حَوَانِق: جمع خَانِقَاه، وتكتب أحياناً خَانِكَاه، وهي كلمة فارسية معرّبة وتعني مسكن الصوفية (محمد ألتونجي. المعجم الذهبي. ص ٢٣٢) والخوانق عُرفت في حدود الأربعمائة من سني الهجرة، وجُعِلت مقراً لتعبد الصوفيّة (المقريزي. الخطط. ج ٢، ص ٤١٤).

(٢) الرِبْط: جمع رِبَاط، وهو بيت يسكنه المتصوفة والزهاد، فكأنهم يرابطون فيه، ويتفقون على قصد واحد، وهو طاعة الله، وجهاد النفس وانتظار الصلاة بعد الصلاة (المقريزي. الخطط. ج ٢، ص ٤٢٧).

(٣) المقريزي. الخطط. ج ٤، ص ٢٨٥.

على الصوفية ومشايخهم، من ذلك ما نسمعه عن السلطان برقوق^(١) من أنه رتب للمدرسة التي أنشأها بين القصرين عدداً من الصوفية وقرر لهم مرتبات وفيرة.^(٢) وقد عدد المقريري ثمان وخمسين، من الخوانق والربط والزوايا، في القاهرة وحدها.^(٣)

كما اهتم سلاطين المماليك بالحرمين الشريفين اهتماماً بالغاً، ويشهد على ذلك ما أوقفوه على هذه الأماكن المقدسة وما يتصل بهما من خدمات وتسهيلات وحماية الحجاج، والعمل على إصلاح طريقهم، ومن الذين اهتموا بالحرمين السلطان الناصر محمد بن قلاوون ومن ضمن خدماته أنه أمر في سنة ٧١٠هـ (١٣١١م) بتمهيد ما كان في عقبة أيلة^(٤) من الصخور، ووسع طريقها حتى أمكن سلوكها بغير مشقة، وأنفق على ذلك الكثير.^(٥)

٥ - الحالة العلمية:

اشتهر سلاطين المماليك بحبهم للعلم والعلماء، وساعدوا على الإنفاق على المؤسسات التعليمية، وأوقفوا الأوقاف عليهم واهتموا بالعلماء وطلبة العلم، وصرفوا الأموال لهم، ومن أجمل صور الاحترام والتقدير والعطاء من قبل السلاطين للعلماء وطلبة العلم ما قام به الظاهر برقوق في عام ٨٠١ هـ (١٣٩٨م) بما أشار إليه المقريري من أنه "كان يقوم للفقراء والصلحاء إذا

(١) هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن أنص العثماني اليلبغاوي الجاركسي القائم بدولة الجراكسة بالديار المصرية، وهو السلطان الخامس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية والثاني من الجراكسة تولى السلطنة مرتين الأولى: (٧٨٤ - ٧٩١ هـ / ١٣٨٢ - ١٣٨٨م) والثانية: (٧٩٢ - ٨٠١ هـ / ١٣٨٩ - ١٣٩٨م). (ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. ج ١١، ص ٢٢١).

(٢) سعيد عاشور. مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك. ص ٢٩١.

(٣) الخطط. ج ٤، ص ٢٨٠ - ٣١٦.

(٤) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج ١، ج ١، ص ٢٣٢).

(٥) ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. ج ٩، ص ٦٠.

دخل أحد منهم عليه، ولم يكن يعهد ذلك من ملوك مصر قبله... ويفرق كل سنة في أهل العلم والصلاح مائتين ألف درهم الواحد، إلى مائة دينار ذهباً ومنهم من له أقل من ذلك بحسب حاله... وأنشأ بالقاهرة مدرسة لم يعمر مثلها بالقاهرة، ورتب بها صوفية بعد العصر كل يوم، وجعل بها سبعة دروس لأهل العلم، أربعة يلقى بها الفقه على المذاهب الأربعة، ودرس تفسير القرآن، ودرس الحديث النبوي، ودرس للقراءات، وأجرى على الجميع في كل يوم الخبز النقي ولحم الضأن المطبوخ. وفي كل شهر الحلوى والزيت والصابون والدرهم، ووقف على ذلك الأوقاف الجليلة من الأراضي والدور ونحوهما".^(١)

كما يجب أن نشير إلى أن مكة المكرمة شهدت ازدهاراً علمياً طوال ذلك العصر المملوكي، نتيجة لكثرة العلماء، وبخاصة من كبار مشاهير علماء العالم الإسلامي الذين توافدوا إلى مكة وجاوروا فيها زمناً طويلاً، أو فضلوا الإقامة بها، والذين حملوا معهم الكثير من مؤلفاتهم، وساهموا في إثراء الحياة العلمية فيها.^(٢)

واليوم نرى عظم الثروة العلمية التي حفظت لنا من ذلك العصر وهي التي نجدها الآن في دور الوثائق والمخطوطات الموجودة في جميع أنحاء العالم وهي ترجع إلى عصر سلاطين المماليك، وتناولت فروع المعرفة المختلفة، وكثير تأليف الموسوعات في تلك الفترة حتى أطلق على العصر المملوكي "عصر الموسوعات" نسبة إلى كثرة هذا النوع من الكتب و المؤلفات، وكان من أشهر هذه الموسوعات كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب" لشهاب الدين النويري وهو موسوعة تقع في إحدى وثلاثين مجلد مطبوعةً وشاملة لكثير

(١) السلوك. ج ٥، ص ٤٤٦، ٤٤٧.

(٢) علي السيد علي محمود. "الرعاية الصحية في مكة المكرمة في العصر المملوكي"،
المجلة التاريخية المصرية. الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. - ١٤١٦هـ (١٩٩٥م).

من عصور التاريخ وفنون العلوم، وكذلك كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م)، وهو موسوعة تقع في بضع وعشرين مجلداً، وإلى جانب ذلك كان للعلوم الإسلامية نصيبها الوافر في تلك الحركة العلمية الواسعة، فظهر من كتب في الفقه، مثل خليل بن إسحاق المالكي (ت ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م)، كما ظهر من كتب في الحديث وعلومه كابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) وظهر من العلماء من كتب في الهندسة والنجوم والفلك مثل ابن المجدي (ت ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م)، وهناك من كتب بالطب حيث برز عدة علماء في هذه المجال ومازال بعضهم يلمع أسمه حتى الآن مثل ابن النفيس (ت ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م) الذي ألف في الطب، وكذلك اشتهر في علم الحيوان كمال الدين الدميري (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) صاحب كتاب "حياة الحيوان الكبرى"^(١) وإلى جانب المدارس نهضت المكاتب التي أنشئت عدد كبير منها، وكان الغرض من إنشائها هو تعليم الأيتام المسلمين وقد أوقف عليها الأوقاف المناسبة للقيام بها.

وهناك عوامل عديدة أوجدت الجو المناسب للعلماء وطلاب العلم للتفرغ للعلوم والبحث العلمي ولعل من المناسب إجمالها هنا بالنقاط الآتية:

١. استقرار الأحوال السياسية يعتبر سبباً رئيسياً في مصر والشام حيث ما أصاب العالم الإسلامي في العراق على أيدي المغول، وفي الأندلس على أيدي الأسبان جعل مصر هي من الحواضر الأساسية في جلب العلماء الوافدين من المشرق والمغرب على السواء.

(١) علي سالم النباهين. نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك، ط ١. القاهرة: دار الرائد العربي. (١٩٨١م). ص ١٥٠-١٥١.

٢. ازدهار الأوضاع الاقتصادية أيضاً عامل جذب آخر وهذا ما تطرقت إليه مسبقاً بما قام به السلاطين من الإنفاق بسخاء على المؤسسات التعليمية وعلى العلماء وطلبة العلم وأوقفوا الأوقاف المناسبة عليها.

٣. توفر المناخ الفكري وحرية العلماء في البحث والدروس.

٤. الثراء الذي أصاب التجار في ذلك العصر جعلهم يقبلون على الاشتغال بالعلم وتشجيعه وبناء المدارس.

وهذا كان له أثر كبير في نشر الثقافة وذيوع العلم، ورفع المستوى العلمي في العصر المملوكي.



المبحث الثاني: البيمارستانات قبل العصر المملوكي:

تُعدُّ البيمارستانات إحدى المنشآت الاجتماعية التي اهتم بإنشائها الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء وكذا المحسنون على مدى العصور الإسلامية. وتعدُّ خيمة الصحابية رُفيدة الأُسلمية^(١) - رضي الله عنها - أول دارٍ اتُخذت لمعاودة المرضى ومداواتهم في الإسلام، وذلك حينما أصيب الصحابي سعد بن معاذ رضي الله عنه أثناء غزوة الخندق، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يجعل في هذه الخيمة، وقال: "اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب"،^(٢) وهي بمثابة أول دار مؤقتة لعلاج المرضى عُرفت في الإسلام، إلى أن جاء بعد ذلك الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م)^(٣) وهو من تُنسب إليه أول دارٍ للشفاء في الإسلام وذلك في عام ٨٨ هـ (٧٠٦ م) وجعل فيها الأطباء وأجرى لهم الأرزاق.^(٤)

(١) صحابية جلييلة، أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تقام لها خيمة في مسجده بالمدينة أثناء غزوة الخندق تداوي بها الجرحى من المسلمين، وتقوم بخدمتهم (ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني [ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م]. الإصابة في تمييز الصحابة، القاهرة: مطبعة السعادة.. ١٣٩٨ هـ [١٩٧٨ م]. ج ٤، ص ٣٠٣)

(٢) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٨ هـ / ٧٣٣ م). السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.. ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م). ج ٣، ص ٢٣٩.

(٣) هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو العباس الأموي، بويع له بالخلافة سنة ٨٦ هـ، وله عدة أعمال وهو باني جامع دمشق، وبنى صخرة بيت المقدس عقد عليها القبة، وبنى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووسعه حتى دخلت الحجرة التي فيها القبر فيه، وله آثار حسان وكثيرة جداً، وتوفي سنة ٩٦ هـ (٧١٤ م). (ابن كثير. البداية والنهاية. ج ٢، ص ١٤١).

(٤) المقرئزي. الخطط. ج ٤، ص ٢٦٧، ولم تشر المصادر إلى المكان الذي أنشأ فيه الوليد هذه الدار، ولعلها كانت في دمشق حيث كانت عاصمة الدولة الأموية آنذاك (إبراهيم بن محمد المزيني. الحياة العلمية في العهد الزنكي. ط ١. الرياض: المؤلف.. ١٤٢٤ هـ [٢٠٠٣ م]، ص ١٤٣).

ومن هنا عُرفت البيمارستانات في الإسلام، وفي مرحلة مبكرة من حضارتنا الإسلامية.

"وكانت البيمارستانات من أول عهدنا إلى زمن طويل مستشفيات عامة، تعالج فيها جميع الأمراض والعلل من باطنية وجراحية ورمدية وعقلية، إلى أن أصابتها الكوارث ودار بها الزمن وحل بها البوار وهجرها المرضى فأقضت إلا من المجانين حيث لا مكان لهم سواها. فصارت كلمة مارستان إذا سمعت لا تتصرف إلا إلى مأوى المجانين".^(١)

وهذه البيمارستانات على نوعين ثابت ومحمول:

أما الثابت فهو ما كان بناؤه بناءً ثابتاً من جهة من الجهات لا ينتقل منها وهذا النوع من البيمارستانات كان كثير الوجود في كثير من البلدان الإسلامية لا سيما في العواصم الكبرى كالقاهرة وبغداد ودمشق وغيرها من المدن الإسلامية. ولا تزال آثار بعضها باقية على مرّ العصور إلى الآن كالبيمارستان المنصوري (قلاوون الآن) بالقاهرة، والبيمارستان المؤيدي بالقرب من القلعة بالقاهرة أيضاً، والبيمارستان النوري الكبير بدمشق والبيمارستان القيمري بها أيضاً، وبيمارستان أرغون بحلب أو غيرها من البيمارستانات مما سيأتي ذكره.^(٢)

أما البيمارستان المحمول فهو الذي يُنقل من مكان إلى مكان بحسب ظروف الأمراض والأوبئة وانتشارها وكذا الحروب، وكان هذا النوع من البيمارستانات معروفاً لدى خلفاء الإسلام وملوكهم وسلطينهم وأطبائهم بل الراجح أن يكونوا هم أول من أنشأ مثل هذا النوع من البيمارستانات، وهو عبارة عن مستشفى مجهز بجميع ما يلزم للمرضى والمداواة من أدوات

(١) أحمد عيسى (ت ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م). تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط ٢. بيروت: دار الرائد العربي. ١٤٠١هـ (١٩٨١م). ص ٥.

(٢) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١٠.

وأدوية وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة وكل مايعين على ترفيه الحال على المرضى والعجزة والمزمنين والمسجونين ينقل من بلدة إلى أخرى من البلدان الخالية من بيمارستانات ثابتة أو التي يظهر فيها وباء أو مرض معدٍ.^(١)

وطبيعة الدراسة هنا تحتم الإيجاز بسرد مجموعة من البيمارستانات الثابتة التي انتشرت في حواضر العالم الإسلامي، وذلك دون توسع لتكون ممهدة لحال البيمارستانات وأوضاعها في العصر المملوكي، فكان بيمارستان جُنديسابور^(٢) من أكبر البيمارستانات حيث كان نعم المعين للمسلمين على إنشاء البيمارستانات بعد ذلك، وخرَّج الأطباء اللازمين لها وظل حافظاً لكيانه وشهرته عهداً طويلاً.^(٣)

وظهرت بيمارستانات عديدة في بغداد، ومنها بيمارستان الرشيد، وهو الذي أمر هارون الرشيد بإنشائه وبيمارستان البرامكة، وبيمارستان أبي الحسن علي بن عيسى وهو الذي أنشئ في سنة ٣٠٢هـ (٩١٤م)، وأنفق عليه الوزير أبو الحسن علي بن عيسى بن الجراح^(٤) الكثير من ماله، وبيمارستان بدر غلام المعتضد، وبيمارستان السيدة، والبيمارستان المقتدر الذي أنشئ في سنة ٣٠٦هـ (٩١٨م)، وبيمارستان ابن الفرات، وبيمارستان الأمير أبي الحسن يحكم، وبيمارستان معز الدولة بن بويه، وبيمارستان العضدي، وبيمارستان محمد بن علي بن خلف، وبيمارستان واسط، والبيمارستان

(١) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١٠-١١.

(٢) جُنديسابور: هي مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فتُسبت إليه، وهي مدينة حصينة واسعة بها النخل والزروع والمياه، وأما فتحها فإن المسلمين افتتحوها سنة فتح نهاوند سنة ١٩هـ (٦٤٠م) في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج ٢، ج ٣، ص ٨١-٨٢).

(٣) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ٦١-٦٢.

(٤) علي بن عيسى بن داوود بن الجراح أبو الحسن الوزير، وزر للمقتدر، والقاهر، ولد سنة خمس وأربعين ومئتين، وسمع الكثير، وكان ثقة ثبناً فاضلاً عفيفاً كثير التلاوة والصلاة والصيام، يحب أهل العلم، ويكثر مجالستهم، وتوفي سنة ٣٣٥هـ (٩٤٦م). (ابن كثير. البداية والنهاية. ج ٢، ص ١٧٢٨، ١٧٢٩).

الفارقي، وبيمارستان باب مُحول، وبيمارستان الموصل، وبيمارستان حران، وبيمارستان الرقة، وبيمارستان نصيبين، وهناك أيضاً بيمارستانات إيران ومنها بيمارستان الري، وبيمارستان أصبهان، وبيمارستان شيراز، وهناك دار مرضى بنيسابور، وبيمارستان زرنج، وبيمارستان تبريز، وبيمارستان مرو، وبيمارستان خوارزم،^(١) وهناك بيمارستانات عديدة في بلاد الروم (الأناضول) ومنها بيمارستان قيسارية أو دار الشفاء وهو ما يزال موجوداً يؤدي خدمته بعد أن أُصلح على النظم الحديثة، ومارستان قوتلوغ توركان، وبيمارستان أماصية، وبيمارستان محمد الفاتح، وبيمارستان السلطان سليمان، وبيمارستان أدرنة، وهناك العديد من البيمارستانات الأخرى في بلاد الروم، ووصلت البيمارستانات إلى المغرب ومنها بيمارستان تونس وبيمارستان مراکش، وبيمارستان سلا، وبيمارستان سيدي فرج بفاس، وهناك بيمارستانات الأندلس ومنها بيمارستان غرناطة.^(٢)

ورغم أهمية تلك البيمارستانات وما قامت به من آثارٍ رائدة في حضارتنا الإسلامية تحقيقاً لأغراضها المنشأة من أجلها، إلا أن الدراسة هنا ستركز على مجموعة من البيمارستانات مما يتصل بالإطار المكاني للدراسة وهو أرضية السلطنة المملوكية في كل من بلاد مصر والشام وبلاد الحجاز وبخاصة منها ما كان سابقاً للعصر المملوكي.

ففي مصر اشتهر بيمارستان ابن طولون الذي بناه أحمد بن طولون (٢٢٠-٢٧٠هـ / ٨٣٥ - ٨٨٣م)^(٣) سنة ٢٦١هـ (٨٧٤م)، ولم يكن قبل ذلك بمصر مارستان على حد قول المقرئزي: " وفي سنة إحدى وستين ومائتين بنى أحمد

(١) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١٧٨-٢٠٢، ٢٦٦-٢٧٧، ٢٧٩-٢٩٢.

(٢) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ٢٧٠-٢٨٨.

(٣) هو أحمد بن طولون أبو العباس أمير الديار المصرية، وباني الجامع بها، وبنى البيمارستان فغرم عليه ستين ألف دينار، وقد ملك دمشق، والعواصم، والثغور مدة طويلة، وتوفي سنة ٢٧٠هـ (٨٨٣م). (ابن كثير. البداية والنهاية. ج ٢، ص ١٦٤٩).

ابن طولون المارستان، ولم يكن قبل ذلك بمصر مارستان؛ ثم تلاه مارستان كافور الإخشيدي^(١) الذي بني سنة ٣٤٦هـ (٩٥٧ م)،^(٢) وبيمارستان زقاق القناديل، وبيمارستان المعافر، وبيمارستان القشاشين، وبيمارستان السقطيين، وفي الدولة الأيوبية وجد البيمارستان الناصري أو الأصلي المنسوب للسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي واستمر حتى العصر المملوكي، وبيمارستان الإسكندرية،^(٣) وأما بالنسبة لبلاد الشام، فقد اشتهر فيها البيمارستان النوري، وهذا البيمارستان استمر حتى العصر المملوكي، والبيمارستان العتيق بحلب، وبيمارستان باب البريد، وبيمارستان حماة، وبيمارستان القدس، وبيمارستان عكا، وبيمارستان صَفَد، وبيمارستان الصالحية، وبيمارستان الجبل، وبيمارستان غزة، وبيمارستان حصن الأكراد، وهذه البيمارستانات قامت بدورها في علاج المرضى وتوفير الأدوية والأشربة، وجُعل بها الأطباء وأُجريت لهم الأرزاق وأوقفت عليها الأوقاف. وكانت معظم هذه البيمارستانات تعنى بعلاج المجانين.^(٤)

ولقد كانت تلك البيمارستانات في بدايات إنشائها تُعنى فقط بعلاج المرضى، ولكن في العصور الإسلامية المتأخرة نجد البيمارستانات قد شاركت بتدريس الطب والاهتمام به حيث أصبحت البيمارستانات بمثابة كليات الطب الملحقة بالمستشفيات في عصرنا الحديث حيث تمارس

(١) هو كافور بن عبدالله الإخشيدي كان مولى السلطان محمد بن طنج الإخشيدي، اشتراه من بعض أهل مصر، وقربه، واختصه من بين الموالى، واصطفاه، ثم جعله أتاكاً، حين ملك ولداه، ثم استقل بالأمور بعد موتها، واستقرت المملكة باسمه، يُدعى له على المنابر بالديار المصرية، والشامية، وبلاد الحجاز جميعاً. (ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص١٧٥٠).

(٢) المقريزي. الخطط. ج٤، ص٢٦.

(٣) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص٦٦-٨٢.

(٤) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص٢٠٣، ٢٤٧-٢٤٨.

الدراسة العلمية بجانب الممارسة العملية، فقد أشار إلى ذلك ابن أبي أصيبعة وهو يترجم لشيخه الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم المتوفى سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م)^(١) فذكر " أن أبا المجد كان يدور على المرضى به [يعني البيمارستان النوري الكبير] ويتفقد أحوالهم، ويعتبر أمورهم وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى، فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى في ذلك، وكان بعد فراغه من ذلك، وطلوعه إلى القلعة وافتقاده المرضى من أعيان الدولة يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان وجميعه مفروش، ويحضر الاشتغال... فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه؛ ثم تجري مباحث طبية ويقرى التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة، نظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات؛ ثم يركب إلى داره".^(٢)

وهذه البيمارستانات كانت تسير وفق تنظيم دقيق حيث كانت تقسم إلى قسمين قسم للرجال وآخر للنساء ولكل طائفة من المرضى قاعة منفردة باختلاف الأمراض، فقاعة للأمراض الباطنية، وقاعة للجراحة وهكذا، ووجد الفراشون من النساء والرجال لخدمة المرضى، ويشمل كذلك على مطبخ لطبخ الطعام والأدوية والأشربة ويوجد أيضاً خزانة شراب فيها جميع الشرابات والأدوية وهناك مكان لإلقاء دروس الطب داخل البيمارستان،

(١) هو أفضل الدولة أبو المجد محمد بن أبي الحكم، عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي، من الحكماء المشهورين والعلماء المذكورين، والأفاضل في صناعة الطب، وله معرفة أيضاً بعلم الهندسة والنجوم، اشتهر في دولة الملك العادل نور الدين محمود، ونال عنده مكانة عالية، وأوكل إليه مهمة الطب البيمارستان النوري بدمشق، وكانت وفاته سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م). (ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم [ت٦٦٨هـ/٢٦٩م]. عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، ضبطه محمد باسل عيون السؤد. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية. - ١٩٤١هـ [١٩٩٨م]. ص ٦٢٨).

(٢) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنبياء. ص ٥٨١.

وأروع ما يميز تلك البيمارستانات أنها كانت تقدم هذه الخدمات بالمجان لكافة طبقات المجتمع، ولقد أوقف السلاطين والملوك والأمراء الأوقاف المختلفة للإنفاق على هذه البيمارستانات لضمان تأديتها لوظيفتها المرسومة لها لتخدم المجتمع بانتظام واستمرار.^(١)

وبعد: فلعله من خلال دراسة الأحوال العامة في العصر المملوكي وأوضاع البيمارستانات في عصورٍ حضارية سابقة لهذا العصر قد اتضحت الرؤية حول الحاجة إلى الاهتمام بالحالة الصحية والتعليم الطبي عن طريق إنشاء البيمارستانات ورعايتها والاهتمام بها لتكون ميادين رائدة للعلاج والتعليم خلال ذلك العصر، ولتؤدي دورها المأمول في ذلك، وكان أن هيا سلاطين الممالك لهذه المنشآت عدتها، وأشرفوا على رعايتها حتى آتت ثمارها يانعة في المجتمع المملوكي هي بدورها أدوات ضمن أسباب الحياة الزاهرة التي شهدتها ذلك العصر في كثير من مراحلها، وهو ماسوف تهتم به هذه الدراسة ضمن فصولها ومباحثها الآتية.



(١) المقرئزي. الخطط. ج٤، ص٢٦٩.

الفصل الأول

البيمارستانات في الدولة المملوكية

- المبحث الأول: دوافع إنشاء البيمارستانات وعوامل ازدهارها.
- المبحث الثاني: انتشار الكوارث والأوبئة والأمراض في العصر المملوكي.
- المبحث الثالث: بناء البيمارستانات والاشتراطات البيئية والفنية.
- المبحث الرابع: أنواع البيمارستانات: ثابتة، متنقلة.
- المبحث الخامس: رصد للبيمارستانات في الدولة وتطور أوضاعها.

المبحث الأول: دوافع إنشاء البيمارستانات و عوامل ازدهارها:

تعددت دوافع إنشاء البيمارستانات في العصر المملوكي، وتنوعت أغراض ذلك مما ظهر واضحاً في أسباب بناء هذه البيمارستانات، ويمكن الإشارة إلى أبرز الدوافع التي كانت سبباً في انتشار الكثير من البيمارستانات في ذلك العصر بالآتي:

١ - ما كان عليه ذلك العصر من انتشار للأوبئة والأمراض، وسرعة تنقل العدوى من مكان إلى آخر، وما حدث جراء ذلك من خسائر بشرية من تعدد الأمراض الوبائية وانتشارها في المجتمع المملوكي الأمر الذي يحدث معه ازدياد أعداد الموتى في ذلك العصر، وهذا ما دعت الحاجة إليه لإنشاء البيمارستانات لمواجهة هذه الأوبئة والأمراض والحد منها.^(١)

٢ - ما عرف عن ذلك العصر من الانتعاش الاقتصادي، وكان نتيجة ذلك أن رصد سلاطين المماليك وأمراؤهم وأعيانهم الأموال الوفيرة، مما أدى إلى تسابق هؤلاء على إنشاء المؤسسات الخيرية والتباهي بها.^(٢)

٣ - الإقبال على الدراسات العلمية بعامة، ودراسة العلوم التطبيقية بخاصة في ذلك العصر حيث ظهر العديد من الأطباء الذين خدموا الطب، وكتبوا العديد من المؤلفات الطبية بجانب الاهتمام بتدريسه، فكان من خير ما يعبر عن ازدهار الحياة العلمية في عصر سلاطين المماليك هو العناية بإنشاء البيمارستانات والتي كانت بمثابة الكليات الطبية الحديثة، فهي مكان للدراسات النظرية والتدريب العملي إلى جانب قيامها بوظيفتها الرئيسية.^(٣)

(١) المقرئزي. السلوك. ج ٤، ص ٢٦٧.

(٢) علي النباهين. نظام التربية الإسلامية. ص ٢٠٦.

(٣) علي النباهين. نظام التربية الإسلامية. ص ١٥١.

٤ - ما يسعى إليه السلاطين لتخليد ذكركم بعد مماتهم، وأن تبقى هذه المنشآت شاهداً حياً لأعمالهم وإنجازاتهم، وهذا مثل ما نراه في معظم بيمارستانات العصر المملوكي، إذ تحمل أسماء منشئها كالبيمارستان الكبير المنصوري الذي أنشأه الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي،^(١) والبيمارستان الأرغوني الذي أنشأه الأمير سيف الدين أرغون الكامل (ت ٧٥٩هـ / ١٣٥٨م)،^(٢) والبيمارستان المؤيدي الذي أنشأه الملك المؤيد شيخ الحمودي (٨١٥ هـ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١م).^(٣)

٥ - مرض السلطان وحاجته إلى العلاج، وربما إعجابه بمجهود من سبقه في هذا المجال كما حصل مع الملك المنصور سيف الدين قلاوون عندما أصابه بدمشق مرض، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من المستشفى النوري الكبير، فبرأ، وركب حتى شاهد المستشفى بنفسه، فأعجب به، ونذر الله إن أتاه الله الملك أن يبني مثله، فلما صار سلطاناً عمل مارستاناً لم يسمع بمثله.^(٤)

٦ - تذكر الآخرة والسعي للعمل لها كما عمل الملك المنصور سيف الدين قلاوون، إذ يؤكّد ابن عبد الظاهر ذلك بقوله: "ولما ترك مولانا السلطان لزيارة التربة الشريفة، وشاهد حسن العمارة فيها، تشوّقت

(١) علي النباهين. نظام التربية الإسلامية. ص ٨٣.

(٢) علي النباهين. نظام التربية الإسلامية. ص ٢٥٢. وأرغون الكامل قد ناب بدمشق مدة بعد حلب؛ ثم صار إلى نيابة حلب؛ ثم سجن بالإسكندرية مدة؛ ثم أفرج عنه، فأقام بالقدس الشريف إلى أن توفّي سنة ٧٥٨هـ (١٣٥٦م). (ابن كثير. البداية والنهاية. ج ٢، ص ٢٢٢٥).

(٣) علي النباهين. نظام التربية الإسلامية. ص ١٢٧. والملك المؤيد شيخ هو أبو النصر سيف الدين شيخ بن عبد الله الحمودي الظاهري، وهو السلطان الثامن والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، والرابع من الجراكسة، وتولى عدة مناصب، وأما أفعاله في وجوه البرفكثيرة، وله مآثر مشهورة به، وعمائر كثيرة، وتوفّي سنة ٨٢٤هـ (١٤٢١م). (ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. ج ١٤، ص ١٠٩-١١٠).

(٤) المقرئزي. الخطط. ج ٢، ص ٢٦٨.

نفسه الشريفة إلى فعل الخير، تشوّقت والشيء بالشيء يذكر،
فاختار بناء مارستان عظيم الشأن لا تصل همّة ملك إلى ابتناء مثله".^(١)

وبعد أن تعرفنا إجمالاً إلى الدوافع لإنشاء هذه البيمارستانات، فإنّ
هناك عدّة عوامل جعلتها تزدهر وتستمر فترات طويلة، كان من أهمها:

١ - قيام الأوقاف بأثر كبير في هذا المجال من أجل دعم البيمارستانات
وتمكنها من أداء رسالتها، حيث كان الاهتمام بالجانب الصحي
صاحبه ازدهار للأوقاف وانتشارها في ذلك العصر، وبالتالي أدى ذلك إلى
استمرارها، واهتم السلاطين والأمراء وأهل الخير بالتقرب إلى الله
سبحانه وتعالى من طيبات أموالهم بأوقاف وقفوها على وجوه البر، وهذا
ما نراه من أوقاف أوقفت على البيمارستانات في العصر المملوكي
لتستمر في أداء رسالتها، ويشير الواقف في وثيقته إلى الغرض من وقف
هذا البيمارستان ويعدّد المنتفعين به، كما يعدّد الأمراض التي تعالج
فيه، مما يعطينا صورة واضحة عن مدى أهمية هذا البيمارستان، والأثر
الذي قامت به في تقديم الرعاية الصحية لمختلف فئات الشعب في العصر
المملوكي، ونأخذ مثال هذا فيما جاء في وثيقة السلطان قلاوون إذ ورد
فيها: "وهذا البيمارستان هو الذي وقفه مولانا السلطان الملك المنصور
الموكل الموقوف عند خلد الله ملكه بيمارستانا لمداواة مرضى المسلمين
الرجال والنساء من الأغنياء المثريين والفقراء المحتاجين بالقاهرة، ومصر
وضواحيهما، من المقيمين بهما والواردين إليهما من البلاد والأعمال على
اختلاف أجناسهم وأوصافهم وتباين أمراضهم وأوصابهم من أمراض
الأجسام قلّت أو كثرت...".^(٢)

(١) ابن عبد الظاهر. تشریف الأيام والعصور. ص ٥٥-٥٦.

(٢) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظة رقم

(١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم (١٢).

أما البيمارستان الذي لا يحدّد له وقف، فإنه في الغالب تنتهي خدمته بمجرد وفاة منشئه وهذا ما حدث للبيمارستان المؤيدي حيث إن السلطان المؤيد لم يحدد له مصارف خاصة من ريع أوقافه. لهذا لم يستمر في عمله طويلاً.

٢- ما وصل إليه ذلك العصر من نشاط علمي كبير، حيث كان لاستقرار الأحوال العامّة أثرٌ في تجمع صفوة العلماء في مصر، كما كانت الأوضاع الاقتصادية عامل جذب آخر، وبهذا وجد الأطباء القادمون من البلدان المختلفة حرية البحث والتأليف، وهذا غير الذين قام السلاطين بجذبهم من الخارج، وتقديرهم ومنحهم الضمانات الكافية لأداء وظائفهم، ومتابعة تلك الأعمال بأنفسهم، مما أتى بثماره الياينة في ازدهار الحالة الطبية في ذلك العصر بعامّة، ونشاط تلك البيمارستانات وذيوع صيتها من جانب آخر.^(١)

٣- ما اتبعه السلاطين في بناء هذه البيمارستانات وفق تخطيط معين واشتراطات بيئية محدّدة حيث كانوا يختارون أنسب البقع وأجملها لإقامة البيمارستان، وما أتبعوه من فن بديع في عمارتها حيث كان السلاطين والأمراء يتباهون بعمائرهم، ويحرصون على استمرارها وبقائها.^(٢) بوقف الأوقاف عليها، ومثال ذلك ما حصل في بيمارستان قلاوون.

فهذه الدوافع، وتلك العوامل مجتمعة شكّلت بدورها مناخاً مناسباً لنشأة تلك البيمارستانات وضمان قيامها بعدد من نشاطاتها المؤملة منها والموصلة لتحقيق أهدافها.



(١) علي النباهين. نظام التربية الإسلامية. ص ١٤٦.

(٢) المقرئزي. السلوك. ج ٢، ص ١٧٥-١٧٦ (حاشية رقم ١)، وسيأتي تفصيل ذلك في حينه.

المبحث الثاني: انتشار الكوارث والأوبئة والأمراض في العصر المملوكي:

تعرفنا في المبحث السابق إلى دوافع إنشاء البيمارستانات وتفاعل أثرها في العصر المملوكي، وكان من ضمن هذه الدوافع ما شهده ذلك العصر من انتشار الكوارث والأوبئة والأمراض، إلا أنه لما لهذه الظواهر من آثار واضحة وسمات جعلتها تلازم سني العصر المملوكي تقريباً، وتنتشر في مساحة واسعة من خارطة الدولة المملوكية، فلزم أن يفرد البحث لها مبحثاً يناسب الأثر الذي تركته في سعي المماليك لإنشاء هذه البيمارستانات بأنواعها وتعاهد رعايتها واشتغالها، وسوف يتطرق هذا المبحث لعرض الكوارث والأوبئة والأمراض التي ألمت بالناس في عصر سلاطين المماليك وأسبابها وما تركته تلك الأحداث من آثار في المجال الصحي في ذلك العصر.

وهذه الكوارث بتعدد ظواهرها وامتداد آثارها، فإنه يمكن كتابتها بجمعها حسب سني حدوثها، إلا أنني آثرت عرضها بموضوعاتها لاختصار الأحداث وبيان الأثر.

ولعلي أبدأ هنا بما أصاب البلاد في زمن المماليك من كوارث تركت أثراً بالغاً في الحالة الصحية في المجتمع المملوكي.

وفي البداية يناسب أن نبحث عن السبب الرئيسي الأكثر انتشاراً بين الأسباب الطبيعية الذي ساهم في حدوث هذه الكوارث، وهنا يبرز فيضان النيل في مقدمة الأسباب المباشرة والطبيعية، وهو ما سبق الحديث عنه في مناسبة الحديث عن الأحوال الاقتصادية في العصر المملوكي، وعرفنا كيف كان هبوط النيل أو زيادته يمثل خطراً على الحالة الاقتصادية وحياة الناس في ذلك العصر.^(١)

وهنا سوف أذكر ما أصاب مصر من حوادث اضطراب النيل، حيث إنَّ النيل بلغت زيادته إلى أول توت^(٢) خمسة عشر ذراعاً وثمانية عشر إصبغاً، وبعد

(١) ص ٣٩ من التمهيد.

(٢) أول الشهور في السنة القبطية، ويقع في أول الثلث الثاني من سبتمبر. (المعجم الوسيط، تأليف: بعض أعضاء مجمع اللغة العربية. بإشراف عبد السلام هارون. استانبول: الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ج ١، ص ٩٠).

ذلك انخفض ولم يزد في سنة تسع وأربعين وسبع مئة، وهذا أدى إلى وقوع الغلاء والفناء بالبلاد،^(١) وتكرر الانخفاض المتواصل، حتى أنه في سنة ثلاث وتسعين وست مئة وصلت نهايته خمسة عشر ذراعاً وثلاث ذراع، وهذا تسبب بدوره في ارتفاع الأسعار.^(٢) ومن حوادث سنة أربع وتسعين وست مئة حيث قصر فيها مد النيل وبلغ ستة عشر ذراعاً وسبعة عشر أصبغاً؛ ثم هبط من ليلته ولم يعد، فتزايد الغلاء واشتد البلاء، وزادت الأسعار "وتزايد موت الناس حتى بلغت عدة من أطلق من الديوان في شهر ذي الحجة سبعة عشر ألفاً وخمسائة، سوى الغرباء والفقراء وهم أضعاف ذلك"،^(٣) وتسبب هذا القصور أيضاً في إتلاف الكثير من الغلال التي كانت في الأجران.^(٤)

وكانت سنة خمس وخمسين وسبع مئة كثيرة الحوادث حيث زاد النيل زيادة يندر وقوع مثلها، ففسدت الغلال والمزروعات "وتقطعت الجسور التي بجميع النواحي، تصل من بولاق"^(٥) إليها، ويركب الناس في المراكب من بولاق إلى شبرا^(٦) ودمنهور"^(٧) وتؤدي أيضاً زيادة النيل إلى أن تلقى المراكب

(١) ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ / ١٤٩٩م). بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى. ط ٢. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. - ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م). ج ١، ص ٣٩٠.
(٢) المقرئزي. السلوك. ج ٢، ص ٢٥٦.
(٣) المقرئزي. السلوك. ج ٢، ص ٢٦٢.
(٤) المقرئزي. السلوك. ج ٣، ص ٢٤٩.

(٥) بولاق: هي من قرى الجيزة، كانت تعرف بمنية بولاق؛ ثم عرفت ببولاق التكروري، بعد أن نزل بها الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري في عهد العزيز بالله الفاطمي، وكان الناس يعتقدون فيه الخير والصلاح، فلما مات بني عليه قبة وعمل بجانبها جامع، فاشتهرت هذه القرية من ذلك الوقت باسم بولاق التكروري، وبعد سنة ٧٩٠هـ (١٣٨٨م) طغى ماء النيل على بولاق التكرور، فأخذ منها قطعة عظيمة كانت كلها مساكن، فخاف أهل البلد أن يأخذ النيل ضريح الشيخ التكروري والجامع لقربهما للنيل، فنقلوا الضريح والجامع إلى داخل البلد. (المقرئزي. الخطط. ج ٤، ص ١٣٨)، وهي الآن حي من أحياء القاهرة.

(٦) شبرا: هي من قرى مصر في زمن المماليك وهي الآن من محافظات القاهرة المشهورة.
(٧) المقرئزي. السلوك. ج ٤، ص ٢١٤، ودمنهور: بلدة بينها وبين الإسكندرية يوم واحد في طريق مصر. (ياقوت الحموي الحموي. معجم البلدان. مج ٢، ج ٤، ص ٣١٣).

التي قبلها وبحريها، وتعطلت أكثر الدواليب،^(١) وتهدمت دور كثيرة مما يجاور النيل والخلجان، وغرقت البساتين، وفاض الماء حتى بلغ قنطرة قديدار،^(٢) فكانت المراكب تكون بالشاطئ ويحذفها إلى البر، وهذا مجمل للخسائر التي جلبتها زيادة النيل في ذلك العام،^(٣) وكان لتوقف زيادة النيل آثار عظيمة حيث ترتفع أسعار الغلال، وبهذه الأحوال يلجأ الناس إلى الاستسقاء كي لا تفسد محاصيلهم،^(٤) وفي الجانب الآخر من أقاليم الدولة حصل في دمشق سنة سبع وتسعين وست مئة أنه عدم الثلج وغارت العيون، وهلك أكثر الزرع وجفت أشجار البساتين.^(٥)

أما بالنسبة للزلازل فإنني لم ألمس من خلال ظهورها أثراً مباشراً لحدوث الأوبئة والأمراض بشكل يدعو إلى سردها، حيث إن هناك كوارث كانت تتسبب في إحداث خسائر مادية وبشرية بصفة مباشرة، وهي تتمثل بالسيول، ففي بعلبك^(٦) سنة اثنين وتسعين وست مئة وقعت أمطار وسيول عظيمة " ففسد من كرومها ومزارعها ومسالكها ما تزيد قيمته على مائة ألف دينار"،^(٧) وحدث بدمشق سنة تسع وستين وست مئة سيل عظيم، وأتلف الشيء الكثير، وأغرق من العالم مالا يحصى، " ويقال إنه هلك به تقدير

(١) تطلق على الآلة التي فيها حركة دائرية سواء في الساقية أو الطاحونة أم المعصرة أو في الحليج أو الغزل والنسج أو في الصناعة الفخار. (الزيدي في تاج العروس ومعجم أخرى نقلا عن محمد أمين وليلى إبراهيم. المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية. القاهرة: دار النشر بالجامعة الأمريكية، [١٩٩٠م]، ص ٥١).

(٢) قنطرة قديدار: تقع على الخليج الناصري. (المقريزي. السلوك. ج٤، ص ٢١٤، حاشية رقم ٢).

(٣) المقريزي. السلوك. ج٢، ص ٦٣٦.

(٤) المقريزي. السلوك. ج٦، ص ٩٨.

(٥) المقريزي. السلوك. ج٢، ص ٢٩٢.

(٦) بعلبك: مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام لا نظير نظير لها في الدنيا بينها وبين دمشق ثلاثة أيام. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج ١، ج ٢، ص ٣٥٨).

(٧) المقريزي. السلوك. ج٢، ص ٢٤١.

عشرة آلاف نفس، وأخذ الطواحين بحجارتها" ^(١) وأيضاً حصل ذلك في مصر والقاهرة في سنة إحدى وأربعين وسبع مئة حيث أستمطر المطر لمدة ستة أيام، فهدم أماكن عدة، ^(٢) وهلك به أغنام كثيرة، وغرق فيه واحد وعشرون مركباً وصار يقذف المركب إلى البر، ^(٣) وسالت الأزقة والشوارع، وخاضت الخيل بالشارع في الماء فبلغ بطولها، وسالت الجبال سيلاً عظيماً إلى الغاية، ^(٤) وهجم السيل كذلك في سنة ست وثمانين وسبع مئة على دمشق، وخرّب بها عدة دور. ^(٥)

كما أشار أبو الفداء إلى ما أصاب طرابلس سنة ٧٤١هـ (١٣٤١م) من سيل عظيم هلك فيه خلق عظيم، وزاد به نهر حماة، وغرقت دور كثيرة، وتلفت بذلك عديد من البساتين. ^(٦)

وكان للرياح دورٌ بارزٌ في حدوث الأوبئة والأمراض بما تسببه من سرعة نقل العدوى من منطقة لأخرى. ففي دمشق هبَّت ريح عاصفة سنة تسع عشرة وسبع مئة تسببت في هدم كثير من الجدران والستائر، وهلك جماعة تحت أنقاض المنازل، ومن شدتها اقتلعت كثيراً من الأشجار، ^(٧) ويضيف المقرئ أن هبوب الرياح يثير القلق للناس بسبب ما تحمله من الأتربة الضارة، وما تقوم به من هدم الدور، واقتلاع المحصولات الزراعية، ^(٨) وكان لهبوب الرياح

(١) العيني، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م). عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م). ج ٢، ص ٨٠.

(٢) المقرئ. السلوك. ج ٣، ص ٢٤٢.

(٣) المقرئ. السلوك. ج ٣، ص ٢٩٥.

(٤) المقرئ. السلوك. ج ٥، ص ١٢٧.

(٥) المقرئ. السلوك. ج ٥، ص ١٦٣.

(٦) المختصر في أخبار البشر. - مج ٢، ج ٤، ص ١٤٣.

(٧) ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م). تذكرة النبيه في أيام أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٨) (١٩٨٢م). ج ٢، ص ١٠٢.

(٨) السلوك. ج ٣، ص ١٥.

العاصفة آثار قوية تتسبب في قلع عدة أشجار، وتساقط أماكن كثيرة، وهذا ما حدث داخل القاهرة سنة ثمان وخمسين وسبع مئة واستمرت هذه الرياح فترة طويلة "واستمر ذلك الرياح ثائرة، من إشراق الشمس، إلى نصف الليل، حتى ظنَّ الناس أنَّ القيامة قد قامت وصار بعضهم يودع بعضاً" ^(١) وبعد ذلك هبَّت رياح عاصفة بالقاهرة سنة سبعين وسبع مئة، سقط منها نخيل كثيرة، وعددٍ من الدور، وغرقت سفن متعددة ومات جماعة تحت الردم وذلك أدى إلى فزع الناس. ^(٢)

وبهذا نرى مدى خطورة هذه الرياح العاصفة وما تخلفه من آثار مدمرة، بالإضافة إلى ذلك فإنَّ هناك كوارث عديدة أخرى مثل كثرة سقوط الثلج، وهو ما حدث سنة تسع وسبعين وست مئة حيث وقع بالديار المصرية بردٌ آذن بالردى وأضل السالكين في طرقها عن الهدى وتسبب في أهلاك مالا يحصى من الزرع الأخضر. ^(٣)

وحدث في عام خمس وأربعين وسبع مئة بدمشق، حيث أخذ يتساقط لمدة أسبوعين، وبالتالي أدى ذلك إلى تجميد المزروعات فلا يحصل بها النفع، وفي العام نفسه حصل تواتر بسقوط البرد بأرض مصر، مع ريح وبرق ورعد مهول وجاءت متصلة بها سما؛ ثم شديدة الحر، بحيث تطاير منها شرر مما أدى إلى إحراق رؤوس الأشجار وزريعة الباذنجان، وخاف الناس من ذلك، فأصبحت أراضي النواحي بيضاء من كثرة الجليد "وهلك من شدة البرد جماعة من بلاد الصعيد وغيرها" ^(٤) وفي عام أربع وأربعين وثمان مئة مرت سحابة في إقليم

(١) ابن إياس. بدائع الزهور ج ١، ص ٥٦١-٥٦٢.

(٢) المقرئزي. السلوك ج ٤، ص ٣٢٦.

(٣) ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر الحلبي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م). درة الأسلاك في دولة الأتراك (مخطوط)، ج ١، نسخة مصورة في جامعة القاهرة برقم (٢٢٩٦١). ص ٦٣.

(٤) المقرئزي. السلوك. ج ٧، ص ٤٢١.

مصر " فأصبح كثير من المزروعات وقد صقع وأسود ، كالخيار والفلو والجزر، فلم يُنتفع به " ^(١).

إلى جانب هذه الظواهر ظهرت هناك آفات حشرية ساهمت في ازدياد خطورة الكوارث، وتأجج أثرها وبخاصة في المحاصيل الزراعية، وكان مما تشير إليه المصادر انتشار الفأر في أرض حوران في سنة تسع وخمسين وست مئة ^(٢) حتى أنه أكل معظم الغلال فيقال إنه أكل ثلاثمائة ألف غرارة قمح، ^(٣) كما ظهر الفأر أيضاً بمصر سنة ست وتسعين وست مئة وأتلف كثيراً من الزروع فلم يتبق منه للناس إلا اليسير، ^(٤) وظهر الجراد في سنة إحدى وسبع مئة وكثر بدمشق وأكل أوراق الأشجار والفواكه، ^(٥) وانتشر سنة سبع وأربعين وسبع مئة بأعمال دمشق والبلقاء، ^(٦) وكان ذلك في وقت الشعير وأهلكه جميعاً " وأنه عمّ البلاد حتى وصل إلى الرمل ^(٧) وقرب من الصالحية، ^(٨) فهلك الشعير عن آخره "، ^(٩) وشنع أمر الجراد في سنة خمس وستين وسبع مئة بالشام وأتلف الزروع مما تسبب ذلك في غلاء الأسعار، ^(١٠) كما ظهر بمصر سنة ثمان

(١) المقرئزي. السلوك. ج٧، ص٤٦٧.

(٢) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كثيرة ومزارع. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج٢، ج٢، ص١٩٣).

(٣) المقرئزي. السلوك. ج١، ص٥٢٥.

(٤) المقرئزي. السلوك. ج٢، ص٢٨٠.

(٥) المقرئزي. السلوك. ج٢، ص٣٤٨.

(٦) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قبتها عمّان وفيها قرى كثيرة كثيرة ومزارع واسعة. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج١، ج٢، ص٣٨٥).

(٧) الرمل: مكان بين العريش وديار مصر. (ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم الت٦٩٧هـ/١٢٩٧م. مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق حسنين محمد ربيع. مصر: مطبعة دار الكتب المصرية. ١٩٧٧م). ج٥، ص١٩٧.

(٨) الصالحية: هي قرية كبيرة ذات أسواق وجامع في لحف جبل قاسيون من غوطة دمشق وفيها قبور جماعة من الصالحين. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج٢، ج٥، ص١٧٦).

(٩) المقرئزي. السلوك. ج٤، ص٢٦.

(١٠) المقرئزي. السلوك. ج٤، ص٦٧٤.

وعشرين وسبع مئة آفة الدودة وكان ذلك في وقت الزرع، ونعلم جميعاً ما للدودة من أضرار كبيرة على المحاصيل الزراعية،^(١) ونتيجة تتبع هذه الكوارث فإنها أدت بالتالي إلى وجود بعض المجاعات بالبلاد، وكان لها أثرها السلبي في صحة المجتمع المصري آنذاك.

وهنا أريد أن أشير إلى أن سلسلة الكوارث التي تعرضت لها مصر والشام في تلك المرحلة التاريخية كثيرة ومتتالية بحيث يصعب الحديث عن كل منها على حدة، وبالتالي يجدر بنا أن نذكر ما خلفته تلك الكوارث من انتشار الأوبئة والأمراض وما كان جراء ذلك من آثار خطيرة.

ومن الأوبئة ما أصاب بلاد الشام في سنة ست وخمسين وست مئة خصوصاً دمشق من وباء عظيم حتى أنه من كثرة الموتى لم يوجد مغسل،^(٢) وذكر المقرئزي في السنة نفسها أنه كان يموت في حلب في كل يوم ألف ومائتا إنسان، ومات الكثير في دمشق،^(٣) وفي الجانب الآخر من أقاليم الدولة حصل في مصر وأريافها سنة اثنين وسبعين وست مئة وباء، وفيه هلك خلق كثير، وكان غالبيتهم من النساء والأطفال،^(٤) ومن شدته في سنة أربع وتسعين وست مئة بلغ من يموت فيها كل يوم ألوف، فيذكر المقرئزي أنه: "يبقى الميت مطروحاً في الأزقة والشوارع ملقى في الممرات والقوارع"^(٥) اليوم واليومين لا يوجد من يدفنه، لاشتغال الأصحاب بأمواتهم والسقماء بأمراضهم"^(٦).

(١) المقرئزي. السلوك. ج ٣، ص ١١١.

(٢) العيني. عقد الجمان. ج ١، ص ١٨٣.

(٣) السلوك. ج ٢، ص ٨٧.

(٤) المقرئزي. السلوك. ج ٢، ص ٢٦١.

(٥) القوارع: جمع قارعة وقارعة الطريق أي وسطه. (المعجم الوسيط. ج ٢، ص ٧٢٨).

(٦) المقرئزي. السلوك. ج ٢، ص ٢٦١.

ومن الحوادث العظيمة التي ألمت بمصر ظهور الطاعون واشتداد أمره في سنة خمس وتسعين وست مئة حتى صار الناس يتساقطون موتى في الطرقات من نساء ورجال وأطفال، مما أدى إلى فناء ثلث أهل مصر وكان أشد أنواعه ما عرف بطاعون الأنساب، وسمي بذلك لأنه قلما مات به شخص إلا وتبعه أحد من أولاده وأقربائه وذوي رحمه، وهذا ما حدث سنة تسع وأربعين وسبع مئة وقد ذكر ابن حبيب أعراض هذا المرض بقوله: "وهلك الناس فيه بالبثرة واللوزة والخيارة ونفث الدم، يتفل الإنسان دمًا أصفر، وغاية ما يعيش بعد ذلك خمسون ساعة رملية، واستقرئ هذا الأمر فكان الشخص إذا تفل الدم، ودّع أصحابه، وأغلق حانوته، وحفر قبره، وأعد كفنه، وهياً تابوته، ومضى إلى بيته فمات، وأصبح معدوداً في العظام الرفات"^(١) مما أدى ذلك إلى وقوع الفناء والغلاء،^(٢) واستمر الوباء سنوات عديدة وفي أقاليم مختلفة فقد وقع في عامة أرض مصر ودمشق في سنة تسع وأربعين وسبع مئة ويقول عن ذلك المقرئ: "وأول ما بدأ الوباء بدمشق كان يخرج خلف أذن الإنسان بثرة فيخر صريعاً؛ ثم صار يخرج بالإنسان كبة تحت إبطه، فلا يلبث ويموت سريعاً"^(٣)، وشمل أيضاً أرض برقة إلى الإسكندرية "فصار يموت بها في كل يوم مائه؛ ثم مات بالإسكندرية في اليوم مائتان، وشنع ذلك حتى أنه صلي في يوم الجمعة بالجامع الإسكندري دفعة واحدة على سبع مائة جنازة"^(٤) ووقع بمدينة حلب وأعمالها في سنة أربع وستين وسبع مئة، ومات خلق كثير، وكان أكثره في الأطفال والشبان، وما زالت الطواعين تنتشر في الناس بالقاهرة ومصر حتى زاد أمره وبلغ عدة من يموت فيه باليوم الواحد ثلاثة آلاف، ووصل الوباء في السنة نفسها إلى دمشق وغزة^(٥) وحلب، وعامة بلاد الشام، فهلك فيه

(١) تذكرة النبيه. ج٣، ص ١١١.

(٢) ابن إياس. بدائع الزهور. ج ١، ص ٥٢٣.

(٣) السلوك. ج ٤، ص ٨٢.

(٤) المقرئ. السلوك. ج ٤، ص ٨٤.

(٥) غزة: مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل وهي من

خلائق كثيرة جداً،^(١) وبعد ذلك في سنة تسع وستين وسبع مئة كثر عدد الموتى في القاهرة ومصر، فأصبح يموت في كل يوم ماينيف على مئة ألف نفس،^(٢) واستمرت الطواعين في سنة أربع وسبعين وسبع مئة ببلاد الشام لمدة ستة أشهر،^(٣) وفشا الموت بالطاعون في سنة أربع وثمانين وسبع مئة بدمشق ووصلت العدة إلى السبعين وبعد ذلك زاد عدد الموتى إلى المئة؛ ثم ارتفع العدد حتى جاوز ذلك إلى مئتين وعشرين،^(٤) وفي حلب حدث سنة سبع وثمانين وسبع مئة بلغ من يموت بها في كل يوم ألف إنسان وزيادة،^(٥) وما زال الطاعون يقع بالناس في سنة تسعين وسبع مئة حتى مات منه عالم كثير من الناس،^(٦) ويذكر لنا ابن قاضي شهبة في السنة نفسها الوباء نفسه حيث وقع بالقاهرة ومصر وضواحيهما طاعون " ومات جماعة فجأة؛ ثم صار غالب المرضى يحصل له نُقَاطة ولا تطلع له كبة ويموت عن قرب"،^(٧) وفشا بالناس الطاعون في سنة ثمان وثمان مئة حتى خلت عدة بلاد، وأحصي من مات من أسيوط،^(٨) فكانوا عشرة آلاف، سوى من لم يفطن له، وتزايد حتى فشا في الناس وكثر الموت

من نواحي فلسطين غربي عسقلان. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج ٣، ج ٦، ص ٢٨٨).

(١) المقرئزي. السلوك، ج ٤، ص ٢٦٧.

(٢) المقرئزي. السلوك، ج ٤، ص ٣١٩.

(٣) المقرئزي. السلوك، ج ٤، ص ٣٥١.

(٤) ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد الأسدي الدمشقي (ت ٨٥١ هـ / ١٤٤٨ م).

تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش. دمشق: المعهد العلمي الفرنسي للدراسات

العربية. (١٩٧٧ م). مج ١، ص ٨١.

(٥) المقرئزي. السلوك، ج ٥، ص ١٧٩.

(٦) ابن الصيرفي، نور الدين علي بن داود بن إبراهيم الجوهري (ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م). نزهة

النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي. القاهرة: دار الكتب (١٩٧٠ م).

ج ١. ص ١٦٨.

(٧) تاريخ ابن قاضي شهبة. ص ٢٣٩.

(٨) أسيوط: مدينة في غربي النيل من نواحي صعيد مصر وهي مدينة جليلة كبيرة. (ياقوت

الحموي. معجم البلدان. مج ١، ج ١، ص ١٥٨).

الوحي " وبلغ عدد من يرد اسمه الديوان إلى مائتين وخمسين في كل يوم".^(١) ووصل هذا الطاعون في سنة اثنا عشر وثمان مئة إلى حمص^(٢) ومات بها وبحمّة^(٣) وطرابلس^(٤) ألوف من الناس،^(٥) وسار هذا الطاعون حتى وصل في سنة ثلاث عشرة وثمان مئة إلى بلاد فلسطين وحووران ونابلس،^(٦) فمات خلق كثير جداً،^(٧) وبعد ذلك في سنة ست عشرة وثمان مئة تزايد أمر الوباء بمصر،^(٨) وظهر في سنة ثمان عشرة وثمان مئة الطاعون في الناس بالقاهرة فمات منه جماعة،^(٩) وأيضاً ظهر الوباء نفسه في سنة تسع عشرة وثمان مئة بدمشق ووصل إلى القدس وصفد،^(١٠) وهذا كله تسبب في كثرة الموت بالإسكندرية ودمياط،^(١١) وما حولهما، حتى أنه بلغ من يموت بالقاهرة نحو

(١) المقرئزي. السلوك. ج٦، ص ١٨١.

(٢) حمص: بلد مشهور قديم كبير مسور وفي طرفه القبلي قلعة حصينة على تل عال كبيرة كبيرة وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج٢، ج٣، ص ١٨٢).

(٣) حماة: مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار واسعة الرقعة حفلة الأسواق يحيط بها سور محكم. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج٢، ج٣، ص ١٨٠).

(٤) طرابلس: مدينة بالشام عظيمة عليها سور صخر منيع وهي على شاطئ البحر ومبنى جامعها أحسن مبنى وبها أسواق حافلة ولها رساتيق وأكوار وضياع جلييلة، وتضاف إليها عدة قلاع وحصون داخلية في أعمالها، وحوالي مدينتها أشجار الزيتون. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج٣، ج٦، ص ٢٥٤).

(٥) المقرئزي. السلوك. ج٦، ص ٢٣٠.

(٦) نابلس: هي مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة لا عرض لها وهي كثيرة كثيرة المياه. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج٤، ج٨، ص ٣٥٩).

(٧) المقرئزي. السلوك، ج٦، ص ٢٧٩.

(٨) المقرئزي. السلوك، ج٦، ص ٣٤٨.

(٩) المقرئزي. السلوك، ج٦، ص ٣٧٦.

(١٠) المقرئزي. السلوك، ج٦، ص ٤١٦، ٤١٨. وصفد: مدينة في جبال عاملة المطلّة على حمص بالشام وهي من جبال لبنان. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج٣، ج٥، ص ١٩٣).

(١١) دمياط: مدينة قديمة بين تيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل مخصوصة بالهواء الطيب وعمل ثياب الشرب الفائق وهي ثغر من ثغور الإسلام. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج٢، ج٤، ص ٣١٤).

الأربعين باليوم الواحد وهذا حدث سنة عشرون وثمان مئة^(١) وبعد ذلك في سنة سنة ست وعشرين وثمان مئة عظم الوباء بدمشق، وفشا في البلاد إلى غزه؛ ثم وقع ببلاد الخليل عليه السلام،^(٢) وعاد الوباء من جديد في سنة إحدى وثلاثين وثمان مئة وكثر بصعيد مصر، فمات بشر كثير،^(٣) وظهر مرة أخرى في سنة سنة ثلاث وثلاثين وثمان مئة الوحي السريع بالطاعون في مدينة مصر الفسطاط^(٤) "فيموت الإنسان في أقل من ساعة، بغير تقدم مرض وكان أكثر أكثر هذا في الأطفال والشباب؛ ثم في العبيد والإماء، وأقله في النساء والرجال، وتجاوز في مدينة مصر الفسطاط المائتين في كل يوم، سوى من لم يرد الديوان"،^(٥) وفي السنة نفسها ذكر ابن إياس أن الطاعون تزايد بالديار المصرية، وعظم أمره "وصار من الطواعين المشهورة، حتى سمي بعد ذلك: "الفصل الكبير"، وكان هذا الطاعون مخالفاً لبقية الطواعين، فإن عادة الطعن يقع في أوائل فصل الربيع، وهذا وقع في وسط قلب الشتاء".^(٦)

وبعد ذلك حدث ظهرت أهوال عظيمة، وأمور غريبة، لاسيما ما وقع بمصر من أمر الطاعون، الذي انتشر في أنحاء البلاد سنة أربع وثلاثين وثمان مئة ولقد صورته لنا المقرئزي بقوله: "وكانت الناس تتساقط في الطرقات موتى، حتى كان الرجل أو المرأة يكتبون على رؤوسهم أوراقاً بأسمائهم وشهرتهم، واسم حاراتهم، وسكنهم، حتى إذا ماتوا في الطرقات يعرف أمرهم. وقد خرجت هذه السنة عن الناس وهم في شدة حال، بما وقع في هذه

(١) المقرئزي. السلوك، ج٦، ص٤٣١.

(٢) المقرئزي. السلوك، ج٧، ص٧٨-٨٠.

(٣) المقرئزي. السلوك، ج٧، ص١٤٨.

(٤) الفسطاط: هي مدينة مشهورة بمصر، بناها عمر بن العاص. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج٣، ج٦، ص٤٣٤).

(٥) المقرئزي. السلوك، ج٧، ص٢٠٥.

(٦) بدائع الزهور. ج٢، ص١٢٨. ويعلل الأطباء ذلك بسيلان الأخلاط في الربيع، وجمودها في في الشتاء. (المقرئزي. السلوك. ج٧، ص٢٠٤).

السنة، ومات فيها من أهل مصر نحو الثلث" ^(١) وما زال الوباء مستمراً في سنة إحدى وأربعين وثمان مئة حتى شنع بحماة، ووقع أيضاً ببلاد الصعيد من أرض مصر ووصل دمشق وكثير بحلب وأعمالها، وسار في سنة اثنان وأربعين وثمان مئة إلى القاهرة وكثير الموت به "وبلغت عدة من رفع اسمه من ديوان المواريث بالقاهرة أحد وعشرون إنساناً" ^(٢) ومع هذه الزيادة للطاعون تعطلت أحوال الناس في سنة أربع وستين وثمان مئة لكثرة الموتى، " وصارت الجنائز تمر في الشوارع والطرقات كالقطارات، وتصف النعوش في المصلات على بعضها وقت الصلاة" ^(٣) وأقنى الطاعون في سنة ثلاث وسبعين وثمان مئة الأطفال والمماليك والعبيد والجواري، ^(٤) وما زال الطاعون في زيادة حتى أنه مات بدمشق بدمشق في سنة أربع وسبعين وثمان مئة خلائق كثيرة لاتعدُّ ولا تُحصى، وفي مصر مات به خلائق حتى وصلت عدته إلى عشرة آلاف كل يوم، وكذلك في حلب وحماة وطرابلس، وكان ذلك كله في سنة سبع وتسعين وثمان مئة. ^(٥)

ولكثرة هذه الطواعين جعلت الناس يعيشون في غاية الرعب والخوف، ولازم الطاعون ظهور الحميات الحادة والأمراض وفشت بين الناس، وطلبت الأدوية والأطباء، حتى أنه عزَّ سائر ما يحتاج إليه المرضى وهذا ما حدث سنة تسع وسبع مئة ^(٦)، وظهرت بدمشق أمراض عديدة في سنة ست وعشرين وسبع مئة حيث يذكر الجزري وهو شاهد عيان ذلك بقوله: "حصل بدمشق للناس

(١) السلوك، ج٢، ص١٣٦.

(٢) المقرئزي. السلوك، ج٨، ص٤٠٩.

(٣) ابن إياس. بدائع الزهور، ج٢، ص٣٥٩.

(٤) المقرئزي. السلوك، ج٣، ص٢٩.

(٥) ابن الحمصي: أحمد بن محمد بن عمر (ت٩٣٤هـ/١٥٢٧م). حوادث الزمان ووفيات الشيوخ الشيوخ والأقران، تحقيق عبدالعزيز فياض خرفوش. ط١. بيروت: دار النفائس للطباعة

والنشر. -١٤٢١هـ. ج١، ص٢٣٠.

(٦) المقرئزي. السلوك، ج٢، ص٤٣١.

مرض وحمى وسعال ونزلات بحيث مرض كل من في دمشق ولم يبق فيه بيت بلا مرض، بحيث كنا في البيت سبعة أنفس مرضوا السبعة في وقت واحد وأذن المغرب ولم يكن عندنا من يُشعل علينا السراج إلا الجميع مرضى مطروحين"،^(١) وبهذا ربح بياعو الأدوية والأطباء والحجامون مالا كثيرا.^(٢)

وفي مصر أيضاً ظهرت أمراض فاشية في الناس من الحمى والبرد في سنة سبع وعشرين وسبع مئة، وتسبب في موت عدد كبير من الناس مع توقف الأحوال، وتعطل المعاش،^(٣) وظهر بعد ذلك أن حدث في سنة ستة وثمان مئة في الناس سعال، بحيث لم ينج أحد منه، وتبع ذلك حمى^(٤)، وتزايد في الناس بالقاهرة ومصر وفشت الحميات الحادة المحرقة في الناس لاسيما الأطفال والشباب، وامتد إلى حلب وحماة، وفشت الأمراض بدمشق وكان ذلك كله في سنة ست عشرة وثمان مئة^(٥)، وظهرت الأمراض من النزلات والسعال والجذري ففشت بين الناس في سنة ثلاثين وثمان مئة، بحيث لا يخلو بيت من عدة مرضى،^(٦) ونلاحظ أن الأمراض والحميات كانت لاتستمر مددٍ طويلة بعكس الطاعون الذي يستمر مدةٍ أطول وينتهي بهلاك أعداد كبيرة من الناس في الغالب.

وعلى الرغم من هول هذه الأحداث والأرقام التي مرت بالمناطق المملوكية عبر هذه السنين إلا إن الباحثة تتوقف عن قبول جميع هذه الأرقام على علاتها

(١) الجزري، محمد بن إبراهيم بن أبي بكر القرشي (ت ٧٣٨هـ / ١٣٣٩م). تاريخ حوادث الزمان وأنبأه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه " المعروف بتاريخ ابن الجزري"، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري. ط ١. بيروت: المكتبة العصرية. - ١٤١٩هـ [١٩٩٨م]. ج ٢، ص ١٢٣.

(٢) المقرئزي. السلوك، ج ٣، ص ٩٥

(٣) المقرئزي. السلوك، ج ٦، ص ١٩.

(٤) المقرئزي. السلوك، ج ٦، ص ١٠٣.

(٥) المقرئزي. السلوك، ج ٦، ص ٣٤٨، ٣٥٤.

(٦) المقرئزي. السلوك، ج ٧، ص ١٤٨.

لما يظهر فيها - أحياناً - من مبالغة تجعل القارئ يتوقف في تصديقها ويتردد في الأخذ بها.

وأخيراً فإنه من المناسب أن أبين موقف السلاطين المماليك أثناء هذه الكوارث والأوبئة والأمراض، وكانت هذه المواقف تمثل حلولاً قدمها هؤلاء السلاطين إزاء هذه الأزمات، وهي مجموعة حلول تمتد آثارها على كثير من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية إضافة إلى ما سجلته هذه الحلول من جوانب تتصل بالجانب الصحي، وكان من أبرز هذه الإجراءات ما يأتي:

- ما يقوم به السلاطين والموسورون من بناء البيمارستانات والصرف عليها وتأمين الأجهزة والأدوية بها وكذا تجهيز الموتى ودفنهم.
- التضرع والدعاء والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى كي يرفع الكوارث والأوبئة والأمراض عن البلاد يقول المقرئ في ذلك: " فنودي في دمشق باجتماع الناس بالجامع الأموي، فصاروا إليه جميعاً، وقرأوا به صحيح البخاري في ثلاثة أيام وثلاث ليال؛ ثم خرج الناس كافة بصبيانهم إلى المصلى، وكشفوا رؤوسهم وضجوا بالدعاء، ومازالوا على ذلك ثلاثة أيام، فتناقص الوباء حتى ذهب بالجملة".^(١)
- مهاجمة أماكن بيع الخمر وأماكن بيع الخمر وأماكن اللهو والفساد ومعاقة أصحابها، ولكن للأسف الشديد أن هذه الإجراءات مؤقتة إذ بمجرد انتهاء هذه الأزمات يعود الناس إلى ما كانوا عليه.^(٢)
- قيام بعض السلاطين بجمع الفقراء والمحتاجين ويوزعهم على الأمراء وكبار رجال الدولة والأعيان والتجار ولكل واحد منهم عدد يناسب قدرته ويلتزم بإطعامهم طوال فترة الأزمات.^(٣)

(١) المقرئ. السلوك، ج٤، ص٨٥.

(٢) قاسم عبده قاسم. النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك. ط١. القاهرة: دار المعارف. (١٩٧٨م). ص٧١.

(٣) قاسم عبده. النيل والمجتمع المصري. ص٧٢.

وبعد ، فلعله من خلال هذه القراءة السريعة لهذه الحوادث التي أفاضت المصادر برصدها عبر سني حكم الدولة المملوكية ، مما يجدر ذكره هنا إن هذه الأوبئة والأمراض لم تقتصر على أقاليم الدولة المملوكية بل شملت أقاليم كثيرة خارج دولة المماليك في ذلك العصر ولم تقتصر أيضاً على الفقراء وعامة الناس بل شملت حتى السلاطين وكبار رجال الدولة ، وهذا يجعلنا نستبين الأثر الذي خلفته تلك الكوارث والأوبئة على المجتمع المملوكي ، وبدأت بوضوح حاجة الناس لميل الدولة إلى الاهتمام بالجانب الصحي ، وكانت أداة ذلك هي البيمارستانات التي تسابق حكام الدولة المملوكية والأمراء والمحسنون بإنشائها ، وهذا ما سوف تأتي إليه الدراسة بإذن الله تعالى بتفصيل في المباحث الآتية.



المبحث الثالث: بناء البيمارستانات والاشتراطات البيئية والفنية:

عرفت العمارة المملوكية أنواعاً عديدة من منشآت الخدمة الاجتماعية ومنها عمارة البيمارستانات التي تعدُّ عمارتها من المنشآت الخيرية المهمة، والتي كان يُقدم السلاطين والأمراء والمحسنون على بنائها تأميناً لصحة مواطنيهم وسلامتهم من كافة الأمراض، فقام هؤلاء ببنائها وفق اشتراطات بيئية وفنية. فمن حيث بقعة البيمارستانات وموقع إقامته كانوا يحرصون على اختيار أنسب الأماكن البعيدة عن الضوضاء، وأجملها لإقامة البناء عليه، كالقرب من النهر، أو المنتزهات، ويحفون البيمارستان في العادة بحديقة تتخللها المياه وهذا ما عمل بالبيمارستان المنصوري الذي شيده الملك المنصور قلاوون حيث كانت مساحته تبلغ عشرة آلاف وست مئة ذراع، فكان يمتاز بحدائقه الواسعة، وفيه أربعة أواوين فخمة، في كل واحد نافورة يتدفق منها الماء، ويدور في قاعات المرضى، وينساب فيسقي الأزهار والرياحين التي كانت تزين هذا البناء وما فيه من ساحات وأجنحة، مما لم يكن مثلها في بيوت المترفين،^(١) وهذا يدل على مدى حرص القائمين على إنشائها بإبقاء الهواء صحي ونقي.

ومما سجله التاريخ من طرائف اختيار المكان المناسب واللائق صحياً وبيئياً لإقامة البيمارستانات ما تشير إليه المصادر من قيام نور الدين محمود ابن زنكي (٥٤١-٥٦٩هـ / ١١٤٦-١١٧٤م) عندما عزم على بناء البيمارستان العتيق في حلب أنه أمر بذبج خروف وتقطيعه أربعة أرباع، ومن ثم تعليقها بأرباع المدينة ليلاً، فإذا أصبحوا فحسوا القطع، فما وجدها أحسن رائحة، بنوا البيمارستان في الربع الذي كانت فيه،^(٢) وهذا ما اتبعوه عندما بنوا

(١) المقرئزي. السلوك. ج٢، ص ١٧٥-١٧٦ (حاشية رقم ١).

(٢) ربما أن نور الدين قد استفاد من هذا التصرف مما نسب للطبيب الرازي حينما أراد بناء البيمارستان العضدي مع أنني أتوقف عن قبول هذه القصة لأن الرازي وعضد الدولة البويهبي لم يتعاصرا. فالرازي توفي سنة ٣١١هـ (٩٢٣م) والبيمارستان العضدي بني سنة ٣٦٨هـ (٩٧٨م) وافتتح سنة ٣٧٢هـ (٩٨٢م)، فلعله أريد طبيب غيره، أو إنما كان تردده إلى البيمارستان من قبل أن يجده عضد الدولة. (ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص: ٣٨).

(١) البيمارستان النوري العتيق في مدينة حلب.

ولم تكن إقامة تلك البيمارستانات تتم بطريقة عشوائية بقدر ما كان لها من الاشتراطات والمواصفات العينية والمكانية مما يؤكد ذلك التخطيط الدقيق في إقامة تلك المرافق المهمة أو الحيوية، كما سجل العصر المملوكي الازدهار المعماري والتفنن في اختيار عناصره وتنوع فنونه من ذلك ما شهدته بيمارستانات ذلك العصر التي لا تزال آثارها باقية في كل من القاهرة ودمشق وحلب، ونلمس فيما بقي من هذه العمائر، تطوراً ملحوظاً في فنون العمارة وتنوعاً وغنى في العناصر المعمارية والزخرفية، ويرجع ذلك إلى طول فترة العصر المملوكي وميول الناس إلى حياة التفنن في الزينة، وظهر ذلك على حركة البناء فبدت البيمارستانات غارقة بالزينة من الداخل والخارج، وهذا ما نجده في البيمارستان المنصوري بالقاهرة وهو الذي يعد علامة حضارية مميزة لعصر سلاطين المماليك بعامه ولعهد السلطان قلاوون بخاصة إذ يصف محمد محمد أمين جانباً فنياً من هذه البيمارستانات بقوله: "وبأقصى هذا الدهليز^(٢) باب كبير معقود جنبه بالطوب الآجر والجبس بعتبة سفلى صواناً^(٣) يغلق عليه زوج أدراف^(٤) مدهون مذهب بحشوات منقوشة مذهبة وصفائح حديد مذهبة يدخل منه إلى قاعة كبرى وهي البيمارستان المبارك تحوي أربعة أواوين متقابلة مسقفة نقياً بقباب وأخياط معرقة بالذهب واللأزورد والأصباغ المختلفة

(١) ابن الشحنة، أبو الفضل محب الدين الحلبي (ت ٨٩٠ هـ/١٤٨٥ م). الدرر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، نشر يوسف بن إيلان سرقيس. دمشق: دار الكتاب العربي. - ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م). ص ٢٣٠-٢٣١.

(٢) الدهليز: هو ممر داخلي، أو مدخل يؤدي إلى قاعة أو وحدة سكنية. (الزيدي في تاج العروس من جواهر القاموس ومعجم أخرى نقلاً عن محمد أمين وليلى إبراهيم. المصطلحات المعمارية. ص ٤٩).

(٣) الصوان: هو من أنواع الحجر التي ترد في الوثائق الحجر الصوان وهو حجر صلب جداً. (الزيدي في تاج العروس من جواهر القاموس ومعجم أخرى نقلاً عن محمد أمين وليلى إبراهيم. المصطلحات المعمارية. ص ٣٣).

(٤) أدراف: المقصود بها مصراع الباب، وقد يكون للباب درفتان، وتستخدم في الغالب للباب الخشب الذي يغلق به الباب. (الزيدي في تاج العروس من جواهر القاموس ومعجم أخرى نقلاً عن محمد أمين وليلى إبراهيم. المصطلحات المعمارية. ص ٤٧).

وأربع قاعات متفرقة ومطبخ وبيوت برسم الحواصل وفسقيه^(١) كبيرة بديعة الشكل تعلوها قبة محمولة على أربعة عمد رخام أبيض مكلمة القواعد الرخام المذهبة، وأربعة أركان حجر نحيت مرضم ظاهرها بالرخام الأبيض والأزرق والأحمر والكريدانات^(٢) المنوعة المجزعة إلى علو صحاف العمدة المذكورة^(٣). وهذا الوصف قد نجده يتكرر في معظم بيمارستانات العصر المملوكي.

أما بالنسبة لتخطيط بيمارستانات العصر المملوكي بشكل عام فإنها تتألف عامة من باب مفتوح ضمن إيوان يليه دهليز يفضي إلى صحن صغير، تحيط به غالباً أواوين، ونجد في أحيان نادرة أروقة على أعمدة، كما هو الحال في البيمارستان الأرغوني في حلب، والتصميم الداخلي مكون في العادة من قسمين قسم خاص بالرجال والآخر للنساء، وكل قسم يفرد لكل طائفة من المرضى أمكنة وقاعات تختص بهم، وجعلوا قاعة للرمد وقاعة للجرحى... وهكذا، ويفرد التصميم أماكن لطبخ الطعام والأشربة والأدوية والمعاجين، ومكاناً يفرق منه الشراب وغير ذلك مما يحتاج إليه كما كان يرتب فيه مكان يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس طب ينتفع به الطلبة مما يؤكد تزواج العمليتين الطبية والتعليمية في كثير من بيمارستانات ذلك العصر، وظهرت الجدران بجمالها وفخامتها ورونقها وما فيها من بديع النقوش

(١) الفسقية: هي حوض يتوسط صحن الجامع أو المدرسة غالباً للشرب وأيضاً هي التي تتوسط الدور قاعات بين الإوانات في القصور لتلطيف الجو زمن الصيف ولها أشكال متعددة. (الزيدي في تاج العروس من جواهر القاموس ومعاجم أخرى نقلاً عن محمد أمين وليلى إبراهيم. المصطلحات المعمارية. ص ٨٥).

(٢) الكريدانات: يقصد بها إطارات من الرخام دائرية ذات أشكال مختلفة. (الزيدي في تاج العروس من جواهر القاموس ومعاجم أخرى نقلاً عن محمد أمين وليلى إبراهيم. المصطلحات المعمارية. ص ٩٥).

(٣) محمد محمد أمين. الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر. ط ١. القاهرة: دار النهضة العربية. (١٩٨٠م). ص ١٥٨ - ١٥٩.

والمقرنصات^(١) وظهرت هذه الصورة الفنية في البيمارستان المؤيدي بالقاهرة. والشبابيك مستطيلة الشكل في القسم السفلي، والطاقت الصغيرة في القسم العلوي، والفائدة منها لتهوية الغرف ودخول الشمس، وتغلق هذه البيمارستانات بأبواب ذات طراز فني بديع حيث نجدها مصنوعة من الخشب السميك الذي زين وجهه بقطع خشب دقيقة الصنع تشكل بمجموعها رسوماً هندسية جميلة أو تكون الأبواب مزينة بقطع مربعة من صفائح الخشب المنقوش،^(٢) ولقد استخدم أسلوب التعشيق والتطعيم، كما استخدم أسلوب تكسية الأبواب برقائق النحاس أو البرونز،^(٣) كما عني السلاطين بحسن موقع البيمارستان وتناظم تخطيطه وإتقان وصفه وزخرفته من أجل بعث البهجة والسرور في أنفس المرضى؛ ثم إننا إذا أمعنا النظر في أوصاف البيمارستانات وتخطيطها فإننا غالباً ما نجد ذلك التشابه بصورة كبيرة جداً بين عناصرها المعمارية ومحتوياتها الفنية وتخطيطها المعماري وتقسيم البناء لاسيما في مباني المدينة الواحدة أو ربما نجد بعض الاختلافات تظهر في حال انتقالنا إلى موقع آخر وبمنطقه أخرى نتيجة مؤثرات بيئية ومعمارية معينة وهذا ما سيرد تفصيلاً في المبحث الخامس والخاص برصد البيمارستانات في الدولة وتطور أوضاعها من هذا الفصل.



(١) المقرنصات: هي حلية معمارية تتكون من قطع من الحجر أو الخشب أو غيره على شكل عقود صغيرة الجزء العلوي منها بارز عن الجزء الأسفل، وتوضع بجوار بعضها فتكون كرنيش بارز. (الزبيدي في تاج العروس من جواهر القاموس ومعجم أخرى نقلاً عن محمد أمين وليلى إبراهيم. المصطلحات المعمارية. ص ١١٣).

(٢) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات، ص ٢٢٩.

(٣) فهمي عبد العليم. العمارة الإسلامية في عصر المماليك الجراكسة " عصر السلطان المؤيد شيخ"، القاهرة: سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية. العدد ٣٣. ص ٩٥.

المبحث الرابع: أنواع البيمارستانات: ثابتة، متنقلة:

كما سبقت الإشارة إليه في تمهيد هذا البحث فإنَّ البيمارستانات التي عُرفت في البلاد الإسلامية كانت على نوعين: ثابت ومحمول.

أمَّا البيمارستان الثابت فهو: " ما كان بناءً ثابتاً في جهة من الجهات لا ينتقل منها. وهذا النوع من البيمارستانات كان كثير الوجود في كثير من البلدان الإسلامية لاسيما في العواصم الكبرى كالقاهرة وبغداد ودمشق... إلخ، ولا يزال أثر بعضها باقياً على مر الدهور إلى الآن كالبيمارستانات المنصوري (قلاوون الآن) بالقاهرة، والبيمارستان المؤيدي بالقرب من القلعة بالقاهرة أيضاً، والبيمارستان النوري الكبير بدمشق، والبيمارستان القيمري بها أيضاً، وبيمارستان أرغون بحلب... إلخ".^(١)

ونجد أنَّ هذه البيمارستانات في العصر المملوكي لم تتغير تغيراً ملحوظاً بالنسبة للبيمارستانات التي سبقتها، ولكن نجدها قد توسعت وأخذت شكلها المتكامل، بعد أن أُدخل عليها الكثير من الإضافات والتحسينات، وبلغت ذروتها وهو ما سوف يأتي ذكره في المبحث التالي.

أما البيمارستان المحمول أو المتنقل، فهو: "الذي يُنقل من مكان إلى مكان بحسب ظروف الأمراض والأوبئة وانتشارها وكذا الحروب،... كان هذا النوع من البيمارستانات معروفاً لدى خلفاء الإسلام وملوكهم وسلطانهم وأطبائهم، بل الراجح أن يكونوا هم أول من أنشأه، وهو عبارة عن مستشفى مجهز بجميع ما يلزم للمرضى والمداواة من أدوات وأدوية وأطعمة وأشرية وملابس وأطبباء وصيادلة، وكل ما يعين على ترفيه الحال على المرضى والعجزة والمزمنين والمسجونين ينقل من بلد إلى أخرى من البلدان الخالية من بيمارستانات ثابتة أو التي يظهر فيها وباء أو مرض مُعدٍ".^(٢)

(١) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١٠- ١١.

(٢) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١١.

وتتعدد صور البيمارستانات المتنقلة فهناك بيمارستانات السبيل وهي التي ترافق قوافل الحجاج أو التجار في حلهم وترحالهم، فتجهز بمواد الإسعاف، وما يحتاجه المرضى، وتودع في صناديق خاصة بها وبرفقة طبيب وممرضين يعالجون من في القافلة أو من تمر بهم القافلة كأهل الريف الذي يمرون به، أو منقطعاً في الطريق فيسعفونه، وأول من قام بهذا العمل من البيمارستانات هو معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في القرن الأول للهجرة، وذلك عندما أرسل أبا الحكم الدمشقي الطبيب مع ولده يزيد إلى مكة عندما ولي ابنه يزيد إمارة الحج، ليشرف عليه، وعلى من في القافلة من المرضى.^(١)

وكان المحسنون ومحبو الخير يتسابقون في النفقة على هذه المارستانات بسخاء، خاصة ما كان منها متوجهاً إلى بيت الله الحرام، وهنا سوف أذكر نماذج لذلك، فنجد خاتون السفيرية ت ٥١٥هـ (١١٢١م) وهي حظية السلطان ملكشاه، وأم ولديه محمد وسنجر، لها في كل سنة مارستان سبيل، يخرج مع الحاج، وتجهزه بكل ما يحتاجه.^(٢)

كما كان أتابكة الموصل (٥٢٠ - ٦٦٠ هـ / ١١٢٧ - ١٢٦٢م)^(٣) يجهزون عدّة بيمارستانات لقوافل الحجاج التي تخرج من بلادهم، ومنها سبيل

(١) القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م). أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة: مكتبة المتنبّي. ص ١٢٣.

(٢) ابن كثير. البداية والنهاية. ج ٢، ص ١٨٧٨.

(٣) الأتابكيّات: جمع أتابكية وهي كلمة مشتقة من الكلمة التركية "أتابك" المركبة من المقطعين (أتا) بمعنى: أب، و "بك" بمعنى أمير، وتعني "الوالد الأمير" وكان هذا اللقب يُطلق على من يتولى تربية أبناء الملوك والسلاطين، ويرعى شؤونهم (القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي [ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م]. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية. - ١٤٠٧هـ [١٩٨٧م]. ج ٤، ص ١٨). وكان الأتابك: هو الحاكم الأعلى في الأتابكية، وكان يُلقب بالملك أيضاً، وله الإشراف على جميع شؤون المملكة أو الأتابكية، كما أنه يُعدّ المسؤول الأول عن السياسة الخارجية، ومن حقه أن يعلن الحرب، ويقود الجيش، ويعين الولاة والقواد، فهو لذلك أشبه بالسلطان السلجوقي، كما أن له الحق في نقش اسمه على السكه، والدعاء له في الخطبة إلى جانب اسم الخليفة والسلطان. (رشيد عبد الله الجميلي. دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي، بيروت: دار النهضة العربية. [١٩٧٠م]. ص ٢٣٦).

صاحب سنجار، الذي عهد به إلى أمير أمين، معه سبيل في صناديق، وإذا حطت القافلة، قعد الأمير في خيمته، ومعه الطبيب، فيقبل المرضى لمراجعة الطبيب، وأخذ العلاج منه.^(١)

ولقد عُرف البيمارستان المنتقل ببلاد الحجاز بوجه عام، ومكة المكرمة بوجه خاص في العصر المملوكي وهو الذي يكثر بها في أوقات مواسم العمرة والحج من كل سنة، وبخاصة تلك التي كانت تأتي إليها مع مواكب الحج من كثير من أنحاء العالم الإسلامي، وبخاصة في ركب الحاج المصري، الذي جرت العادة أن يصحبه كحال وطبيب عارف، وجرائحي حاذق، ويصرف لكل منهم ما يحتاج إليه من الجوامك،^(٢) وما عساه أن يكون بصحبة كل شخص منهم من الأدوية والعقاقير والأشربة والمعاجين والمسهلات والأكحال والإشبانات والمراهم والأدهان والمفردات والعطريات والدريقات^(٣) والسفوفات^(٤) وغيرها مما يحتاج إليه المرضى، ولم تكن الخدمات التي تقدمها مثل هذه البيمارستانات مقصورة على وفد الحجيج، بل قدمت خدماتها لكل من تقدم إليها، فيعاينه أحد الأطباء الموجودين، ويصف له مايناسبه من

(١) سعيد الديوه جي. الموجز في الطب الإسلامي، ط ١. الكويت: سلسلة الكتب المتخصصة، (١٩٨٩م)، ص ٧٥.

(٢) الجوامك: هي الرواتب، ومفردتها: جامكيّة. واللفظ من الفارسية "جامه" بمعنى اللباس، ومعناها اللغوي كما يرى دوزي: مصروفات دولاب الملابس، والجامكية في الاصطلاح: الجراية الشهرية تعطى من غلة الوقف، فهي من ناحية أجر، ومن ناحية منحة. (العُمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م). التعريف بالمصطلح الشريف، حققه وضبطه محمد حسين شمس الدين. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية. ١٤٠٨هـ [١٩٨٨م]، ص ٢٥٩، حاشية رقم ٢).

(٣) الدرياقات: هو دواء مركب لعلاج السموم. (محمد سيف النصر أبو الفتوح. منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة، "رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة أسيوط، كلية الآداب، ١٩٨٠م"، ص ٥٨، حاشية رقم ٤).

(٤) السفوفات: هي الأدوية الممسكة والمسهلة وهي على شكل مسحوق يأخذ بواسطة الفم، وهي سريعة الفساد لخلو مركباتها من حافظ ينقي عنها الفساد. (محمد سيف النصر. منشآت الرعاية الاجتماعية. ص ٥٨، حاشية رقم ٣).

الدواء ويصرفه له من "الشرابخاناه" أو "الدواء خاناه" المحمولين صحبة هذا البيمارستان المتنقل، وبذلك كان هذا النوع من البيمارستانات يقدم خدماته لأهل مكة وغيرهم من طوائف المسلمين المتواجدين بها في موسم الحج والعمرة.^(١)

و يصف الرحالة ابن بطوطة صورة من صور هذه الخدمة وهو في طريق عودته من مكة إلى بغداد حينما وصف الركب المنسوب للسلطان المغولي أبي سعيد بهادر خان بن محمد خدا بنده أولغايتو (٧١٧-٧٣٦هـ / ١٣١٧-١٣٣٦م)، ومما قاله: " وفي هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل، يستقون منها الماء، وجمال لرفع الزاد للصدقة، ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض، وإذا نزل الركب طبخ الطعام في قدر نحاس عظيمة، تسمى الدسوت، وأطعم منها أبناء السبيل، ومن لا زاد معه، وفي الركب جملة من الجمال، يحمل عليها من لا قدرة له على المشي، كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه".^(٢)

وهذه المحامل شبيهة بالتي نراها في أيامنا هذه، عندما ترسل الدول الإسلامية بعثات طبية مع قوافل الحجاج لمعالجتهم في السفر، وفي أيام الحج .

ومن الصور الأخرى للبيمارستانات المتنقلة البيمارستانات المحمولة، التي يرجع الفضل فيها إلى الوزير المصلح " علي بن عيسى الجراح " وزير الخليفة المقتدر بالله العباسي (٢٩٥-٣٢٠هـ / ٩٠٧-٩٣٢م) ، حيث كان من أجل الوزراء الذين خدموا الدولة العباسية، وحاول إصلاح الكثير من شؤونها، يحنو على الفقراء والمساكين، ويقدم لهم ما يريحهم، ويخفف بؤسهم، ففكر في أهل السواد وما هم عليه من البؤس، وحاجتهم إلى المعالجة والإرشاد الصحي،

(١) علي السيد. الرعاية الصحية. ص١٤٦-١٤٧.

(٢) ابن بطوطة، محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م). تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت: دار صادر. -١٣٨٤هـ (١٩٦٤م). ص١٧٢.

فكتب إلى الطبيب سنان بن ثابت الحراني ما يأتي: "فكرت فيمن السواد من أهله، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الأطباء، فتقدم مد الله في عمرك بإيفاد متطبين وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون السواد، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم، ويعالجون من فيه؛ ثم ينتقلون إلى غيره"،^(١) ففعل سنان ذلك وانتهى أصحابه إلى سورا بلدة من بلاد العراق والغالب على أهلها اليهود. فكتب سنان إلى الوزير علي بن عيسى يعرفه ورود كتب أصحابه عليه من السواد: بأن أكثر من بسورا وشهر ملك يهود، وأنهم استأذنوا في المقام عليهم وعلاجهم أو الانصراف عنهم إلى غيرهم، وأنه لا يعلم بما يجيبهم به إذ كان لا يعرف رأيه في أهل الذمة، وأعلمه أن الرسم في بيمارستان الحضرة قد جرى للملي والذمي، فوقع الوزير توقيعاً نسخته: "فهت ما كتبت به أكرمك الله، وليس بيننا خلاف في أن معالجة أهل الذمة والبهائم صواب، ولكن يجب تقديمه والعمل به معالجة الناس قبل البهائم، والمسلمين قبل أهل الذمة، فإذا فضل عن المسلمين ما لا يحتاجون إليه صرف في الطبقة التي بعدهم، فاعمل أكرمك الله على ذلك واكتب إلى أصحابك به، ووصّ بالنتقل في القرى، والمواضع التي فيها الأوباء الكثيرة والأمراض الفاشية، وإن لم يجدوا بذرقة توقفوا عن المسير حتى يصح لهم الطريق ويصلح السبيل فإنهم إن فعلوا هذا وفقوا إن شاء تعالى".^(٢)

ويحفظ لنا التاريخ صورة أخرى من صور هذه البيمارستانات تسجل للوزير علي بن عيسى الجراح ت٣٣٥هـ (٩٤٦م) وزير الخليفة المقتدر وهي البيمارستانات الخاصة بالمسجونين حيث لاحظ هذا الوزير ضرورة ذلك وكلف بهذه المهمة الطبيب سنان بن ثابت الذي قام بتعيين مجموعة من الأطباء

(١) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١٢-١٣.

(٢) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١٣-١٤.

تقوم بزيارة السجون وتحمل إلى المساجين الأدوية والأشربة ويطوفون في سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى، فكتب الوزير إلى رئيس الأطباء "سنان بن ثابت"، وكان يتقلد المارستان في بغداد: "فكرت مد الله في عمرك في أمر من في الحبوس وأنهم لا يخلون مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تتألمهم الأمراض، وهم معوقون من التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء في أمراضهم فينبغي أكرمك الله أن تقرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم ويحملون معهم الأدوية والأشربة وما يحتاجون إليه من المزورات، وتتقدم إليهم بأن يدخلوا سائر الحبوس ويعالجوا من فيها من المرضى ويريحوا عليهم فيما يصفونه لهم ان شاء الله تعالى، ففعل سنان ذلك".^(١)

كما أن هناك أيضاً بيمارستانات مصغرة تقام في الأماكن التي يكثر بها اجتماع عدد كبير من الناس في أوقات مختلفة كالجموع - وقت صلاة الجمعة - وفي المهرجانات، والمجتمعات العامة، وفي الأماكن التي يعمل بها عدد من العمال، فيرسلون طبيباً، ومعه من يساعده في إسعاف من يصاب بأذى، وأول من كان له الفضل في هذا العمل الإنساني أحمد بن طولون والي مصر (٢٢٠-٢٧٠هـ/٨٣٥-٨٨٣ م)، ولما عمّر جامعته في القاهرة سنة ٢٦٥هـ (٨٧٨ م)، عمل في مؤخرة الجامع ميضأة فيها جميع الشرابات والأدوية، وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة.^(٢)

إذاً البيمارستانات المحمولة ترتاد الأصقاع النائية، والمحلات المنقطعة، يتفقدون المرضى، يعالجونهم، ويكون البيمارستان مجهزاً بكل ما يلزم من

(١) القفطي. أخبار العلماء. ص ١٣٢.

(٢) المقرئزي. الخطط. ج ٤، ص ٤٠.

أطباء، وصيادلة، وأطعمة وأشربة، وكل ما يحتاج إليه لمعالجة المرضى من أدوات، وإلى جانب التنقل في المحلات النائية كانوا أيضاً يتنقلون في أماكن الأمراض والأوبئة، حيث كان من عادة السلاطين المماليك أن يصطحب السلطان في سفره " غالب ما تدعو الحاجة إليه حتى يكاد يكون معه مارستان لكثرة من معه من الأطباء وأرباب الكحل والجراح والأشربة والعقاقير وما يجري مجرى ذلك، وكل من عاده طبيب ووصف له ما يناسبه يصرف له من الشرابخانه أو الدواء خاناه المحمولين في الصحبة"، وكان من عادة السلطان الملك الظاهر برقوق التردد على بلدة سرياقوس بركب عظيم وحفل كبير مصحوباً بكل ما سبق.^(١)

ومن صور البيمارستانات المتقلة البيمارستان الحربي وهو الذي يرافق الجيوش في حالتها حربيها وسلمها، وله أطباء وصيادلة مختصون وكل ما يلزم للعناية بالجرحى والمرضى والجنود.^(٢)

وقد ورد ذكر لهذا النوع من البيمارستانات حينما وضع عبدالله بن الزبير^(٣) مستشفى للجيش عندما حوَّصر في مكة المكرمة، وضرب فسطاطاً من ناحية من المسجد الحرام، وكلما أُصيب أحدٌ من أتباعه بجرح ينقل إلى ذلك الفسطاط للمعالجة.^(٤)

(١) المقرئزي. الخطط. ج٣، ص٣٥٠.

(٢) الديوه جي. الموجز. ص٧٧.

(٣) هو عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزيز بن قصي بن كلاب، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وهو صحابي جليل روى عن النبي صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث، وبويع بالخلافة أيام يزيد بن معاوية، وتمت البيعة له سنة أربع وستين وكان الناس بخير في زمانه توفي سنة ٧٣هـ (٦٩٢م). (ابن كثير. البداية والنهاية. ج٢، ص١٣٤١).

(٤) الديوه جي. الموجز. ص٧٧.

وتطور الحال بعد ذلك حتى صار يصحب الجيش أطباء وصيادلة وعقاقير وغلمان، وكل ما يحتاجونه من الآت وأدوات، وخيام، ومحامل مريحة واسعة مفروشة بالأثاث اللين، ينقل بها المرضى والجرحى، تحمل على الجمال، وكان أول من اتخذ هذه المحامل هو الحجاج بن يوسف الثقفي.^(١)

ولقد كان للمرأة المسلمة دور مشهود في ذلك حيث كانت تخرج مع الجيوش، فتداوي الجرحى وذلك منذ عهد الرسول ﷺ من وجود خيمة رفيده، ومن ذلك الوقت عرف البيمارستان الحربي.^(٢)

ولقد كثر استخدام هذا النوع من البيمارستانات في عهد السلاجقة حيث صار من مستلزمات الجيش أن يصحبه مارستان للمعالجة. ومن أشهر هذه المارستانات الكبيرة المارستانات الذي وضعه شمس الملك بن نظام الملك، ولقد جاء عنه: "ومن جملة مبدعاته في الخير، أنه جعل للمعسكر السلطاني بيمارستان [بيمارستاناً] يحمل آلاته وخيمه وأدويته والأطباء والغلمان والمرضى مائتاً بختي".^(٣)

ومن ضمن هذه البيمارستانات المشهورة البيمارستان الذي في معسكر السلطان محمود السلجوقي ت ٥٢٥هـ (١١٣٠م) وكان يعمل فيه الطبيب أبو الحكم عبدالله ابن المظفر بن عبدالله بن محمد الباهلي الحكمي المغربي (٤٨٦-٥٤٩هـ)، وجاء عنه أنه: "كان ذا معرفة بالأدب والطب والهندسة، وكان طبيب المارستان الذي كان يحمله أربعون جملًا، المستصحب في

(١) الديوه جي. الموجز. ص ٧٨.

(٢) الديوه جي. الموجز. ص ٢٩.

(٣) البنداري، الفتح بن علي بن محمد (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م). تاريخ دولة آل سلجوق، (وهو مختصر من كتاب "نصرة الفترة وعصر الفطرة" لعماد الدين محمد المشهور بالعماد الكاتب (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م). ط ٣. بيروت: دار الآفاق الجديدة. - ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠م). ص ١٢٩، والبُخت: هي الإبل الخراسانية ومفردها بُختي وجمعها بَخَاتِي، وبَخَاتِي، وبَخَاتِي. (المعجم الوسيط. ج ١، ص ٤١).

معسكر السلطان محمود السلجوقي حيث خيم. وكان القاضي السديد أبو الوفاء يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر المعروف بابن المرخم الذي صار قاضي القضاة ببغداد في أيام الإمام المقتفي فاصداً وطبيباً في هذا المارستان المحمول المذكور، وكان أبو الحكم يشاركه".^(١)

وفي سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٦م) كان الملك العادل الأيوبي (٥٩٦-٦١٥هـ / ١١٩٩-١٢١٨م)^(٢) قد يتفقد جيشه، ورأى من المصلحة أن يزيد عدد أطبائه. فقال للصاحب بن شكر:^(٣) نريد أن يكون مع الحكيم موفق الدين عبدالعزيز^(٤) ما يلحق لذلك. فامتثل أمره، وقال: وهنا حكيم فاضل في صناعة الطب، يقال له المهذب بن الدخوار،^(٥) يصلح أن يكون في خدمة مولانا، فأمر باستخدامه.^(٦)

(١) القفطى. أخبار العلماء. ص ٢٦٤

(٢) هو الملك سيف الدين أبو بكر بن أيوب بن شاذي من خيار الملوك وأجودهم سيرة، وحضر مع أخيه صلاح الدين مواقفه كلها في مقاتلة الفرنج، وكانت له في ذلك اليد البيضاء، وتوفي سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م). (ابن كثير. البداية والنهاية. ج ٢، ص ١٩٨٩).

(٣) هو عبدالله بن علي بن الحسين بن عبد الخالق بن الحسين ابن منصور الصاحب صفي الدين ابن شكر، المصري الديميري المالكي، ولد سنة (٥٤٨هـ)، وكان مؤثراً لأهل العلم والصالحين كثير البر لهم، وله مآثر حضارية مشهودة في بلاد الشام ومصر، ووزر للعادل والكامل من بعده وتوفي سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م). (الكتبي. فوات الوفيات. ج ٢، ص ١٩٣).

(٤) هو الشيخ الإمام العالم موفق الدين عبدالعزيز بن عبد الجبار بن أبي محمد السلمي. كان كثير الخير محباً له مؤثراً للجميل، عزيز المرؤة، وافر العربية، شديد الشفقة على المرضى وخصوصاً لمن كان منهم ضعيف الحال يتقدمهم ويعالجهم ويوصل إليهم النفقة وما يحتاجونه من الأدوية والأغذية. خدم بصناعة الطب في البيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي؛ ثم خدم بعد ذلك الملك أبا بكر بن أيوب وتوفي سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٧م). (ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٦٢٢-٦٢٣).

(٥) هو الصدر العالم الفاضل أبو محمد عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار أوجد عصره وفريد دهره وعلامة زمانه انتهت إليه رئاسة الطب ومعرفتها وتحقيق كلياتها وجزئياتها، ولد ونشأ بدمشق كحالا مشهوراً، وكتب في الطب، واشتغل بالعربية، وخدم الملك العادل الأيوبي بصناعة الطب، وخدم بالبيمارستان النوري الكبير بدمشق، واجتمع عليه خلق كثير لدراسة الطب منهم الطبيب ابن أبي أصيبعة صاحب المعجم المشهور، وصنف كتباً كثيرة قيل بلغت أكثر من مائة مجلدة، وكانت وفاته بدمشق في شهر صفر سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٠م). (الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان [ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م]. سير إعلام النبلاء، ط ٢. بيروت: مؤسسة الرسالة. - ١٤٠٥هـ [١٩٨٥م]. ج ٢٢ ص ٣١٦-٣١٧).

(٦) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٦٧٩.

وكان من عادة السلاطين تفقد البيمارستان قبل سفر الجيش، ومن ذلك: في سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) قبل أن يخرج الملك الأشرف أبو الفتح موسى بن الملك العادل أمر بتفقد المارستان، فوجدوا فيه نقصاً سدوه بشراء بغلات وخيم وآلات لابد منها في السفر بعشرين ألف درهم.^(١)

وحيث إن طبيعة عصر الماليك هو عصر مواجهات عسكرية مع المغول من ناحية والصليبيين من ناحية أخرى فقد كثرت لبحاجة إلى مثل هذه البيمارستانات لتكون مضافةً للجيش المملوكي، فليس مستغرباً أن يوجد بالجيش أكثر من طبيب واحد لمعالجة أفراده.



(١) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء، ص ٦٨٣.

المبحث الخامس: رصد للبيمارستانات في الدولة وتطور أوضاعها:

تعددت البيمارستانات على مدى العصور الإسلامية وتنوعت بوظائفها وأدوارها وآثارها، وهذا ما تيسر عرضه إجمالاً في المبحث الثاني من التمهيد عن البيمارستانات قبل العصر المملوكي. وهنا سيتركز الحديث عن تلك البيمارستانات التي اشتهرت خلال العصر المملوكي، ولكن بداية أود أن أشير إلى أن هناك عدداً من البيمارستانات التي تمّ إنشاؤها في عصور سابقة لعصر المماليك، وقد استمرت في عطاءها، وتواصلت آثارها خلال ذلك العصر، وهذه البيمارستانات يمكن عرضها في الآتي:

١ - البيمارستان الكبير النوري بدمشق:

ينسب هذا البيمارستان للملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وكان قد ملك دمشق سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م)، وذكر أبو شامة أن لأصل بنائه نادرة عجيبة وهي: " أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض أكابر الملوك من الفرنج، خذلهم الله تعالى، فقطع على نفسه في فدائه مالا عظيماً، فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعدما استخار الله تعالى، فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه، وتسلم المال، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع الحُسنيين، وهما الفداء وموت ذلك اللعين، فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارستان ومنع المال الأمراء لأنه لم يكن عن إرادتهم كان".^(١)

(١) أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ/٢٦٦م). كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، نشر وتحقيق محمد حلمي أحمد. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. (١٩٥٦م). ج ١، ق ١، ص ٢١.

ويذكر ابن الأثير أنه من ضمن المصالح التي فعلها السلطان نور الدين هو بناء البيمارستان حيث يقول: " وبنى البيمارستان في البلاد، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج، بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير، ولقد جرى لي مع طبيبه ما أذكره، وذلك أنني قدمت من زيارة بيت المقدس - بعد أن فتحه المسلمون - مريضاً، فسألت عن طبيب فدلوني على مغربي فأتيته ووصفت له مرضي، فوصف لي وصفة لم يرضني قوله، فعاودته القول فتركني ومضى، فأنفت نفسي وضاقت الدنيا في عيني، وعزمت على أن لا أعالج نفسي إلا بما تنتهي إليه معرفتي، واشتد مرضي لما نالني من الغيظ، فلما كان الغد قوى عزمي على قصد طبيب يعالجني، فركبت ودخلت البلد وسألت عن طبيب، فدللت على طبيب هذا البيمارستان، فأتيته فيه وهو يكتب نسخاً للمرضى الذين به، فلما رأني قد قاربته، أقبل على بوجه منبسط وسألني عن حالتي فوصفتها له، فكتب لي نسخة، وقال لي: يحمل غلامك ما في هذه النسخة. فقلت: لاجابة بي إلى ذلك، فقد أغناني الله عن مزاحمة الفقراء. فقال: يامولاي، لاشك أنك في غنى عن هذا، ولكن لا يأنف أحد من صدقة نور الدين وإنعامه، والله إن أولاد السلطان صلاح الدين وأهله ليأخذون من الأدوية من هذا البيمارستان. فقلت: أنا لا أرى ذلك. فقال: إنه وقف على كافة المسلمين غنيهم وفقيرهم، فوجدت في نفسي بكلامه انبساط. فحكيت له حكاية ذلك الطبيب، فقال: يامولاي، مغربي وقد أقام بالشام لا يكون إلا هكذا، وأما أنا فما تراه في من أدب الناس فمن عندكم وبلادكم، فأني سافرت إلى الموصل والعراق. فشكرته وعدت عنه، رضي الله عنه".^(١)

(١) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م). التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبدالقادر أحمد طليعات. القاهرة: دار الكتب الحديثة. ص ١٧٠ - ١٧١.

وقد علّق أبو شامة على قول ابن الأثير: "بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير"،^(١) فقال: "وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعراً بذلك، وإنما هذا كلام شاع على السنة العامة ليقع ماقدّره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه، والله المستعان، وإنما صرّح بأن ما يعزُّ وجوده من الأدوية الكبار وغيرها. لا يمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء، فخصّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدى إلى غيره، لاسيما وقد صرّح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء، والمنقطعين، وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطى. وروى أن نور الدين رحمه الله شرب من شراب البيمارستان فيه، وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطى. والله أعلم".^(٢)

وقد أشار الرحالة ابن جبير إلى هذا البيمارستان حينما دخل دمشق سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) فقال: "وبها مارستانان قديم وحديث، والحديث أحفلهما وأكبرهما، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً، وله قومة وبأيديهم الأزمة [السجلات] المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك، والأطباء يُبَكِّرون إليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم. والمارستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال في الجديد أكثر، وهذا المارستان القديم هو غربي الجامع المكرم، وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج، وهم في سلاسل موثقون،"^(٣) ويضيف ابن جبير قوله: "وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام".^(٤)

(١) ابن الأثير. التاريخ الباهر. ص ١٧٠.

(٢) أبو شامة. الروضتين في أخبار الدولتين. ج ١، ق ١، ص ٢٠١.

(٣) أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى البلبسى (ت ٤٦١هـ/١٢١٧م). رحلة

ابن جبير، بيروت: دار بيروت. ٤٠٤هـ-١٩٨٤م). ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٤) ابن جبير. رحلة ابن جبير. ص ٢٥٦.

ويذكر ابن أبي أصيبعة أنه عندما أنشأ الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي البيمارستان الكبير، جعل أمر الطب فيه إلى الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم^(١) وأطلق له جاميكية وجراية، وكان يتردد إليه ويعالج المرضى فيه، وكان أبو المجد بن أبي الحكم يدور عليهم ويتفقد أحوالهم ويعتبر أمورهم، وبين يديه المشارفون والقوم لخدمة المرضى، فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى في ذلك؛ ثم قال: وبعد فراغه من ذلك وطلوعه إلى القلعة وافتقاده المرضى من أعيان الدولة يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي بالبيمارستان، وجميعه مفروش، ويحضر كتب الاشتغال. وكان نور الدين رحمه الله قد وقف على هذا البيمارستان جملة كتب من الكتب الطبية، وكانت في الخرستانين^(٢) اللذين في صدر الإيوان فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه؛ ثم تجري مباحث طبية ويقرئ التلاميذ ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات؛ ثم يركب إلى دارة^(٣). وهذا يؤكد أثر هذا البيمارستان العلمي إلى جانب أثره العلاجي.

وقد شاهد خليل بن شاهين الظاهري هذا البيمارستان حينما زار دمشق سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٧م): "وبها بيمارستان لم يرمثله في الدنيا قط، واتفقت نكته أحببت أن أذكرها: وهي أنني دخلت دمشق وكان بصحبتني رجل عجمي من أهل الفضل والذوق واللطافة وكان قصد الحج في تلك السنة فلما دخل البيمارستان المذكور ونظر ما فيه من المآكل والتحف واللطائف التي لا تحصى، قصد اختبار رجال البيمارستان المذكور فتضاعف [تمارض] وأقام

(١) سبقت ترجمته في التمهيد.

(٢) الخرستانين: كلمة فارسية مركبة من مقطعين هما (خور) بمعنى المستحسن اللائق (ستان) بمعنى مكان، فهي تعني المكان اللائق، وأطلق عليه فيما بعد المخزن أو الخزانة سواء للطعام أو السلاح أو غيره (محمد خير الدين الأسدي. موسوعة حلب المقارنة، حلب: مطبعة جامعة حلب. - ١٤٠٤ هـ [١٩٨٤م]. ج ٣، ص ٣٢١).

(٣) عيون الأنبياء. ص ٥٨١.

به ثلاثة أيام، ورئيس الطب يتردد إليه ليختبر ضعفه فلما جسّ نبضه وعلم حاله وصف له ما يناسبه من الأطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلوى والأشربة والفواكه المتنوعة؛ ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقه من معناها: أنّ الضيف لا يقيم فوق ثلاثة أيام. وهذا في غاية الحذاقة والظرافة. وقيل إن البيمارستان المذكور منذ عمّر لم تتطفئ فيه النار.^(١)

ونذكر هنا انه لما أتى بدر الدين ابن قاضي بعلبك إلى دمشق ولاء الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود بن الملك العادل بعد أن تملك دمشق في سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٧م) الرياسة على جميع الأطباء الكحالين والجرائحين، فلم يزل مجتهداً حتى اشترى دوراً كثيرة ملاصقة للبيمارستان الكبير النوري وتعب في ذلك تعباً كثيراً واجتهد بنفسه وماله حتى أضاف هذه الدور المشتراة إليه، وجعلها من جملة، وكبّر بها قاعات كانت صغيرة وبنائها أحسن البناء وشيدها وجعل الماء فيها جارياً فتكمل بها البيمارستان.^(٢)

أما عن الأطباء الذين عملوا في هذا البيمارستان النوري فهم كثيرون، ولكن يهمني هنا ذكر الأطباء الذين خدموا في زمن المماليك، وكان من أبرزهم: جمال الدين بن الرحبي،^(٣) وشرف الدين بن الرحبي،^(٤) والطبيب

(١) ابن شاهين، عز الدين خليل الظاهري (ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م). زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بولس راويس. ط ٢. القاهرة: دار العرب. (١٩٨٨م)، ص ٤٤-٤٥.

(٢) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٧٠٢.

(٣) هو الحكيم الأجل العالم الفاضل جمال الدين عثمان بن يوسف بن حيدرة الرحبي. مولده ومنشؤه بدمشق من أكابر الفضلاء وسادة العلماء، اشتغل بصناعة الطب وأتقنها إتقاناً لامزيد عليه، وكان حسن المعالجة، جيد المداواة توفى بالقاهرة، وذلك في العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٥٨هـ (١٢٥٩م). (ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٦٣٣).

(٤) هو الحكيم الإمام العالم الفاضل علامة عصره وفريد دهره، شرف الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي له تدقيق في الصناعة الطبية وتحقيق لمباحثها الكلية والجزئية. وله في الطب كتب مؤلفة وحواش متفرقة. واشتغل بصناعة الطب وتوفي يوم الجمعة سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٨م). (ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٦٢٧).

جمال الدين بن عبد الله،^(١) والطبيب عبد الله بن عبد الحق الذي باشر رياسة الجرائحية في هذا البيمارستان وقتاً.^(٢)

وقد أشاد ابن الأثير بعظم هذا البيمارستان، وكثرة أوقافه حيث قال عن نور الدين محمود بن زنكي: " وبنى البيمارستانات في البلاد ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج"،^(٣) وقد سرد محمد راغب الطباخ أوقاف هذا البيمارستان بأنها: قرية معراتا ونصف مزرعة وادي العسل من جبل سمعان وخمسة أفدنه من مزرعة كفرنايا وثلاث مزرعة الخالدي وطاحونها من المطخ وثمان طاحون أعريية ظاهر باب الجنان وثمانية أفدنه من مزرعة أبو مدايا من عزاز وخمسة أفدنه بمزرعة الحميرة من المطخ واثنى عشر فدانا من مزرعة الفرزل من المعرة وثلاث قرية بيت راعل من الغربيات وعشرة دكاكين بسوق الهواء هو الآن معروف بسوق الكمرك، منها ثلاثة تمام والباقي شركة الجامع الكبير وأحكام ظاهر باب أنطاكية وباب الفرج وباب الجنان، وهذا ما يدل على مقدار المال الوفير الذي تدره هذه الأوقاف لتأمين نفقات هذا البيمارستان الكبير.^(٤)

(١) جمال الدين بن عبد الله بن عبد السيد أسلم مع والده الذبآن سنة إحدى وسبعمائة، وكان من أطباء البيمارستان النوري بدمشق توفي سنة ٧٣٥هـ (١٣٣٤م) ودفن في قبر أعده لنفسه. (ابن الوردي، زين الدين عمر بن الوردي [ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م]. تاريخ ابن الوردي، النجف: المطبعة الحيدرية. ج ٢، ص ٤٤٤).

(٢) هو عبد الله بن عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن عبد الحق، وقد تميز في صناعة الطب وباشر رياسة الجرائحية وقتاً وتقدم في أيام الأشرف إينال ولم ينفك عن ملازمة البيمارستان كل يوم مات في ربيع الأول سنة ٨٩١هـ (١٤٨٦م). (السخاوي، شمس الدين محمد بن عد الرحمن [ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م]. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت: دار الجيل. مج ٣، ج ٦، ص ٢٣).

(٣) التاريخ الباهر. ص ١٧٠.

(٤) محمد راغب الطباخ (ت ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م). إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ط ٢. حلب: دار القلم العربي. - ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م). ج ٢، ص ٦٨.

وظلَّ البيمارستان النوري عامراً إلى سنة ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن عشرين رجلاً، وبالنسبة لبنائته فقد جعلت مدرسة، وواجهتها لا تزال بحالها وفيها بعض الحجر والنوافذ من البناء القديم، والغالب انه بمرور الأيام قد تغيرت معالمه، وقد رُممت واجهته مؤخراً.^(١) ويقام فيه الآن متحف الطب والعلوم عند العرب التابع للمديرية العامة للآثار والمتاحف السورية.^(٢)

٢ - البيمارستان الكبير المنصوري (مارستان قلاوون):

لقد رسم السلطان المنصور قلاوون بتعيين مكان يليق أن تبنى فيه مدرسه وتربة ومارستان بوسط القاهرة المحروسة، فاختر لذلك دار تُعرف بالقبطية^(٣) بين القصرين، فاشتراها السلطان من خاصّ ماله من وكيل بيت المال بوكالة الأمير حسام الدين نائبه عنه، وعوّض من كان ساكناً بها بالقصر المعروف بقصر الزمرد برحبة باب العيد في ثامن عشري ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وست مئة،^(٤) بسفارة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي^(٥) مدبر الممالك، ورسم بعمارتها مارستاناً وقبةً ومدرسةً، فتولى الشجاعيّ أمر العمارة، ويذكر لنا النويري ذلك حيث قال: "ورتب الأمير علم الدين الشجاعي مشدا على العمارة، فظهر من الاهتمام بالعمارة والاحتفال، ما لم يسمع بمثله، فعمرت

(١) كرد علي، محمد بن عمر الرزاق (ت ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م). خطط الشام، ط ٣. دمشق: مكتبة النوري. - ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م). ج ٦، ص ١٥٩.

(٢) إبراهيم بن محمد المزيني. الحياة العلمية في العهد الزنكي. ص ٤٥٨.

(٣) نسبة إلى الملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، لذا يقال لها الدار القبطية، ولم تزل بيد ذريته إلى أن أخذها الملك المنصور قلاوون الألفي الصالحي من مؤسسة خاتون ابنة الملك العادل المعروفة بالقبطية. (المقريزي. الخطط. ج ٤، ص ٢٦٨).

(٤) المقريزي. الخطط. ج ٤، ص ٢٦٨.

(٥) هو سنجر بن عبدالله الشجاعي المنصوري، وزير الديار المصرية، ومشدّ دواوينها؛ ثم نائب دمشق، وهو الذي كان مشدّ عمارة البيمارستان المنصوري بالقاهرة، قتل في صفر سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٣م). (ابن تغري بردي. الدليل الشافي. ج ١، ص ٣٢٥-٣٢٦).

في أيسر مدة، ونجرت العمارة في شهور سنة ثلاث وثمانين وستمئة. وإذا شاهد الرائي هذه العمارة العظيمة، وسمع أنها عمرت في هذه المدة القريبة، ربما أنكر ذلك".^(١) وذكر صاحب تاريخ مصر أن ذرع هذه الدار كان عشرة آلاف وست مئة ذراع،^(٢) وخلفت ست الملك بها ثمانية آلاف جارية وذخائر جلية، منها قطعة ياقوت أحمر زنتها عشرة مثاقيل، وكان الشروع في بنائها مارستاناً أول ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وست مئة،^(٣) فقام علم الدين الشجاعي بإحضار الآلات من جميع الجهات، فأظهر من الاهتمام ما لا يخطر بالأوهام وجمع الصناعات من مصر والشام ما لم يسمع بمثلا في هذه المدة القريبة ما تعجز الفراعنة عنه، وتقتصر الهمم دونه مع أقانين البنيان والأوضاع وغرائب الترخيم والأذهاب، وسائر الأنواع، واستطاع بالسعادة والصرامة ما لم يخطر بالهواجس أنه استطاع ووصف الشعراء فنون هذه العمائر وبدائع إعجازها التي تذهل الأبصار والبصائر، ففرغ المارستان بأواوينه الأربعة وما اشتمل عليه من شاذرواناته^(٤) ورخامة وأنهاره الجارية وبستانه قبل أن أهل شهر رمضان من هذه السنة، واستمر العمل إلى أن تمّ وكمل.^(٥)

ويذكر ابن شاهين عندما دخل القاهرة ذلك البيمارستان بقوله: " بها بيمارستان أمر بعمارته الملك المنصور وقرّر وقفه في كل سنة أربعين الف مثقال

(١) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣ / ١٣٣٢م). نهاية الأرب في فنون الأدب، (الجزء الحادي والثلاثون) تحقيق الباز العريني. - مراجعة عبدالعزيز الأهواني. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. - ١٤١٢هـ (١٩٩٢م)، ص ١٠٦.
(٢) مؤلف مجهول. في تاريخ مصر (مخطوط)، نسخة مصورة بجامعة القاهرة رقم (٢٤٠٢٢) ص ١٠.

(٣) المقرئزي. الخطط. ج ٤، ص ٢٦٨.

(٤) الشاذروانات: يتكون من صدر خشب مزخرف وفتحة يصب منها الماء في حوض صغير تحت الصدر. الزيبي في تاج العروس من جواهر القاموس ومعجم أخرى نقلاً عن محمد محمد أمين وليلى إبراهيم. المصطلحات المعمارية. ص ٦٨.

(٥) الدوادار، بيبرس بن عبد الله المنصوري (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م). زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالدس. ريتشاردز. ط ١. بيروت: المؤسسة الألمانية للطباعة والنشر. - ١٤١٩هـ (١٩٩٨م). ص ٢٤٨.

ذهب أفرد من ذلك لعمارتها وخذّامه أربعة آلاف وقرّر مصروفه في كل يوم مائة مثقال ولم اعلم سنة وفاته".^(١)

أما ما يختص بسبب بناء المارستان فقد اختلف المؤرخون في ذلك إلى روايات عديدة منها:

الرواية الأولى: ويذكرها لنا المقرئزي " وكان سبب بنائه أنّ الملك المنصور لما توجه وهو أمير إلى غزاة الروم في أيام الظاهر بيبرس سنة خمس وسبعين وستمئة، أصابه بدمشق قولنج عظيم، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من مارستان نور الدين الشهيد فبراً، وركب حتى شاهد المارستان، فأعجب به، ونذر إن آتاه الله الملك أن يبني مارستاناً، فلما تسلطن أخذ في عمل ذلك".^(٢)

والرواية الثانية يذكرها لنا ابن إياس وهي: أنّ سبب بناء المارستان هذا: " أنّ الملك المنصور قلاوون أمر مماليكه أن يضعوا السيف في العوام لأمر أوجب تغيير خاطر السلطان عليها، فإنهم خالفوا أمره في شيء فعل بجهلهم، فأمر بقتلهم، فلعب فيهم السيف ثلاثة أيام، فقتل في هذه المدة مالا يحصى عدده، وراح الصالح بالطالح، فلما زاد الأمر عن الحد، طلع القضاة ومشايخ العلم إلى السلطان، وشفعوا فيهم فعفا عنهم، وكف عنهم القتل، فلما جرى ما جرى، وراق خاطر السلطان ندم على ما فعله، وبنى هذا المارستان وجعل له جملة أوقاف على رواتب برّ وإحسان، وفعل من أنواع الخير ما لم يفعله غيره من الملوك ليكفر الله عنه ما فعله بالناس لعل الحسنات تذهب السيئات".^(٣)

و أما الرواية الثالثة، فهي رواية سابقة لهاتين الروايتين، ويذكرها لنا ابن عبد الظاهر بقوله: " ولما ترك مولانا السلطان لزيارة التربة الشريفة، وشاهد حسن العمارة فيها، تشوّقت نفسه الشريفة إلى فعل الخير، تشوّقت والشيء

(١) زبدة كشف الممالك. ص ٢٩.

(٢) الخطط. ج ٢، ص ٢٦٨.

(٣) بدائع الزهور. ج ١، ص ٣٥٤.

بالشيء يذكر، فاختر بناء مارستان عظيم الشأن لا تصل همة ملك إلى ابتناء مثله".^(١) وهذه الرواية على الرغم من قوتها فإنها لا تُعتبر سبباً لبناء هذا البيمارستان بقدر ماتكون دافعاً من دوافع الخير

وبالتالي فإنه من خلال عرض هذه الروايات لعلني أميل إلى ترجيح الرواية الأولى حيث أجدها أكثر مناسبةً ولتطابقها مع روح العصر، ولا يمنع إضافة الرواية الثالثة كدافع من دوافع إنشاء البيمارستانات بوجه عام.

المهم أنه لما نجزت العمارة رتب السلطان المنصور قلاوون مصارف المارستان؛ ثم استدعى قدهاً من شراب المارستان وشربه وقال: "قد وقفت هذا على مثلي فمن دوني، وجعلته وقفاً على الملك والمملوك والجندي والأمير والكبير والصغير والحر والعبد الذكور والإناث، ورتب فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض، وجعل السلطان فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى، وقرر لهم المعاليم، ونصب الأسرة للمرضى وفرشها بجميع الفرش المحتاج إليها في المرض، وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعاً، فجعل أواوين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها، وأفرد قاعة للرمدي، وقاعة للجرحى، وقاعة لمن به إسهال، وقاعة للنساء، ومكاناً للمبرودين ينقسم بقسمين قسم للرجال وقسم للنساء، وجعل الماء يجري في جميع هذه الأماكن، وأفرد مكاناً لطبخ الطعام والأدوية والأشربة، ومكاناً لتركيب المعاجين والأكحال والشياقات ونحوها، ومواضع يخزن فيها الحواصل، وجعل مكاناً يفرق فيه الأشربة والأدوية، ومكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس الطب، ولم يحص عدد المرضى بل جعله سبيلاً لكل من يرد عليه من غني وفقير، ولا حدد مدة إقامة المريض به، بل يرتب

(١) تشریف الأيام والعصور. ص ٥٥-٥٦. وقد أورد النويري رواية مقارنة من صيغة هذه الرواية وقد بدأها بلفظة (قال) ولكنه لم يشر إلى مصدره (نهاية الأرب، ج ٣١، ص ١٠٥-١٠٦).

منه لمن هو مريض بداره سائر ما يحتاج إليه، ووكّل الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي أمير جنّدار في وقف ما عينه من المواضع، وترتيب أرباب الوظائف وغيرهم، وجعل النظر لنفسه أيام حياته؛ ثم من بعده لأولاده؛ ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعي... فبلغ مصروف الشراب منه في كل يوم خمسمائة رطل سوى السكر، ورتب فيه عدة ما بين أمين ومباشر وجعل مباشرين للإدارة، وهم الذين يضبطون ما يُشترى من أصناف، وما يُحضر منها إلى المارستان، ومباشرين لاستخراج مال الوقف، ومباشرين في المطبخ، ومباشرين في عمارة الأوقاف التي تتعلق به".^(١)

وهنا أريد أن أشير باختصار إلى طريقة عمارة هذا المارستان وهو كما عرفنا مسبقاً أن الأمير علم الدين سنجر الشجاعي هو الذي تولى أمر عمارته، " فأخرج النساء من القطبية من غير مهله، وأخذ ثلاثمائة أسير، وجمع صنّاع القاهرة ومصر وتقدم إليهم بأن يعملوا بأجمعهم في الدار القطبية، ومنعهم أن يعملوا لأحد في المدينتين شغلاً، وشدّد عليهم في ذلك، وكان مهاباً، فلازموا العمل عنده، ونقل من قلعة الروضة ما احتاج إليه من العمد الصوّان والعمد الرخام والقواعد والأعتاب والرخام البديع وغير ذلك، وصار يركب إليها كل يوم وينقل الأنقاض المذكورة على العجل إلى المارستان، ويعود إلى المارستان فيقف مع الصنّاع على الأساقيل حتى لا يتوانوا في عملهم، وأوقف مماليكه بين القصرين، فكان إذا مر أحد ولو جلّ ألزموه أن يرفع حجراً ويلقيه في موضع العمارة، فينزل الجنديّ والرئيس عن فرسه حتى يفعل ذلك، فترك أكثر الناس المرور من هناك".^(٢)

(١) المقرئزي. الخطط. ج٤، ص٢٦٩.

(٢) المقرئزي. الخطط. ج٤، ص٢٧٠.

ولقد زار هذا البيمارستان العديد من المؤرخين والرحالة الذين وصفوه وأشادوا بحسن تنظيمه، فمنهم ابن فضل الله العمري الذي أشاد به وهو يكتب عن حاضرة مصر، فقال: "وقد عظمت، وبها المارستان المنصوري المعدوم النظير، لعظمة بنائه وكثرة أوقافه وسعة إنفاقه وتنوع الأطباء وأهل الكحل والجراح به. وهو جليل المقدار، جميل الآثار، جزيل الإيثار، وقفه السلطان الملك المنصور قلاوون - رحمه الله." ^(١) وأيضاً وصفه لنا الرحالة ابن بطوطة فقال: "أما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعدّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، يذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم" ^(٢) ويقول البلوي: "ولو لم يكن للقاهرة ما تذكر به إلا (المارستان) وحده وهو قصر عظيم من القصور الرائقة حسنا وجمالا واتساعا ما لم يعهد مثله بقطر من الأقطار أحسن بناء ولا أبدع إنشاء ولا أكمل انتهاء في الحسن والجمال وانتماء من قد نعمت أدواحه، وخبث على خضر الأغصان وزرق الغدران أرواحه... أخبرني الشيخ العالم المؤرخ شمس الدين الكركي المذكور أنه يكمل في كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناقلين الخارجين منه أربعة آلاف نفس وتارات يزيدون وينقصون ولا يخرج منه كل من يبرأ فيه من مرض حتى يعطى إحساناً إليه، وإنعاماً إليه كسوة للباسه ودراهم لنفقاته، وأما ما يعالج به المرضى من قناطر الأشرية المقنطرة والأكحال الرفيعة الطيبة التي تسحق فيها دنانير الذهب والإبريز وفصوص الياقوت النفيس، وأنواع اللؤلؤ الثمين فشيء يهول السماع ويعمّ ذلك الجمع إلى ما يضاف إلى ذلك كله من لحوم الطيور والأغنام على اختلافها وتباين

(١) العمري. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " دولة المماليك الأولى"، دراسة وتحقيق دُوروتيا كرافولسكي. ط ١. بيروت: المركز الإسلامي للبحوث. - ١٤٠٧هـ (١٩٨٦ م).

ص ٨٧.

(٢) تحفة النظّار. ص ٣٧.

أصنافها مع ما يحتاج إليه كل واحد ممن يوافيه ويحل فيه لفرشه وعرشه من غطاء ووظاء ومشمووم ومذرور وشبه ذلك مما هو معد على أكمله هنالك وما ليس مثله إلا في منزل أمير أو خليفة، وقد رتب على ذلك كله من الأطباء الماهرين والشهود المبرزين، والنظام العارفين، والخدام المتصرفين، كل ما هو في معالجته موثوق بعدالته مسلّم له في معرفته غير مقصر في تصرفه وخدمته، ولو استقصيت الكلام في هذا المارستان وحده لكان مجلداً مستقلاً بنفسه إذ في مبانيه الرائعة وصناعاته وتواريخه المذهبة ونقوشه العجيبة المنتخبة التي ترفل في ملابس الإعجاب، وتسحر العقول والألباب، ما يفتن النفوس ويكسف أنواع البدور والشموس، وتعجز عن وصف بعضها خطى الأقلام في ساحة الطروس، فما وقعت عين على مثله ولا سمعة بشبهه وشكله".^(١)

ويمكن هنا أن نستبين ما بلغه هذا البيمارستان من مكانه في إعداد من تولى النظر فيه وعلو شأنهم حيث أشار أحمد عيسى في كتابه تاريخ البيمارستانات إلى مجموعة من هؤلاء النظار بما يمكن التفصيل فيه وفق الآتي:^(٢)

ثم يأتي الدور هنا لنستبين ما كان عليه البيمارستان من المكانة والعظمة، فكان من تولى النظر فيه:^(٣) شهاب الدين النويري،^(٤) والأمير جمال

(١) البلوي، خالد بن عيسى (ت بعد ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م). تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، مقدمه وتحقيق الحسن السائح. المغرب: مطبعة فضالة. ج ١، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٢) حيث كان أول من أشارت المصادر إلى نظره لهذا البيمارستان هو المؤرخ المعروف شهاب الدين النويري.

(٣) ومما تشير إليه الدراسة هنا هو ما تثبته مصادر البحث من تعدد لمن تولى نظر هذا البيمارستان من الأطباء وغيرهم مما يصعب حصره هنا من ناحية، وللإشارات السريعة إليهم، وأحياناً لا يرد ذكر سنة توليهم أو سني وفياتهم، وما يرد ذكره هنا هو نماذج لهؤلاء النظار دون حصر لهم.

(٤) هو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري المؤرخ المعروف ولد سنة ٦٧٧هـ، ولقد باشر البيمارستان المنصوري في شوال سنة ٧٠٣هـ، واستمر إلى آخر رمضان سنة ٧٠٧هـ، ولقد ذكر ذلك عن نفسه، وتوفي سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٢م). (النويري. نهاية الأرب. ج ٣١، ص ١٠٨).

الدين آقوش^(١) و تمان تمر الأشرفي^(٢) وعلي بن عبد الواحد^(٣) ومحمود بن محمد^(٤) وأيتمش الأتابكي^(٥) وعلاء الدين ابن الطبلاوي^(٦) ومحمد ومحمد ابن أحمد بن عبد الملك^(٧) ومحمد بن أحمد^(٨) ويكتمربن

(١) هو آقوش بن عبدالله الأشرفي، الأمير جمال الدين، نائب الكرك؛ ثم دمشق، كان له ذوق وفضل، مات في حبس الإسكندرية سنة ٧٣٦هـ (١٣٢٥م). (ابن تغري بردي. الدليل الشافي. ج ١، ١٤٦).

(٢) هو تمان تمر بن عبدالله الأشرفي، الأمير سيف الدين، أصله من مماليك الملك الأشرف شعبان بن حسين؛ ثم أخرج بعد قتل أستاذه إلى نياحة بهنسا إلى أن مات بها سنة ٧٩٢هـ (١٣٩٠م). (ابن تغري بردي. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد أمين. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٨٦م. ج ٤، ص ٨٧).

(٣) هو علي بن عبد الواحد بن محمد بن صغير، الشيخ علاء الدين رئيس الأطباء، المعروف بابن صغير، انتهت إليه رئاسة الطب في زمانه، توفى بحلب في ذي الحجة سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م). (ابن تغري بردي. الدليل الشافي. ج ١، ص ٤٦٢).

(٤) هو محمود بن محمد بن علي بن عبدالله، قاضي القضاة جمال الدين أبو الشتاء القيصري، الرومي الأصل، العجمي الحنفي، قاضي قضاة مصر، وناظر جيشها، ومحتسب القاهرة، توفى ليلة الأحد سابع ربيع الأول سنة ٧٩٩هـ (١٣٩٦م). (ابن تغري بردي. الدليل الشافي. ج ٢، ص ٧٢٧).

(٥) هو أيتمش بن عبدالله الأسندمرى البجاسى الجرجاوى، الأمير سيف الدين أتابك العساكر بالديار المصرية، وعظيم الدولة الظاهرية، أصله من مماليك أسندمر البجاسى الجرجاوى، وترقى بعد موت أستاذه أسندمر، إلى أن صار من جملة الأمراء بديار مصر توفى سنة ٨٠٢هـ (١٣٩٩م). (ابن تغري بردي. المنهل الصافي. ج ٣، ص ١٤٣).

(٦) علي بن عبدالله بن محمد العلاء بن سعد الدين الطبلاوي. سعى في شد المارستان ووليه ثم ثم في شد الدواوين وولاية القاهرة، وكان الظاهر برقوق يراجع في الأمور فعضم أمره واشتهر ذكره؛ ثم قتل بغزة في ثاني عشر رمضان سنة ٨٠٣هـ (١٤٠٠م). (السخاوي. الضوء اللامع. مج ٣، ج ٥، ص ٢٥٢).

(٧) محمد بن أحمد بن عبد الملك الشمس الدميري؛ ثم القاهري المالكى ناظر البيمارستان ومفتي دار العدل. تولى عدة مناصب بالدولة، وكان عارفاً بالمباشرة وحصل في المارستان مالا كثيراً جداً وفره مما كان غيره يصرفه في وجوه البر وغيرها. مات في رمضان سنة ٨١٣هـ (١٤١٠م). (السخاوي. الضوء اللامع. مج ٣، ج ٦، ص ٣٢٩).

(٨) محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن عيسى بن عمر بن خلد بن عبد المحسن بن نشوان الشرف أبو المعالي بن الصدر أبي البركات بن قاضي طيبة البدر أبي إسحاق المخزومي القاهري الشافعي ويعرف بابن الخشاب. ولد في ثالث شوال سنة ٧٩٣هـ بالقاهرة ونشأ بها فحفظ القرآن وجوده ونظم الشمس البرماوي في الفرائض ومنظومة ابن سينا في كليات الطب ومنظومة الخزرجي في الكحل والخزرجية في العروض وقطعا مفرقة من التلويع للخزندى في كليات الطب وغير ذلك، وأخذ الطب بأنواعه عن إسماعيل التبريزي والسراج البلادري، وأجاز له كل من شيخه في الطب بالإقراء والمعالجة وأشيا عليه كثيراً وأختص بثانيتها حتى رغب له عن تدريسي البيمارستان وجامع ابن طولون فيه وأمضى ذلك في حياته وباشره. (السخاوي. الضوء اللامع. مج ٣، ج ٦، ص ٢٨٤-٢٨٥).

عبد الله الظاهري المعروف بجلق^(١)، والأمير طرباي^(٢)، ومحمد بن محمد العجمي^(٣)، ومحمد ابن محمد^(٤)، والأشرف أينال^(٥)، وعلي بن مفلح القاضي؛ القاضي^(٦)؛ ثم محمد بن عثمان بن سليمان (ابن الأشقر)؛^(٧) ثم محمد بن

(١) هو بكتمر بن عبد الله الظاهري، المعروف بكتمر جلق، الأمير سيف الدين، أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق ومن خاصكته وتولى عدة مناصب؛ ثم ولى نيابة صفد وتوفي سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م). (ابن تغري بردي. المنهل الصافي. ج ٣، ص ٤٠٣).

(٢) هو طرباي الأتابكي الظاهري برقوق، توفي بطرابلس في رجب سنة ٨٣٨ هـ (١٤٣٥ م). (ابن تغري بردي. المنهل الصافي. ج ٤، ص ١٧).

(٣) هو محمد بن محمد بن بدير بدر الدين العباسي المعروف بالعجمي زوج أخت البدر الدميري الدميري الآتي بعد يسير ورفيقه في مشاركة المارستان كان مشكور السيرة محبا إلى الناس وكثر التأسف عليه حينما مات في شوال سنة ٨٤٦ هـ (١٤٤٢ م). (السخاوي . التبر المسبوك في ذيل السلوك. القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية. ١٠٥٣م. ص ٥٩-٦٠).

(٤) هو محمد بن محمد بن محمد بدر الدين بن شمس الدين الدميري؛ ثم القاهري، كان جده ناظر البيمارستان وولي الحسبة واستمر هذا في مشاركة المارستان، مات في رمضان سنة ٨٤٦ هـ (١٤٤٢ م). (السخاوي . التبر المسبوك. ص ٦٠).

(٥) هو أينال العلاني الظاهري؛ ثم الناصري الأشرف سيف الدين أبو النصر ويقال له الأجرود، اشتراه الظاهر برقوق؛ ثم اعتقه فرج بن برقوق، تولى عدة مناصب وتلقب بالملك الأشرف، وتوفي منتصف جمادى الأولى سنة ٨٦٥ هـ (١٤٦٠ م) وقد قارب الثمانين. (السخاوي. الضوء اللامع. مج ١، ج ٢، ص ٣٢٨-٣٢٩).

(٦) علي بن مفلح نور الدين الكافوري الحنفي الشديد السمرة ويعرف بابن مفلح، كان عارفا بصحبة الرؤساء كثير الخدمة لهم والتودد لأصحابه والإعانة لهم توفي سنة ٨٤٦ هـ (١٤٤٢ م). (السخاوي. الضوء اللامع. مج ٣، ج ٦، ص ٣٩).

(٧) هو محمد بن عثمان بن سليمان بن رسول بن أمير يوسف بن خليل بن نوح المحب بن الشرف الشرف الكرادى، ويعرف بابن الأشقر، ولد في سنة ثمانين وسبعمائة - وقيل قبلها - بالقاهرة بزواية أرغون الأفرم بالصوة، وأضيف إليه في الأيام الناصرية نظر جامع عمرو؛ ثم استقر في الأيام المؤيدية في نظر دار الضرب، وما زال يترقى حتى استقر في كتابة السر بالديار المصرية في رجب سنة تسع وثلاثين وثمان مئة ثم استعفى عن كتابة السر في التي تليها، وأعطاه السلطان نظر الخانقاه؛ ثم في ربيع الثاني سنة اثنتين وأربعين وثمان مئة استقر في نظر البيمارستان بعد وفاة النور بن مفلح ثم في أول أيام الظاهر جقمق استقر في نظر الجيش؛ ثم انفصل عنه في ذي القعدة سنة ست وأربعين وثمان مئة؛ ثم أعيد إليه في شوال التي بعدها؛ ثم صرف عن البيمارستان في ربيع الآخر سنة خمسين وثمان مئة، وتولى بعد ذلك عدة مناصب وتوفي في رجب يوم الثلاثاء ثاني عشر سنة ٨٦٣ هـ (١٤٥٨ م). (السخاوي. الضوء اللامع. مج ٤، ج ٨، ص ١٤٤).

أحمد بن يوسف (ولي الدين السفطي ت ٨٥٤هـ)^(١)؛ ثم محمد بن أحمد بن محمد (ابن النحاس)^(٢)؛ ثم الشريف الأنصاري^(٣)، ومحمد ابن عبد القادر الجزيري^(٤)، وجان بلاط^(٥)، ومعين الدين الشمس^(٦)، والزيني بركات^(٧).

(١) محمد بن أحمد بن يوسف بن حجاج القاضي ولي الدين السفطي المولود في سنة ٧٩٦هـ، وقيل سنة ٧٩٠هـ قرره السلطان في نظر البيمارستان المنصوري في ربيع الآخر سنة ٨٤٩هـ (١٤٤٦م) فزاد وجاهة وعزا واجتهد في عمارته و عمارة أوقافه والحث على تنمية مستأجراته وسائر جهاته حتى الأحكار وما نسب إليه من الآثار مع التضييق على مباشريه والتحري في المريض المنزل فيه بحيث زاد على الحد وقل من المرضى فيه العدد، وتحامى الناس المجيء إليه بأنفسهم أو بمر ضاهم، فصار بذلك مكنوساً ممسوحاً. ومنع الناس من المشي فيه إلا حفاة و حجر في كل ما أشير إليه غاية التحجير فاجتمع في الوقف بسبب هذا كله من الأموال ما يفوق الوصف وتوفي يوم الثلاثاء مستهل ذي الحجة سنة ٨٥٤هـ (١٤١٥م). (السخاوي. الضوء اللامع. مج ٤، ج ٧، ص ١١٨-١٢٠).

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد بن خلف الزين أبو الخير القاهري الشافعي ويعرف أولاً بابن الفقيه وبابن النحاس حرفة أبيه؛ ثم حرفته. ولد في رجب سنة ٨١٥هـ (١٤١٢م) بالقاهرة ونشأ بها، وتقلب في العديد من المناصب حتى وصل إلى نظر البيمارستان ضمن نظره في العديد من المصالح، وتوفي سنة ٨٦٤هـ (١٤٥٩م). (السخاوي. الضوء اللامع. مج ٤، ج ٧، ص ٦٣، ٦٥)

(٣) في سنة ٨٥٤هـ جماد الآخر خلع على الشريف الأنصاري باستقراره في جميع وظائف النحاس وهي نظر البيمارستان و الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء ووكالة بيت المال. (السخاوي. التبر المسبوك. ص ٣١٩).

(٤) هو محمد بن عبد القادر الجزيري، وكان مما تولى نظر البيمارستان المنصوري، وهو والد المؤرخ عبد القادر الجزيري صاحب الدرر الفرائد وكان إلى جانب علمه الشرعي عالماً بالطب ممارساً له في ذلك البيمارستان حتى باشر النظر في ديوانه حسبما أشار إليه ابنه، ولم تُعلم سنة وفاته. (الجزيري. الدرر الفرائد. ج ٣، ص ١٨٨٠).

(٥) هو الملك الأشرف جان بلاط بن عبد الله أبو النصر سلطان مصر توفي سنة ٩٠٦هـ (١٥٠٠م). (ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد [ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م]. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت: دار إحياء التراث العربي. مج ٤، ج ٨، ص ٢٨).

(٦) لم أقف له على ترجمة وافية سوى ما ذكره أحمد عيسى من أنه: في شوال سنة ٩٠٨هـ (١٥٠٢م) خلع على معين الدين شمس، وقرر في وكالة بيت المال ونظر البيمارستان المنصوري وعظم أمره جداً. (تاريخ البيمارستانات. ص ١٣٠).

(٧) لم أقف له على ترجمة وافية سوى ما ذكره أحمد عيسى من أنه: في سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) (١٥١٧م) خلع المقر السيفي ملك الأمراء خاير بك بن بلباس نائب السلطنة بالديار المصرية علي الزيني بركات بن موسى وقرره مدبر المملكة وناظر الحسبة الشريفة وناظر البيمارستان المنصوري. (تاريخ البيمارستانات. ص ١٣٠-١٣١).

أما بالنسبة للأطباء الذين عملوا بهذا البيمارستان المنصوري منذ إنشائه فهم كثيرون، حيث إن هذا البيمارستان لم ينقطع يوماً عن تأدية الوظيفة التي أنشئ من أجلها وهي علاج المرضى، وقد حرص أحمد عيسى على حصر هؤلاء الأطباء لكنه أشار إلى إن استقصاء جميعهم غير ميسور لأن أسماءهم ضاعت مع الزمن وأن القليل منهم ما ترجم في كتاب، والتراجم الموجودة مشتتة في بطون الكتب على اختلاف أنواعها،^(١) وسوف أشير هنا إلى الذين توافرت لنا تراجمهم مرتبة بحسب الزمن وهم: أحمد بن يوسف،^(٢) والشيخ ركن الدين بن القوبع،^(٣) وخضر بن علي،^(٤) ومحمد بن إبراهيم بن

(١) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١٥٩.

(٢) هو أحمد بن يوسف بن هلال بن أبي البركات شهاب الدين الصفدي الطبيب، ولد سنة ٦٦١هـ، ثم قدم إلى صغد ونشأ بها؛ ثم انتقل إلى القاهرة وخدم في جملة أطباء السلطان والبيمارستان المنصوري، وكان بارعاً في الطب وتوفي سنة ٧٣٧هـ (١٣٣٦م). (ابن حجر. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ضبطه وصححه عبد الوارث محمد علي. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية. ١٤١٨هـ [١٩٩٧]. مج ١، ج ١، ص ١٩٩).

(٣) هو ركن الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن الرحمن ابن عبد الجليل الجعفري المالكي التونسي، ولد بتونس سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٦م) ونشأ وتعلم بها؛ ثم قدم مصر في سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١م) وتولى نيابة الحكم للقاضي المالكي بالقاهرة، وكان يدرس بالمدرسة المنكوتيرية بالقاهرة ويدرس الطب بالبيمارستان المنصوري، وكانت وفاته بالقاهرة سنة ٧٣٨هـ (١٣٣٨م) عن أربع وسبعين سنة. (الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م). الوافي بالوفيات، باعتناء بيراند راتكه. ط ٢. بيروت: دار صادر. - ١٤١١هـ [١٩٩١م]. ج ١، ص ٣٢٨-٣٣٨).

(٤) هو خضر بن علي بن الخطاب المعروف بالحاج باشا، كان من ولاية آيدين من الروم وارتحل إلى القاهرة وقرأ على أكمل الدين ومبارك شاه المنطقي؛ ثم عرض له مرض شديد فاضطره إلى الاشتغال بالطب فمهر فيه وفوض إليه بيمارستان مصر فدبره أحسن تدبير وصنف كتاب الشفا في الطب ومختصراً فيه بالتركية سماه التسهيل وتوفي سنة ٨٠٠هـ (١٣٩٧م) تقريباً على ما ذكره أحمد عيسى في: (مُعجم الأطباء "ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة"، ط ٢. بيروت: دار الرائد العربي. - ١٤٠٢هـ [١٩٨٢م]. ص ١٨٢-١٨٣). رغم أن أحمد عيسى نفسه يشير إليه في كتابه تاريخ البيمارستانات (ص ١٦٥) أن وفاته كانت سنة ١١٠٠هـ، ويقرب خير الدين الزركلي في ترجمته لهذا الطبيب إلى أن وفاته كانت ٨٢٠هـ (١٤١٧م). (خير الدين الزركلي. الأعلام، ط ٧. لبنان: دار العلم للملايين. [١٩٨٤م]. ج ٧، ص ٣٠٧).

ساعد،^(١) ومحمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو الوفاء،^(٢) والعلامة شمس الدين تقي الدين الكرمانى،^(٣) وعمر بن منصور بن عبد الله،^(٤) ومحمد بن علي بن عبد الكافي،^(٥) وعبد الوهاب بن محمد،^(٦) ومحمد ابن عبد الوهاب بن

(١) هو محمد بن إبراهيم بن ساعد السنجاري الأصل المصري المعروف بابن الأكفاني، ولد بسنجار وتعلم الطب ومهر في تعلم الجواهر والعقاقير حتى رُتّب بالمارستان وألزم الناظر ألا يشتري شيئاً، إلا بعد عرضه عليه توفيه بالطاعون سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م)، ومن مؤلفاته إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، وغنية اللبيب عند غيبة الطبيب. (ابن حجر. الدرر الكامنة. مج ٢، ج ٣، ص ١٧٠-١٧١).

(٢) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو الوفا القاهري الطبيب ويعرف بوفا، ولد بعد سنة ٨٣٠هـ (١٤٢٦م) بالقاهرة، ونشأ بها وتدرّب في الطب، وصار من ذوى النوب بالبيمارستان ممن يشار إليهم بالبراعة والمتانة وخفة الوطأة والتدبير في العلاج. (السخاوي. الضوء اللامع. مج ٤، ج ٧، ص ١٣٥).

(٣) هو يحيى بن محمود بن يوسف بن العلامة شمس الدين الكرمانى البغدادي ولد في رجب سنة ٧٦٢هـ، ولما تسلطن الأمير شيخ المحمودي في سنة ٨١٥هـ جعله من خواصه وولاه نظر البيمارستان المنصوري بالقاهرة ومات بالطاعون يوم الخميس ٨ جمادى الآخرة سنة ٨٣٣هـ (١٤٢٩م) وله مصنفات عديدة منها مصنف في الطب. (أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١٦١-١٦٢).

(٤) عمر بن منصور بن عبد الله السراج القاهري الحنفى ويعرف بالبهادرى. ولد سنة اثنتين وستين وسبع مئة واشتغل بالفقه والعربية والطب والمعانى وغيرها حتى مهر واشتهر ودرس وصار يشار إليه في فضلاء الحنفية بحيث ناب في الحكم والأطباء بحيث انفرد فيه، واستقر في تدريسي البيمارستان وجامع ابن طولون في الطب ولكنه لم يكن محمود العلاج، ولقد انتهت إليه الرياسة في الطب وتقدم فيه على أقرانه حفظاً واستحضاراً ومع ذلك فغيره ممن لأنسبة له به فيه أمهر دربة لقلّة مباشرته وعدم تكسبه منه وإنما يطلب للأكابر والأعيان في الأمراض الخطرة، ومات في يوم السبت ثاني عشر شوال سنة ٨٣٤هـ (١٤٣٠م). (السخاوي. الضوء اللامع. مج ٣، ج ٦، ص ١٣٩).

(٥) هو محمد بن علي بن عبد الكافي بن علي بن عبد الواحد بن صغير الشمس أبو عبد الله ابن العلاء أبى الحسن القاهري الحنبلي الطبيب والد الكحال محمد ويعرف بابن الصغير ممن تميز في الطب وعالج وتدرّب به جماعة بل له في الطب كتاب يسمى الزيد وكان أحد الأطباء بالبيمارستان وبخدمة السلطان مات سنة ٨٣٩هـ (١٤٣٥م) عن أربع وثمانين سنة. (السخاوي. الضوء اللامع. مج ٤، ج ٨، ص ١٩٠-١٩١).

(٦) هو عبد الوهاب بن محمد بن محمد بن طريف الشيخ تاج الدين ابن الشيخ شمس الدين الشاوي القاهري، ولد سنة ٧٦٦هـ بالقاهرة وخدم بالكحل في البيمارستان المنصوري وكان إنساناً خيراً ثقةً محباً للطلبة ذا ثروة من وظائفه وغيرها ينتفع بالقليل منها ويصرف باقيه في وجوه الخیر مات يوم الجمعة ١٣ شوال سنة ٨٥١هـ (١٤٤٧م). (السخاوي. التبر المسبوك. ص ١٩٤).

محمد^(١)، وعلي بن محمد^(٢)، ومحمد بن أحمد إبراهيم^(٣)، ومحمد بن محمد بن علي القاهري الحنبلي الطبيب^(٤)، ومحمد بن يعقوب^(٥)، ومحمد ابن محمد ولي ولي الدين^(٦)، ومحمد شمس الدين القوصوني^(٧)، وشهاب الدين ابن الصائغ^(١).

(١) هو محمد بن عبد الوهاب بن محمد الصدر بن البهاء السبكي الأصل القاهري الشافعي المتطبب، ولد قريبا من سنة ٧٧٣هـ وحفظ القرآن وألفية النحو وغيرها؛ ثم عانى الطب والكحل وخدم بالبيمارستان المنصوري مات في جمادى الأولى سنة ٨٦٦هـ (١٤٦١م)، وقد شاخ وضعف بصره. (السخاوي. الضوء اللامع. مج ٤، ج ٨، ص ١٣٨).

(٢) علي بن محمد بن إبراهيم بن حامد العلاء الصفدي الشافعي ويعرف بابن حامد. ولد في ذي القعدة أو الحجة سنة أربع وثمانمائة بصفد ونشأ بها فحفظ القرآن، وارتحل في الطلب إلى دمشق؛ ثم القاهرة مجدداً في الاشتغال مشمراً عن ساعده إلى أن برع، وكان عالماً بفنون خصوصاً الطب وتوفي سنة ٨٧٠هـ (١٤٦٥م). (السخاوي. الضوء اللامع. مج ٣، ج ٥، ص ٢٧٧-٢٧٨).

(٣) هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن عيسى بن عمر بن خالد بن عبدالمحسن بن نشوان الشريفي العالي بن الصدر أبي البركات بن قاضي طيبة البدر أبي إسحاق المخزومي ولد سنة ٧٩٣هـ بالقاهرة ونشأ بها ودّرس بالبيمارستان المنصوري وجامع ابن طولون مات سنة ٨٧٣هـ (١٤٦٨م). (السخاوي. الضوء اللامع. مج ٣، ج ٦، ص ٢٨٤-٢٨٦).

(٤) هو محمد بن محمد بن علي بن عبد الكافي بن علي بن عبد الواحد بن محمد بن صغير الكمال بن الشمس بن العلاء القاهري الحنبلي الطبيب، حفظ القرآن وقرأ النحو وعانى الطب وأخذ فيه عن أبيه واستقر في نوبة البيمارستان ومات في صفر سنة ٨٩١هـ (١٤٨٦م)، وهو ابن ست وتسعين سنة. (السخاوي. الضوء اللامع. مج ٥، ج ٩، ص ١٥٠-١٥١).

(٥) هو محمد بن يعقوب بن عبد الوهاب الشمس التفهني؛ ثم القاهري الكحال، ولقد تدرّب في الطب والكحل ومهر فيهما وصارت له نوبة في البيمارستان ومولده سنة ٨١٥هـ ومات في ذي الحجة سنة ٨٩٦هـ (١٤٩٠م). (السخاوي. الضوء اللامع. مج ٥، ج ١٠، ص ٧٩).

(٦) هو محمد بن محمد ولي الدين ابن الشيخ العالم محب الدين المحرق باشر بالبيمارستان المنصوري بالقاهرة وتوفي بها في يوم الخميس ختام ربيع الأول سنة ٩٠٩هـ (١٥٠٣م). (الغزي، نجم الدين بن بدر الدين لت ١٠٦١هـ/١٦٥٠م). الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تحقيق جبرائيل سليمان جبور. ط ٢. بيروت: دار الأفاق الجديدة. [١٩٧٩م]. ج ١، ص ١٩).

(٧) هو الشيخ محمد شمس الدين القوصوني رئيس الأطباء بالقاهرة وطبيب السلطان الغوري والطبيب بدار الشفاء توفي في ربيع الأول سنة ٩١٧هـ (١٥١١م). (أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١٦٤).

أما أوقاف هذا البيمارستان، فإنه لما تكامل بناء هذا البيمارستان أوقف السلطان المنصور سيف الدين قلاوون من أملاكه القياسر والرباع، والحوانيت والحمامات، والفنادق والأحكار، وغير ذلك، والضياع بالشام، ما يحصل من أجل ذلك وريعه وغلاته في كل شهر جملة كثيرة.^(٢)

أما ما بقي من آثار هذا البيمارستان في الوقت الحاضر فقد حصرها لنا أحمد عيسى - في زمنه - وقال عنها: " وفي سنة ١٩٠٥ صحت عزيمة لجنة حفظ الآثار العربية على الاحتفاظ بالأجزاء القديمة التالية:

١. بقايا الإيوان الشرقي حيث توجد فيه ثلاثة منافذ بزخرفها، ونظراً لحالة التلف القائمة بهذا الإيوان يجتهد في حالة تعذر الاحتفاظ بأجزائه القيمة في أماكنها في أن تنقل إلى المتحف، وإلا يكتفى بعمل قوالب منها بالملاط اجتناباً لتهدمها التدريجي بفعل الزمن.
٢. قوس الإيوان الجنوبي وزخارفه الجبسية النفيسة.
٣. الإيوان الغربي ولا سيما طرف هذا الإيوان حيث توجد زخارف مغطاة بطلاء حديث.
٤. الإيوان الشمالي المطل على الحوش الوسطاني: لم يحتفظ بشكله الأصلي ولا يزال قوسه الكبير موجوداً، ولكن سداً جزء منه للمساعدة على تثبيت ثلاثة أقواس بالبناء بالحجر المنحوت خلافاً للموجود في الإيوانات الأخرى التي هي مبنية جميعها بالطوب الأحمر،

(١) هو أحمد بن سراج الدين الملقب شهاب الدين، مات عن مشيخة الطب بدار الشفاء المنصوري ورياسة الأطباء، وكانت ولادته سنة ٩٤٥هـ وتوفي سنة ١٠٣٦هـ (١٦٢٦م) ولم يخلف إلا بنتاً تولت مكانه مشيخة الطب. (المحبي، محمد أمين بن فضل الله الدمشقي (ت ١١١١هـ / ١٦٩٩م). خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، بيروت: دار صادر. ج ١، ص ٢٠٤).

(٢) المقرئزي. السلوك. ج ٢، ص ١٧٥.

ولو أن اختلاف مادة البناء هذا دليل واضح على أن الإيوان الشمالي جُدد بناؤه، فإنَّ القسم الفني يرى مع ذلك وجوب الوصاية بالاحتفاظ به.

٥. القاعة الكبرى المربعة في جنوب المارستان المذكورة في تقرير عدد (٣٤١) التي تشتمل على عمد من الرخام وأقواس عني بتشابهها بعضها لبعض، وقد كشفت حديثاً بعناية كبير مهندسي اللجنة، ويرى القسم الفني بلجنة حفظ الآثار بالقاهرة أنه يتعذر الاحتفاظ بهذه القاعة بسبب بعدها من مجموعة الأجزاء المهمة في هذا الأثر والتي سبق ذكرها^(١).

أما بالنسبة للكتابات الأثرية التي فوق الباب المعد للدخول إلى المدرسة والقبّة والمارستان المنصوري فإنها حوت الكتابات الآتية:

" أمر بإنشاء هذه القبّة الشريفة المعظمة والمدرسة المباركة والبيمارستان المبارك، مولانا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي، وكان ابتداء عمارة ذلك في ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وست مئة والفراغ منه في جمادى الآخرة سنة أربع وثمانين وست مئة".

وعلى فخذي باب الدخول أسفل البوابة الكبرى، لوحان من الرخام ملصقان على ارتفاع مترين من الأرض على يمين الباب ويساره، سعة كل منهما ٧٠ في ٧٠ سنتيمتراً ومنقوش عليهما الكتابة الآتية المركبة من سبعة سطور بالخط النسخي الملوكي والحرف الدقيق وهي كثيرة النقط قليلة الحروف اللينة وصورتها واحدة إلا اختلافاً قليلاً وهذا نصها:

"الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله، لما كان بتاريخ يوم الاثنين سابع عشر ذي الحجة سنة ٧٩١هـ في نظر المقر السيفي قان تمر، عز

(١) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١١٧، ١١٩.

نصره، برز المرسوم الشريف السلطاني الملكي المنصوري الصالحي خلد الله ملكه، أن ينعم على مستحق ريع وقف البيمارستان المنصوري ما يخص بيت المال السلطاني من إرث من يتوفى من أرباب وظائفه ومباشره وسكان أوقافه نعمة مستمرة على الدوام والاستمرار، لا يتغير حكمها ولا يندرس رسمها ولعنة الله على من يسعى في تبديله أو إبطاله فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه".^(١)

ولقد أطلعت الباحثة على وضع البيمارستان الحالي، وتمكنت من الوقوف على أجزائه الباقية، وما يجري فيه من ترميمات تقوم بها لجنة الآثار للحفاظ على بعض آثاره، وهو الآن يستخدم لعلاج بأمراض الرمد (العيون) وفيه قسمان قسم للعلاج الخارجي، وقسم داخلي يتوفر فيه كل ما يلزم.

٣ - بيما رستان أرغون الكامل:

هذا البيمارستان يُنسب للأمير سيف الدين أرغون الكامل (ت ٧٥٨هـ / ١٣٥٦م) أنشأه بحلب في سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٤م)، وقد وردت الإشارة إليه للمرة الأولى لدى ابن كثير في حديثه عن وفاة أرغون الكامل في ذلك العام،^(٢) وأضاف صاحب المنتقى من درة الأسلاك ما نصه: "وفيها [أي سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م] أنشأ الأمير سيف الدين أرغون الكامل عمارة البيمارستان المنسوب إليه بحلب داخل باب قنسرين، واجتهد في أمره، ورفل في أثواب ثوابه وأجره وشيّد بنيانه ومهدّ مجالسه وإيوانه، ورفع قواعده، وهياً بيوته ومراقده وأعد له الآلات والخدم ورتّب لحفظ الصحة فيه أرباب الحكم، وأباحه للضعيف والسقيم، وفتح بابه للراحل والمقيم، ورواه بالمياه الكثيره، وأنفق

(١) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١٢٠ - ١٢٢.

(٢) البداية والنهاية. ج ٢، ص ٢٢٢٥.

عليه أموالاً غزيرة، وأجرى عيون معلومة وجرايته، ووقف للقيام بمصالحه ما يزيد على كفايته".^(١)

وهذا البيمارستان من البيمارستانات الموجودة حالياً في حلب وقد حفظت آثاره وهو لا يزال في حالة معمارية جيدة، ويورد أحمد عيسى تفصيلات واسعة عن هذا البيمارستان منقولة عن مؤرخين معاصرين ومما قاله أنه: "من البيمارستانات الإسلامية الموجودة إلى اليوم في سوريا التي حفظت آثارها، وهو لا يزال سليماً وله بوابة عظيمة ذات نخاريب،^(٢) ودهليز ذو أعمدة وإيوانات، وبهو يشتمل على خلوات للمرضى، وبوجهته شقوق وحالة القبة من الداخل رديئة".^(٣)

ويرد هذا البيمارستان لدى الغزي المتوفى سنة ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) في كتابه نهر الذهب في تاريخ حلب فيقول عنه: "ويقال له البيمارستان الجديد بناه [أرغون الكاملي] سنة ٧٥٥ ووقف عليه وقفاً حافلاً من جملته قرية بنش العظمي من ناحية سرمين وطاحوناً ومزرعة في العمق واجتهد في أمره ومهد مجاله وإيوانه وأعد له الآلات والخدم ورتب بحفظ الصحة فيه أطباء وأباحوا لكل وارد وصادر وأرواه بالمياه وشرط فيه قراء يقرأون طرقي النهار وخبز يتصدق به ورتب له جميع ما يحتاج إليه من الأشربة والكحل والمراهم والدجاج وغير ذلك وكان في محلة دار الأمير فتوصل إليها بطريق شرعي ولم يغير بوابتها عن حالها إنما كتب عليها وهي عامرة وهو بالحقيقة بيمارستان عظيم لا نظير له في ديارنا وغيرها من جهة سعته وإتقان عمارته وزخرفته: أحد بابيه

(١) مؤلف مجهول من مخضرمي رجال القرنين الثامن والتاسع للهجرة. المنتقى من درة الأسلاك في دولة ملك الأتراك في تاريخ حلب الشهباء للحسن بن عمر بن الحسنين عمر الحلبي (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)، تحقيق عبد الجبار زكار. ط ١. دمشق: دار الملاح. - ١٤٢٠هـ (١٩٩٩م). ص ٢٩٥.

(٢) نخاريب: النخروب المقصود به الثقب وجمعه نخاريب، ونخاريب النحل تُقب مهياً من الشمع لتمج فيها العسل. (المعجم الوسيط. ج ٢، ص ٩٠٩).

(٣) تاريخ البيمارستانات. ص ٢٥٣، ٢٥٥.

تجاه خان القاضي وهو الآن متوهن البناء وأوقافه ما بين مضبوط وضائع وقد أدركناه كحبس للمجانين يعين لأحدهم من الجراية المعينة للمسجونين في سجن الحكومة رغيفان صباحاً ومثلها مساءً وله خادم يقوم بحراسة المجانين له راتب جزئي من جهة الأوقاف قد سكن فيه هو وأهله وللعماراة الداخلية فيه وهي محل المجانين باب صغير إلى بوابة جنوبية وهي الآن مغلقة وكان المجانين كانوا يدخلون إليه من هذا الباب ثم في سنة ١٣٣٨ نقل المجانين منه إلى مستشفى الغرباء وأغلق بابه ولم يبقى فيه سوى بعض الفقراء لحراسته: مكتوب على بابه الكبير(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا البيمارستان الملك الناصر مولانا السلطان الملك الصالح بن السلطان الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون خلد الله ملكه الفقير إلى ربه أرغون الكامل نائب السلطنة العظيمة بحلب المحروسة غفر الله له وأثابه الجنة في شهور سنة ٧٥٥)." (١)

ويصف محمد راغب الطباخ هذا البيمارستان وصفاً مسهباً فيقول: "تدخل إلى هذا البيمارستان فتجد عن يسارك حجرة هي الآن خربة؛ ثم تدخل الباب الثاني فتجد عن يمينك حجرة أخرى، كانت هاتان الحجرتان لقعود الأطباء ووضع ما يحتاجون إليه من الأدوية والأشربة؛ ثم تجد صحنًا واسعاً يحيط بطرفه القبلي والشمالي رواقان ضيقان مرفوعان على أعمدة عظيمة، ووراءهما حجر صغير هي محل حبس المجانين فيها؛ ثم تدخل من الجهة الشمالية في دهليز وبعد خطوات تجد دهليزين الذي عن اليمين يأخذك إلى باب آخر للمارستان تخرج منه إلى بوابة صغيرة وهو مغلقة الآن، والدهليز الذي عن اليسار يأخذك إلى صحنين حولهما حجرة صغيرة وهي معدة أيضاً لحبس المجانين، وهناك تأخذك الخشية ويداخل قلبك الروع للظلمة المخيمة على هذه الأمكنة ولا منافذ لها، وروائح العفونة والأقذار منتشرة فيها؛ وأنا لنعجب

(١) الغزي، كامل بن حسين محمد (ت ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م). نهر الذهب في تاريخ حلب، حلب: المطبعة المارونية. - ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م). ج ١، ص ١٠٣-١٠٤.

كيف كانوا يحبسون المجانين فيها، ولو قعد العاقل هناك بضع ساعات لذهب منه عقله وصار في أعداد المجانين وقد بلغنا أنه كان في أطراف الصحن الخارجي وعلى أطراف الحوض الذي في وسطه توضع أنواع الرياحين لينظرها المجانين، وكانوا يأتون بآلات الطرب وبالمغنين فيداوون المجانين بها أيضاً. وكان أمره جارياً على الانتظام إلى أواخر القرن العاشر، ومن ذلك الحين أهمل أمره وزالت تلك الأوضاع منه".^(١)

كما يصف محمد كرد علي هذا البيمارستان بقوله: "هو في محلة اسمها الآن باب قنسرين، أنشأه أرغون الصغير الكاملى نائب حلب سنة سبعمائة وخمس وخمسين، رتب كل ما يحتاج إليه من رزق وآلات وأدوية وخدام، شرط واقفه أن التولية لكافل حلب فكان في كفالة تغري برمش^(٢) على أتم الوجوه، فيه حجر وأروقة ومحابس للمجانين مظلمة، يروى أنه كانت توضع فيه الرياحين ويؤتى بآلات الطرب والمغنين لتكون هذه المشاهد والأنغام من تمام العناية بالمداواة؛ ثم في أواخر عهد الأتراك نُقل من كان فيه من المجانين إلى مستشفى الغرباء، وأصبح هو مأوى لبعض الفقراء، وفي مدخله أفاريز ونقوش من أجمل مانقش النقاشون تزيينه".^(٣)

ويضيف الطباخ أن منشئه وقف عليه قرية بنش العظمى من الغريبات، وقد حولت واردات البيمارستان من هذه القرية سنة ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) إلى أوقاف

(١) إعلام النبلاء. ج ٢، ص ٣٥٤-٣٥٥.

(٢) تغري برمش نائب قلعة الجبل؛ ثم أمير آخور؛ ثم نائب حلب، اسمه الأصلي حسين بن أحمد التركماني، مولده ببهنسا قبل الثمان مئة، قتله الملك الظاهر جقمق بحلب، بعد خروجه عن طاعته في سنة ٨٤٢هـ (١٤٣٨م). (ابن تغري بردي. الدليل الشافى. ج ١، ص ٢١٨).

(٣) خطط الشام. ج ٦، ص ١٦١.

الجامع الكبير فكثرت بها واردات الجامع وأحدث على أثر ذلك عدة وظائف للمدرسين لم تكن من قبل.^(١)

ويشير الطباخ أنه على مرّ العصور أصبح بلاط الصحن متوهناً جداً، فاهتم جميل باشا سنة ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م) بتبليطه وتجديد حوضه وترميمه، وكان يسكن في إيوانه الغربي رجل يقال له أبو حيدرة هو وأسرته فكانوا يحافظون على هؤلاء المجانين ويطعمونهم ويرفعون الأقدار من عندهم، ومنذ نحو عشر سنوات أو أزيد بقليل أخذ من كان فيه من المجانين وكانوا نحو عشرين شخصاً إلى الأستانة وهو آخر العهد بهم، والآن يسكنه بعض الفقراء وقد كان لبابه حلقتان كبيرتان جميلتا الشكل من النحاس الأصفر، قلعتا منه منذ خمس عشرة سنة وأخذتا إلى متحف الأستانة، ولا ندري أوصلتا إليه أم لا، ويعدّ هذا البيمارستان من جملة الآثار القديمة الباقية في حلب، غير أنه إذا بقي مهملًا على حالته الحاضرة أدى ذلك إلى تداخيه وخرابه، وأما واردات البيمارستان من قرية بنش فإنها حولت سنة ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) إلى أوقاف الجامع الكبير.^(٢)

ومما تشير إليه الباحثة هنا أن ما ورد من نصوص سابقة حول حال البيمارستان وإهماله في بعض العصور إنما هو يعني مرحلة سابقة لعصرنا الحاضر حيث بقي هذا البيمارستان مهملًا، وربما أدى ذلك إلى تداخي بعض أبنيته وخرابها، إلا أنه في وضعه الحالي يُعد من الآثار الإسلامية الموجودة في بلاد الشام وهو من الآثار المحافظ عليها عمرانياً ولقد تمت زيارته وتم تصويره لغرض البحث، وتصوير واجهته وبعض أقسامه بما سيلحق بالبحث من لوحات.

(١) إعلام النبلاء، ج ٢، ص ٣٥٤-٣٥٥.

(٢) إعلام النبلاء، ج ٢، ص ٣٥٤-٣٥٥.

٤ - البيمارستان المؤيدي:

يُنسب هذا البيمارستان للملك المؤيد شيخ المحمودي (٨١٥ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١ م)، وكان قد أنشأه فوق "الصوّة"^(١) تجاه طبلخاناه قلعة الجبل، حيث كانت مدرسة الأشرف شعبان بن حسين (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦ م) التي هدمها الناصر فرج بن برقوق،^(٢) وبابه هو حيث كان باب المدرسة، إلا أنه ضيق عما كان، أنشأه المؤيد شيخ في مدة أولها جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، وآخرها رجب سنة ثلاث وعشرين، ونزل فيه المرضى في نصف شعبان، وعُملت مصارفه من جملة أوقاف الجامع المؤيدي المجاور لباب زويلة، فلما مات الملك المؤيد في ثامن المحرم سنة أربع وعشرين تعطل قليلاً؛ ثم سكنه طائفة من العجم المستجدين في ربيع الأول منها، وصار منزلاً للرسل الواردين من البلاد إلى السلطان؛ ثم عمل فيه منبر، ورتب له خطيب وإمام ومؤذنون وبواب وقومة، وأقيمت به الجمعة في شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة، فاستمر جامعاً تُصرف معالم أرباب وظائفه المذكورين من وقف الجامع المؤيدي".^(٣)

وتحدد وثيقة وقف البيمارستان حدوده بأنه محصورٌ بحدود أربعة، الحدُّ القبلي ينتهي إلى الصوّة تجاه قلعة الجبل، وفيه الباب الثاني من بابي البيمارستان، والحدُّ البحري ينتهي إلى بيت الجناب السيفي (أبي بكر بن

(١) الصوّة: اسم يطلق على المنطقة الجبلية الواقعة في الجهة الشمالية من قلعة القاهرة فيما بين القلعة وجامع الرفاعي. نقلاً عن السخاوي (هامش رقم ٢). الذيل على رفع الأصر، تحقيق جودة هلال ومحمد صبح. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (٢٠٠٠م). ص ٢٦٧.

(٢) تولى السلطنة مرتين الأولى: (٨٠١ - ٨٠٨ هـ / ١٣٩٨ - ١٤٠٥ م) الثانية: (٨٠٨ - ٨١٥ هـ / ١٤٠٥ - ١٤١٢ م).

(٣) المقرئزي. الخطط. ج ٤، ص ٢٧١ - ٢٧٢.

سنقر)، والحدُّ الشرقي ينتهي إلى ساقية الأشرف، وفيه الباب الكبير ومكتب السبيل المعدُّ للأيتام وأحد عشر حانوتًا وسبيل الماء، والحدُّ الغربي الذي ينتهي إلى سوق الخيل.^(١)

وعندما: "أنشأ الملك المؤيد شيخ المحمودي الجامع العامر الرحب بباب زويلة وأنشأ خانقاه للصوفية والبيمارستان للمرضى والصهاريج^(٢) للسقاية، أوقف على ذلك كله أوقافاً جمّة من عقار وطين، وكتاب وقفه مذكور في الخطط لعلي مبارك باشا بالتفصيل الوافي... ومن هذه الأوقاف الكبيرة العظيمة يترتب طبيباً طبائعيّاً وكحالاً وجرائحياً و... الخ ولكل منهم ثلاثون نصفاً في الشهر وجعل النظر عليه لنفسه؛ ثم للأرشد فالأرشد من ذريته الذكور خاصة لكل بالاشتراك مع من يكون داوداً^(٣) كبيراً ومع كاتب السر مجتمعين غير منفردين، فإن تعذر لذريته كان النظر للداوار كاتب السر معاً ويصرف لكل منهما خمسمائة نصف شهرياً وإن تعذر فلحاكم المسلمين بالديار المصرية، فكان تاريخ الحجة رابع جمادى الآخرة سنة ٨٢٣ هـ (١٤٢٠م)."^(٤)

ولقد ذكر المقرئ هذا البيمارستان في كتاب السلوك حيث قال: " في شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٥ هـ في سلطنة السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباني الدقماقي الظاهري الجركسي (٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٢٢ -

(١) وثيقة وقف بيمارستان المؤيد شيخ المحمودي بالقاهرة المحفوظة بوزارة الأوقاف برقم (٩٣٨) سطور (١٠٤-١٠١).

(٢) الصهرج: هو خزان للمياه يبنى بالأجر في تخوم الأرض لحفظ المياه. الزيبي في تاج العروس من جواهر القاموس ومعجم أخرى نقلاً عن محمد أمين وليلى إبراهيم. المصطلحات المعمارية. ص ٧٣.

(٣) هي وظيفة من الوظائف التي يشغلها عسكريون وقد اختلف ترتيبها بالنسبة للوظائف المتعلقة بالسلطان باختلاف العصور، ولم يكن للسلطان دوا دار واحد فقط، بل ربما بلغ عدد الدوادارية عشرة من الأمراء والجند تتصاغر رتبهم الواحد عن الآخر، (حسن الباشا. الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة: دار النهضة العربية. [١٩٦٦م]. ج ٢، ص ٥٢٠ - ٥٢١).

(٤) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١٧٥، ١٧٧.

١٤٣٨م) عمل المارستان المؤيدي الذي بالصوة تحت القلعة جامعاً تقام فيه الجمعة والجماعة، وكان المؤيد قد جعل هذا الموضع مارستاناً ونزل به المرضى، فلما مات لم يوجد في كتاب الوقف المؤيدي له جهة مصرف فأخرجت المرضى منه وأغلق وصار منزلاً للرسل الواردين من ملوك الشرق فبقي حانة خمار برسم شرب المسكرات وضرب التباير وعمل الفواحش ومع ذلك تربط به الخيول، فكان هذا منذ مات المؤيد إلى هذا الوقت (أي زمن المقريري الذي توفي سنة ٨٤٥ هـ) فظهره الله من تلك الأرجاس وجعله محل عبادة^(١).

وقد ذكر أحمد عيسى أن هذا البيمارستان قد تخرب: "وامتدت إليه الأيدي بالهدم والبناء حتى ضاعت معالمه، وظلَّ مجهولاً ومطموساً بين العمارات والمساكن قروناً عديدة لا يعرف مكانه، ولا يعرف عنه شيء حتى قيَّض الله له لجنة حفظ الآثار العربية، فزارت مكانه وكتبت عنه تقريراً في سنة ١٨٩٤م باعتباره أثراً يستحق العناية والحفظ كغيره من الآثار، ولم يكن يرى فيه سوى أنه بناء أثري بجانب مسجد الحاج أحمد أبي غالية من الجهة القبليّة في حارة السكري بشارع المحجر، وكان الجدار الجنوبي أو القبلي لمسجد أبي غالية هو الواجهة البحرية من هذا البناء الأثري، وكان في هذا الجدار بعض النقوش والمقرنصات وفيه باب صغير تحت بوابة فخمة البناء لا تزال موجودة كاملة ويبعد عن ذلك ببعض خطوات بعض جدران هذا الأثر القديمة وفيها بعض النوافذ"^(٢).

كما يضيف أحمد عيسى أنه: "تبين للجنة أن مسجد أبي غالية يستند جداره القبلي على تلك البوابة الفخمة للمارستان المؤيد ويحجبها عن الأنظار حجاباً تاماً فقررت اللجنة لكشف هذا الأثر إزالة المسجد المستجد فظهرت

(١) السلوك. ج ٧، ص ٥٧.

(٢) تاريخ البيمارستانات. ص ١٧٤.

واجهت البيمارستان بجمالها وفخامتها ورونقها وما فيها من بديع النقوش والزخرفة وعنيت اللجنة بإرجاع البيمارستان إلى حالته الأصلية بقدر ما تسمح به حال الموجود من آثاره، والمنتظر - نظراً لصعوبات قضائية شرعية بالنسبة لإزالة مسجد الحاج أحمد أبي غالية - تحويل المارستان بعد ترميمه وإصلاحه إلى مسجد أو مصلى وذلك تحقيقاً لتمسك المحكمة الشرعية بإعادة بناء مسجد أبي غالية".^(١)

ومما تشير إليه الباحثة أن هذا البيمارستان لقي اهتماماً بوصف عناصره المعمارية والزخرفية أكثر من وصف خدماته الطبية وأثرها في مجال الطب باعتبار أن العمل به قد أوقف بموت منشئه.^(٢)

ويرجح محمد سيف النصر أبو الفتوح سبب توقف العمل بهذا البيمارستان أنه من غير المنطقي عدم تحديد مورد مالي دائم للإنفاق على البيمارستان حيث لم يُخصَّص الواقف في كتاب وقفه جزءاً من الريع للصرف على بيمارستانه، وليس من المعقول أن يغيب عنه ذلك، كما أنه ليس من المنطقي أن يهدف إلى إيقافه وتجميد نشاطه بل وتخريبه بعد موته، بل إن الاحتمال المنطقي أنه ربما كان ينوي أن يُخصَّص للبيمارستان وقفاً خاصاً به فعاجله الموت قبل أن يجد لذلك سبيلاً.^(٣)

٥ - البيمارستان القيمري:

هذا البيمارستان أنشأه الأمير سيف الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن أبي الفوارس بن مؤسك القيمري الكندي يوسف (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) بسفح

(١) تاريخ البيمارستانات. ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٢) من ذلك ما قام به الباحث فهمي عبدالعليم ضمن سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية بعنوان "العمارة الإسلامية في عصر المماليك الجراكسة"، وكذلك ما قام به الباحث محمد سيف النصر أبو الفتوح في كلية الآداب بجامعة أسيوط بعنوان "منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة".

(٣) منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة. ص ١٢٩.

جبل قاسيون في حي الصالحية بدمشق، وفي سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٧م) في يوم السبت النصف من ربيع الأول شرعت التتار في نهب الصالحية وأخربوا أماكن كثيرة ومنها المارستان بالصالحية،^(١) وعلى الرغم من بناء هذا البيمارستان في مدة سابقة على العصر المملوكي إلا أنه اشتهر وعمل زمن المماليك في دمشق.

ويروي اليونيني قصة في سبب بنائه، فيذكر أن الأمير سيف الدين القيمري كان متزوجاً بابنة الأمير عز الدين بن المحلي على صداق كبير، وجهزت بجهاز كثير؛ ثم أصطحبها معه إلى الديار المصرية فتوفيت هناك عن غير ولد، فلما ملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد دمشق والشام حضر الأمير سيف الدين من الديار المصرية إلى خدمته، وأخذ قماش زوجته المتوفاة وجهازها ومالها من الفضيات والمصاغ وغير ذلك وحمله على عشرين بغلاً، ووزن باقي صداقها، ومائتي ألف درهم، وجعلها في صناديق وحملها على البغال وسير الجميع إلى والدها الأمير علي بن المحلي بحكم أنه وارثها مع زوجها، فلما وصل ذلك إلى الأمير نور الدين أنكره غاية الإنكار ورده وقال لرسوله: "الأكراد ماجرت عاداتهم يأخذوا صداقاً ولا ميراثاً فلماً عاد ذلك إلى الأمير سيف الدين قال هذا شيء خرجت عنه مايعود إلى ملكي، وصرفه جميعه في بناء البيمارستان وأوقفه وتصدق به".^(٢)

و أشار صاحب القلائد الجوهريّة إلى هذا البيمارستان حيث يقول: "فهو من أحسن الدنيا يقال إنه ليس ثم في الدنيا بيمارستان أحسن منه ولا أشرح،

(١) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ٢٣٥، والقيمري هو علي بن يوسف بن أبي الفوارس بن مؤسك القيمري الكردي أكبر أمراء القيامرة ومن أبطالهم المذكورين وصلحاتهم المشهورين، وهو ابن أخت صاحب قيصر (قلعة في الجبال بين الموصل وخراسان) كانت وفاته سنة ٦٥٣هـ (١٢٣٧م)، ودفن بالسفح في قبته التي تجاه المارستان (ابن كثير. البداية والنهاية. ج ٢، ص ٢٠٤٠).

(٢) اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦ م). ذيل مرآة الزمان، ط ١. الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية. ١٣٧٤ هـ (١٩٥٤م). مج ١، ج ١، ص ٤٤-٤٥.

فإنَّ فيه هذا الإيوان المعظم والقاعتان المعظمتان القبليات بهذه الشبايبك المشرفة على الدنيا ، وتحت الشبايبك هذا لحوض النارنج لاسيما في أيام زهرة تفوح من هذه الرائحة الزكية فتتعش النفوس وتزكي الأرواح... وبه قاعتان لصيق القاعتين المذكورتين للمرضى المسهلين أحدهما للرجال والأخرى للنساء ولصيقهما حاصلان: شرقي معد للشرابات والمعاجين والأكحال والأشياف والأقراص وغير ذلك، وغربي معد لتفرقة ذلك في كل يوم اثنين وخمسين للخارجين عنه وقد رأينا ذلك. وفي زمننا صار لا يفرق ذلك فيه إلا يوم الخميس فقط وفي كل يوم للمرضى به من نساء ورجال. وفي شرقيه مطبخ للمزورات والفراريج وغير ذلك، ولصيقه ميسأة. وفي غربيه قاعة للمجانين، ولصيقهما حاصل للمغل. وفي دهليز بابه الشمالي بيت البواب. وبوسطه بركة معظمة يأتي إليها الماء بناعورة مركبة على نهر يزيد دائماً. وفيه خدم للرجال والنساء وكحال وطبيب وشرباتي وعامل ومشارف وغير ذلك من التراتيب الجيدة، وبه محفة لحمل الضعفاء، يحصل لهم بها في الصالحية نفع عظيم^(١).

وقد جعل الأمير القيمري على بيمارستانه أوقافاً عظيمة، نقله كرد علي في خطط الشام فقال: « قرأت في كتاب الجوامع والمدارس صورة وقف البيمارستان القيمري فإذا فيه: هذا وقف أبي الحسن ابن أبي الفوارس القيمري على بيمارستانه في الصالحية على معالجة المرضى والمعاجين والأشربة وأجرة الطبيب، يصرف إلى الطبيب في كل شهر للواحد سبعون درهماً ونصف غرارة من قمح ، والأدنى ستون درهماً ونصف غرارة قمح ، وللمشارف في كل شهر أربعون درهماً ونصف غرارة قمح ، وللكحال في كل شهر خمسة وأربعون درهماً ونصف غرارة قمح ، وللحوائج في كل شهر ثلاثة عشر درهماً وربع غرارة قمح، وإلى ثلاثة رجال يقوم لكل من الرجال في كل شهر ثلاثة عشر درهماً وسدس غرارة قمح ، ولمن يقوم بمريضات النساء والمجنونات في كل

(١) ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن محمد الصالحي الدمشقي (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م). القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان. دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية.. ١٤٠١هـ (١٩٨٠م). ج ١، ص ٣٤٦-٣٤٨.

شهر لكل واحدة عشرة دراهم وسدس غرارة قمح ، وإلى الشراب وبائعه لعمل الأشرية والمعاجين في كل شهر ستة عشر درهماً وثلث غرارة قمح ، ولأمين المشارفين ، المتولين في الوقف إلى كل واحد في كل شهر ستون درهماً وغرارة قمح وغرارة شعير ، وللإمام في كل شهر أربعون درهماً وثلث غرارة قمح ، وللمعمار المرتب لعمارته في كل شهر ثلاثة عشر درهماً وسدس غرارة قمح ، ويكون بواباً ، وللحوایج في كل شهر ثمانية دراهم وسدس غرارة ، وللناظر العشر من المغل ، وربع الوقف ، ويعرف إلى رجلين بخدمة البيمارستان عن ثمن قدور ونحاس وفرش ولحف ومخدة ، وفي كل شهر إلى قيمه ، والمؤذن بالمسجد بقرب البيمارستان خمسة وعشرون درهماً ، فإن فضل يصرف إلى فكان الأسرى من الكفار ، وبعد ذلك عاد وقفاً على الفقراء وتاريخ الوقفية سنة اثنان وخمسون وستمائة .^(١)

كما أشار ابن العماد الحنبلي إلى تجديد بناء هذا البيمارستان على يد الشيخ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن داود الحنبلي المتوفى سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢م).^(٢)

ولم تقف الباحثة في مصادر دراستها إلا على هاذين الطبيبين فيمن خدموا في هذا البيمارستان في ذلك العصر هما: الطبيب الفاضل عماد الدين أبو بكر عثمان بن سيف ابن المزين الملقب بالحيوان،^(٣) والطبيب إبراهيم بن إسماعيل ابن القاسم بن هبة الله بن المقداد القيسي.^(٤)

(١) خطط الشام. ج٦، ص١٥٨، ١٥٩.

(٢) شذرات الذهب. مج٤، ج٧، ص٢٨٨.

(٣) هو عماد الدين أبو بكر عثمان بن سيف ابن المزين الملقب بالحيوان، كان مولده سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢م)، عرف بحسن المحاضرة، أخذ الطب على جملة من أطباء عصره وتوفي سنة ٧٢٩ هـ (١٣٢٩م). (الذهبي. معجم الشيوخ " المعجم الكبير"، تحقيق محمد الحبيب الهيلة. ط١. الطائف: مكتبة الصديق- ٤٠٨ هـ (١٩٨٨م). ج٢، ص ٤١٠-٤١١.

(٤) إبراهيم بن إسماعيل بن القاسم بن هبة الله بن المقداد القيسي اشتهر بشغفه بعلم الحديث إلى جانب بروزه بصناعة الطب، وكانت وفاته سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠م). (السخاوي. الدرر الكامنة. مج، ج١، ص١٨).

إضافة إلى هذه البيمارستانات الرائدة، والتي اشتهرت بنشاطها العلاجي والتعليمي أيام المماليك، فقد ظهرت مجموعة من البيمارستانات التي أشارت المصادر إلى وجودها في ذلك العصر دون توسع في ذكر أدوارها أو مزيد معلومات عن نشاطاتها أو من عمل بها وآثارها خلال العصر المملوكي، ويمكن رصد هذه البيمارستانات في الآتي:

١- بيمارستان مكة:

كان بمكة بيمارستان عمره وأوقفه الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٠م) وموقعه بالجانب الشمالي من المسجد الحرام.^(١)

وقد ورد ضمن وقفية السلطان الأشرف شعبان أنه أمر في سنة ٧٧٧هـ (١٣٧٥م) بتجديد هذا البيمارستان وأنه أوقف عليه أوقافاً يصرف ريعها عليه، وأن هذا البيمارستان قد بلغ ما ينفق عليه سنوياً بما يزيد عن ستة وعشرين ألف درهم نقرة،^(٢) بأبوابها المقررة وفق وثيقة وقف البيمارستان المذكور.^(٣)

(١) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م). شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق مصطفى محمد الذهبي. ط ٢. مكة: النهضة الحديثة. (١٩٩٩م). ج ١، ص ٦١٧.

(٢) درهم نقرة: الدرهم وحدة النقود الفضية واشتقاقه من اللفظة الفارسية (Direm) التي كانت معروفة في الإمبراطورية الفارسية، والنقرة بضم النون مصطلحاً فني أصبح علم على الدراهم الفضية وبدونه لا يمكن تمييزها، وقد استعمل في أواخر العصر الأيوبي وبالتحديد في عهد الكامل الأيوبي خلال إصلاحاته النقدية وقد بدء هذا المصطلح بالاختفاء منذ بداية عهد المماليك الجراكسة. والنقرة تعني الدرهم صحيح العيار (ثلاثاه من فضة وثلاث من نحاس) لأنه لا يعرف صحيح العيار إلا بالنقرة فإذا ظهر له صوتاً فهو دليل تثبيسه، وإذا كانت صماء فهو دليل على صحة عياره. (حمود بن محمد النجدي. النظام النقدي المملوكي [٦٤٨-٩٢٢هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م] دراسة تاريخية حضارية، الرياض: مكتبة العبيكان. - ١٤١٤هـ (١٩٩٣م). ص ١٧١-١٧٣).

(٣) راشد بن سعد القحطاني. أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، إعادة طبع الطبعة الأولى ١٤١٥هـ (١٩٩٤م). الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية. ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م). ص ١١٢-١١٥.

ويذكر الفاسي الذي يتحدث عن تعمير البيمارستان في عصره حيث يقول: " وعمره في عصرنا هذا الشريف حسن بن عجلان صاحب مكة عمارته التي هو عليها الآن، وزاد فيه على ما كان عليه أولاً إيوانين: أحدهما: في جهته الشامية، والآخر: في جهته الغربية، وأحدث فيه صهريجاً ورواقاً فوق الإيوانين اللذين أحدثهما، وفوق الإيوان الشرقي الذي كان فيه من قبل، وجدد هو عمارته، وفوق الموضع الذي فيه الشباك المشرفان على المسجد الحرام، وأدخل فيه البئر التي كانت يُستقى منها للميضاة الصرغتمشية، ووقف جميع ما بناه وما يستحق منافعه في الموضع المذكور للمدة التي يستحقها على الضعفاء والمجانين، ووقف عليه منافع الدار المعروفة بدار الإمارة عند باب بنى شيبه بعد عمارته لها حين تخربت بالحريق الذي وقع في آخر ذي القعدة من سنة أربع عشرة وثمانمائة، وذلك بعد استتجاره لها واستتجاره للبيمارستان المذكور لتخرُّبهما، من القاضي الشافعي بمكة لمدة مائة سنة، وأذن له في صرف أجرة الموضعين في عمارتها، وكان استتجاره لذلك في [شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة وثمانمائة، وفيها شرع في عمارتها وكان وقفه لذلك في] صفر سنة ستّ عشرة وثمانمائة".^(١)

٢ - بيمارستان المدينة:

هذا البيمارستان وردت الإشارة إليه عند النويري ضمن حوادث سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٢م) حينما جهّز السلطان الظاهر بيبرس مجموعة من البنائين والأخشاب والآلات والصنّاع لإتمام عمارة المسجد النبوي الشريف، وجهّز معهم الأموال والمؤنة، حيث ذكر النويري أنه ندب معهم الطبيب محيي الدين أحمد بن أبي الحسين بن تمام طبيباً إلى البيمارستان الذي بالمدينة ومعه أدوية وأشربة ومعاجين ومراهم وسكّر لأجل من يعتره من الجماعة مرض. وكان خروجهم

(١) شفاء الغرام، ج ١، ص ٦١٧.

من القاهرة في سابع عشر شهر رجب ووصل إلى المدينة في ثاني شوال^(١) كما أشار الكتبي إلى أن السلطان الظاهر بيبرس جدَّ البيمارستان الذي بالمدينة، وأنه نقل إليه سائر المعاجين والأكحال والأشربة وبعث إليه طبيباً من الديار المصرية^(٢).

٣ - بيمارستان الجبل:

هذا البيمارستان أشار إليه أحمد عيسى في تاريخ البيمارستانات، وذكر أنه: " كان بقريّة نيرب وهي قرية على نصف فرسخ من دمشق بيمارستان يُسمى بيمارستان الجبل، ولم يُعرف شيء عن هذا البيمارستان، ولا عمّن أنشأه والزمن الذي أنشئ فيه"^(٣).

وفعلاً فلم تتوسع المصادر في ذكر تفصيلات عن هذا البيمارستان سوى ما أورده كلاً من الذهبي والكتبي في ترجمة لعلمين أشارا إلى تطبيبهما في هذا البيمارستان، وهما: ١- الشيخ الفقيه أبو محمد عبد الوهاب ابن أحمد بن الفتح بن سحنون التتوخي الحنفي خطيب النيرب (ت ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م) حيث ذكر الذهبي في ترجمته مانصه: " وكان طبيباً مارستان الجبل"،^(٤) وأكد ذلك الكتبي بقوله في ترجمة ابن سحنون: " وكان طبيباً مارستان الجبل رحمه الله"^(٥).

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد عبد الهادي شعيره. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.. ١٤١٠هـ (١٩٩٠م). ج٣، ١١٥-١١٦.

(٢) فوات الوفيات. ج١، ص٢٤٣.

(٣) تاريخ البيمارستانات. ص٢٤٦.

(٤) هو عبد الوهاب ابن أحمد بن سحنون الخطيب البارع مجد الدين خطيب النيرب له شعر وأدب وفضائل، وكان من فضلاء الحنيفية ودرس بالمدرسة الدماغية بدمشق، وكان طبيباً لبيمارستان الجبل وتوفي سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) وعاش خمس وسبعين سنة. (الذهبي. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عواد معروف. ط١. بيروت: دار الغرب الإسلامي.. ١٤٢٤هـ [٢٠٠٣م]. مج١٥ [٦٦١١-٧٠٠هـ، ص٧٩٠).

(٥) فوات الوفيات. ج٢، ص٤١٨.

٢- الطبيب أحمد ابن أبي بكر بن حمزة بن منصور الهمذاني الدمشقي المعروف بالجيلي (ت ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م).^(١)

وأشار الذهبي في تاريخه إلى هذا البيمارستان ضمن حوادث ٦٩٩هـ، وفي ثامن عشر جمادى الأولى أحرقت التتار والكُرج والأرمن جامع العوقبيه ومارستان الجبل وعدة مدارس وأماكن في غاية الحسن والكثرة.^(٢)

٤ - بيمارستان صفد:

وينسب لسيف الدين تنكز (٧١٢ - ٧٤٠هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٩م)^(٣) نائب السلطنة المملوكية في صفد. وقد وردت الإشارة إليه لدى ابن حجر في الدرر الكامنة، فذكر أن في صفد بيمارستاناً عمَّره الأمير تنكز نائب الشام في زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون،^(٤) وأشار الكتبي في فوات الوفيات إلى أن الأمير الكبير سيف الدين تنكز نائب السلطنة بالشام عمَّر بصفد البيمارستان الذي عُرف باسمه.^(٥)

(١) هو أحمد بن أبي بكر محمد بن حمزة بن منصور الطبيب الفاضل نجم الدين أبو العباس الهمذاني ثم الدمشقي المعروف بالحنبلي طبيب مارستان الجبل ولد سنة خمس أو ست وعشرين، ومات في رمضان سنة ٦٩٩هـ (١٣٠٠م). (الذهبي. تاريخ الإسلام. مج ١٥، ص ٨٩٦، معجم الشيوخ. ج ١، ص ١١٥).

(٢) تاريخ الإسلام. مج ١٥، ص ٧١٢.

(٣) هو الأمير سيف الدين تنكز بن عبد الله الحسامي التامري نائب الشام جلبه إلى مصر الخواجة علاء الدين السيواسي واشتره الأمير لاسين، فلما قتل لاشين صار من خاصكية السلطان. سمع تنكز الحديث وحدث وقرأ عليه المقرزي، وأمره السلطان الناصر محمد ابن قلاوون وولاه نيابة دمشق سنة ٧١٢هـ (١٣١٢م)، فأقام بها ٢٨ سنة وهو الذي عمَّر دمشق وأقام شعائر المساجد بعد التتار وبنى بها جامعاً، وجدد بصفد بيمارستاناً مليحاً للشفاء؛ ثم قبض عليه السلطان الناصر وأرسله إلى القاهرة سنة ٧٤١هـ وتوفي بحبس الإسكندرية في الثلاثاء النصف من محرم سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠م)، وقد جاوز السبعين، وفي سنة ٧٤٤هـ حضر تابوته من الإسكندرية إلى دمشق ودفن في تربته بجوار جامعها، وكان ملكاً جليلاً محترماً مهاباً عفيفاً حسن المعاشرة. (ابن كثير. البداية والنهاية. ج ٢، ص ٢١٩٤).

(٤) الدرر الكامنة. مج ١، ج ١، ص ٣٠٩.

(٥) فوات الوفيات. ج ١، ص ٢٥٢.

٥ - بيمارستان حصن الأكراد.^(١)

وردت الإشارة لهذا البيمارستان لدى أحمد عيسى في تاريخ البيمارستانات في الإسلام، وذكر أن الذي أنشأه هو بكتمر بن عبد الله الأشرفي نائب السلطنة المملوكية بحصن الأكراد؛ ثم أورد ما هو مكتوب على عتبة الباب بما نصه:

" بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذا البيمارستان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى بكتمر بن عبد الله الأشرفي نائب السلطنة المعظمة بحصن الأكراد أثابه لله تعالى، وأوقفه على مرضى المسلمين المقيمين والواردين وذلك في شهر سنة ٧١٩ هـ (١٣١٩م)."^(٢)

وأضاف أحمد عيسى أن هذا البيمارستان لم يبق من آثاره سوى هذه الكتابة وبعض الأحجار المستعملة الآن في بناء بعض المنازل الصغيرة المجاورة للبيمارستان، وأن منشئه قد أُرصد بعض الأوقاف للصرف عليه، وأشار إلى بعض نص وقف عليه عبارة عن قطعة من وقفية بكتمر على البيمارستان، ونصها: " وبسوق البزّ وجميع الدار المجاورة للبيمارستان من جهة الشمال والريع والثمن من الحانوت بسوق السمّانين، ومن شروطه أن يبدأ من ريع ذلك بعامرة المارستان وما هو موقوف عليه أثابه الله تعالى."^(٣)

كما أشار أحمد عيسى إلى وقفية أخرى مكتوبة فوق حجر في جدار أحد المنازل الصغيرة مقابلة للكتابة السابقة، وأورد نصها بما يأتي: " أوقفت

(١) حصن الأكراد: هو حصن منيع حصين على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب وهو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان وهو بين بعلبك وحمص (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج ٢، ج ٣، ص ١٥٢).

(٢) تاريخ البيمارستانات. ص ٢٤٨.

(٣) تاريخ البيمارستانات. ص ٢٤٩.

الحاجة مريم زوجة ابن المسروري أثابها الله تعالى على هذا الوقف المبارك أربعة عشر سهماً من البستان بقرية السحارة".^(١)

٦ - بيمارستان غزّة:

يُنسب هذا البيمارستان إلى أمير علم الدين سنجر الجاولي الفقيه الشافعي نائب غزّة،^(٢) وكان قد عينه السلطان الصالح إسماعيل (الولاية الثانية)، فحضر إلى غزّة وأقام بها مدة شرع في أثائها في عمارة الجامع بغزّة، وعمّر حماماً هائلاً ومدرسة للشافعية، وعمّر خاناً للسبيل، وبنى بغزّة بيمارستاناً ووقف عليه عن الملك الناصر أوقافاً جليلة، وجعل النظر فيه لنواب غزّة وتوفي في تاسع من رمضان سنة ٧٤٥هـ (١٣٤٤م)، ودفن في تربته التي بالكبش على بركة الفييل بالقاهرة.^(٣)

ومما يذكر هنا أن أحمد عيسى قد نسب في كتابه تاريخ البيمارستانات إلى الأمير علم الدين سنجر بيمارستاناً آخر بالكرك^(٤) اعتماداً على نص نقله

(١) والسحارة الآن خراب وتبعد بمقدار ساعة ونصف عن حصن الأكراد. تاريخ البيمارستانات. ص ٢٥٠.

(٢) هو أبو سعيد علم الدين سنجر الجاولي ولد سنة ٩٥٣هـ (١٥٤٦م) بآمد؛ ثم صار لأمير يقال له جاول في سلطنة الظاهر بيبرس فنُسب إليه؛ ثم انتقل بعده إلى بيت السلطان وأخرج في أيام الأشرف خليل إلى الكرك؛ ثم عمل استادار صحبة الناصر محمد نيابة عن بيبرس الجاشنكير واستنابه الناصر محمد بعد مجيئه من الكرك سنة ٧١١هـ (١٣١١م)، ولما تولى السلطان الملك الصالح إسماعيل بن الناصر رسم له بنيابة غزّة فتوجه إليها فعمّر بها قصرًا للنيابة وهو أول من مدّنها، فبنى فيها القصر والجامع والحمام والمدرسة للشافعية وخان السبيل والمارستان، ووقف عليه عن الملك الناصر أوقافاً جليلة، وجعل النظر فيه لنواب غزّة، وعمر بها الميدان، ولما خرج الأمير جمال الدين نائب الكرك إلى نيابة طرابلس فوض السلطان إليه نظر الوقف والبيمارستان المنصوري، وتوفي في تاسع من رمضان سنة ٧٤٥هـ (١٣٤٤م). (الصفدي. الواصف بالوفيات. ج١٥، ص ٤٨٢-٤٨٤).

(٣) الصفدي. الواصف بالوفيات. ج١٥، ص ٤٨٢-٤٨٤.

(٤) الكرك: اسم قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم، والبيت المقدس، وهي على سن جبل عال تحيط بها أودية إلا من جهة الريض (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج٤، ج٧، ص ١٣١).

عن بعض طبقات الدرر الكامنة لأبن حجر، وهذا من وجهة نظر الباحثة وهم لا يصل بعد تحقيقه إلى درجة اليقين.

٧ - بيمارستانا الرملة^(١) ونابلس:

ذكرهما ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة، ونسبهما لناظر الجيش فخر الدين محمد بن فضل الله القبطي (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، وأشار إلى أنه قد أسلم وتسمى محمداً وحجَّ عشر مرات وزار القدس، وأحرم مرة من القدس إلى مكة، وأنه كانت صدقته في كل يوم ألف درهم، وبنى عدة مساجد وعدة أحواض لسقيا الماء في الطرقات، وله مارستان بالرملة، وآخر بنابلس من أعمال فلسطين، اتصل بخدمة الناصر محمد، ومات في رجب سنة ٧٣٢هـ (١٣٣٢م).^(٢)

٨ - البيمارستان المنصوري في مدينة الخليل:

وردة الإشارة إلى هذا البيمارستان لدى الحنبلي بما نصه " والبيمارستان المنصوري وقف الملك المنصور قلاوون ايضاً. عمره في سنة ثمانين وستمائة".^(٣) ولكن لم أجد لموقع هذا البيمارستان أو أوقافه أو أي إشارة لأي نشاط له في ذلك العصر.

٩ - البيمارستان الدقاقي بدمشق:

ورد ذكر هذا البيمارستان عند أحمد عيسى في تاريخ البيمارستانات، وأسماه البيمارستان الدقاني نسبة إلى دقان بن تُتُّش السلجوقي بزعمه.^(١)

(١) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبته قد خربت الآن وكانت رباطاً للمسلمين. (ياقوت الحموي. معجم البلدان. مج ٢، ج ٤، ص ٤٢١).

(٢) الدرر الكامنة. مج ٢، ج ٤، ص ٨٦.

(٣) الحنبلي، أبي اليمن مجير الدين عبدالرحمن بن محمد عبدالرحمن بن محمد العليمي (ت ٩٢٨هـ / ١٥٢١م). الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ط ١. النجف: المطبعة الحيدرية.

- ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م). ج ٢، ص ٧٩.

والذي يبدو لي أن هناك تصحيفاً في اسمه ونسبته، فلم أقف على من تسمى بدقان بالنون من حكام دمشق، ولعله قصد دُقاق بن تُتش السلجوقي صاحب دمشق بدليل أن ابن كثير في البداية والنهاية أسماه البيمارستان الدقاقي وذلك حينما أشار إليه ضمن حوادث سنة ٧٦٤هـ (١٣٦٢م) بما نصه: "وفي ليلة الجمعة الحادي والعشرين من صفر عملت خيمة حافلة بالبيمارستان الدقاقي جوار الجامع، بسبب تكامل تجديده قريب السقف مبنياً باللبن، حتى قناطره الأربع بالحجارة البلق، وجعل في أعاليه قمريات كبار مضيئة، وفتق في قبلته إيواناً حسناً زاد في أعماقه أضعاف ما كان، وبيضه جميعه بالجص الحسن المليح، وجددت في خزائن ومصالح، وفرش ولحف جدد، وأشياء حسنة، فأثابه الله وأحسن جزاءه أمين، وحضر الخيمة جماعات من الناس من الخواص والعوام، ولما كانت الجمعة الأخرى دخله نائب السلطنة بعد الصلاة فأعجبه ما شاهده من العمارات، وأخبره بما كانت عليه حاله قبل هذه العمارة، فاستجاد ذلك من صنيع الناظر".^(٢) ومع هذا فإنني لم أقف على أي إشارة في المصادر إلى قيام الملك دُقاق بإنشاء هذا البيمارستان بدمشق، وكل الذي تشير إليه المصادر هو أن البيمارستان النوري كان أول ما أنشئ في دمشق، ولكن لعله نُسب إليه لإنشائه ضمن مرفق من مرافق دُقاق أو ضمن وقف له في هذا الموقع، ولذا غلب اسمه عليه.

وهكذا تعرفنا على البيمارستانات التي كانت مزدهرة في العصر المملوكي عندما كانت في قمة مجدها وحضارتها حيث تألفت هذه البيمارستانات وتطورت أوضاعها وتعددت أقسامها ونبغ فيها عديد من الأطباء بمختلف تخصصاتهم، وأدت تلك البيمارستانات وظائفها المنوطة بها.



(١) تاريخ البيمارستانات في الإسلام. ص ٢٥٩، ودُقاق بن تتش السلجوقي بضم القاف هو حاكم دمشق بين سني (٤٨٨ - ٤٩٧هـ / ١٠٩٥ - ١١٠٣م) انظر ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي الدمشقي (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م). تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار. دمشق: دار حسان. ١٤٠٢هـ (١٩٨٣م). ٢١٣ - ٢٣٣.

(٢) البداية والنهاية. ج ٢، ص ٢٢٤٣.

الفصل الثاني

أقسام البيمارستانات

- المبحث الأول: الأقسام العلاجية.
- المبحث الثاني: الأقسام التعليمية.
- المبحث الثالث: مرافق البيمارستانات التموينية والخدمية.
- المبحث الرابع: تصنيع الأدوية والعلاجات.
- المبحث الخامس: مخازن الأدوية وأساليب صرفها.

إنَّ بيمارستانات العصر المملوكي قد بلغت من التنظيم والدقة بالعمل حدًّا يستحق الإشادة والذكر، إذ لم تكن تلك البيمارستانات تسير اتفاقاً بغير نظام ولا ترتيب، بل كانت تسير وفق نظام تام وترتيب محمود تسير أعمالها على وتيرة منتظمة،^(١) وقد شملت تلك البيمارستانات ضمن مرافقها أقساماً علاجية وأخرى تعليمية، بل وكان في داخل هذه الأقسام أقسام أخرى تخصصية، فالعلاجية شملت علاج الأمراض في مختلف التخصصات الطبية بفروعها، والأقسام التعليمية التي اشتهرت بها بيمارستانات ذلك العصر تؤكد ذلك الأثر التعليمي الذي قدّمته البيمارستانات المملوكية إلى جانب قيامها بوظيفتها الرئيسيّة وهي تطيب الناس وعلاجهم، إضافة إلى الفصل التام بين أقسام الذكور وأقسام الإناث في تلك البيمارستانات.

وهنا في هذا الفصل سيأتي الحديث عن هذه الأقسام وتنظيماتها، إضافة إلى ما حوته البيمارستانات من أقسام تموينية وخدمية قدّمت مع الأقسام الأولى خدمات جليّة لمرضى البيمارستان، وتكاملت بها رسالته، كما أنّ هذا الفصل سيعرض إلى أساليب تصنيع الأدوية والعلاجات، ومخازن حفظ الأدوية وأساليب صرفها داخل البيمارستان، وذلك وفق الآتي:

المبحث الأول: الأقسام العلاجية:

لقد سار سلاطين المماليك على نظام دقيق للعمل على رقي البيمارستانات، والرفع من مستواها العلاجي، فوضعوا تلك الأقسام المخصّصة لعلاج المرضى بمختلف أمراضهم، وهذه الأقسام يغلب عليها أن تكون مقسمة إلى قسمين: أحدهما للذكور، والأخرى للإناث، كما أنّ هذه الأقسام تكبر وتصغر حسب مساحة البيمارستان وإمكانياته، وأعداد المشتغلين به، والمرضى

(١) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١٨.

المترددین علیه، وكلّ قسم من هذه الأقسام مقسّم إلى قاعات يغلب عليها طابع التخصص في العلاج، فتوجد قاعة للأمراض الباطنية، وقاعة أخرى للجراحة، وثالثة للكحالة (أمراض العيون)، وقاعة للتجبير، وهكذا تتعدد القاعات بتعدد الأمراض.

كما أنّ هذه القاعات الكبيرة مقسّمة - في الغالب - إلى قاعات أخرى أصغر منها، فمثلاً قاعة الأمراض الباطنية نجدها مقسمة إلى أقسام صغيرة تبعاً لاختلاف الأمراض فمنها قسم المحمومين، وهم المصابون بالحمى، وقسم للممرورين وهم مرضى الجنون السبعي، وقسم للمبرودين أي المتخومين، وقسم لمن به إسهال، وهكذا، وهذا ما عمل به في البيمارستان المنصوري بالقاهرة.^(١)

وفضلاً عما سبق كان البيمارستان المنصوري يشتمل على قسم آخر غير الأقسام السابقة - يكاد يكون مستقلاً عن الأقسام الأخرى - وهو قسم خاص بالمجانين، وهو ينقسم إلى قسمين متجاورين أحدهما خاص بالمجانين من الرجال والآخر خاص بالنساء.^(٢)

أما البيمارستان القيّمري بدمشق ففيه قاعتان أيضاً للمرضى المسهلين، منها قاعة للرجال وأخرى للنساء، وهناك قاعات للمجانين، واحدة للرجال وأخرى للنساء،^(٣) كان الفصل بين قاعات النساء والرجال أمراً معمولاً به في كافة بيمارستانات ذلك العصر إذ يشتهر أن يقسّم البيمارستان إلى قسمين منفصلين عن بعضهما البعض، قسم خاص بالذكور وآخر للإناث، وكلّ قسم مجهّز بما يحتاجه من عدّة وخدم وفرّاشين من الرجال والنساء، وقوّام، وفي كلّ قسم من هذين القسمين عدّة قاعات لمختلف الأمراض.^(٤)

(١) المقرّبي. الخطط. ج٤، ص ٢٦٩.

(٢) محمد سيف النصر. منشآت الرعاية الاجتماعية. ص ٨٩.

(٣) ابن طولون. القلائد الجوهريّة. ج١، ص ٣٤٧.

(٤) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١٨ - ١٩،

كما نرى تخصيص قسم بالمجانين في بيمارستانات ذلك العصر أمراً مألوفاً، رغم أننا نجد أن الطب العقلي في تاريخه المتعثر الطويل لقي الكثير من الإنكار والجحود بما فاق غيره من فروع المعرفة الطبية، إلا أن ما أسداه الأطباء العرب والمسلمون لهذا العلم مما يستحق معه الإشادة في الوقت الذي كان الجنون يعدُّ في أوروبا من الأمراض الشيطانية مما أباح الأوربيون لأنفسهم تقييد هؤلاء المرضى بالسلاسل، وكانوا يعالجونهم بالضرب عند ارتفاع أصواتهم بالصراخ.^(١)

وفي هذا الوقت بالذات كان المسلمون يعتبرون الجنون مرضاً يجيء علاجه كبقية الأمراض لذلك أنشأوا لهم البيمارستانات باعتبارهم عاجزين عن القيام بحاجتهم، وكانوا في هذه البيمارستانات يعاملون بمنتهى الإنسانية، وكان الأطباء يعالجونهم بالعقاقير والطرق النفسية لكل واحد منهم.^(٢)

ثم إن رعاية المريض العقلي في قسم خاص في المستشفى العام هو أحدث المفاهيم في علاج الاضطرابات العقلية. إذا كان المتبع في العالم الغربي إلى عهد قريب عزل مرضى العقل في مستشفيات خاصة بهم ولم تلق فكرة علاجهم في المستشفيات العامة القبول إلا في زمن غير بعيد وبعد مقاومة ومعارضة شديدة، وهي في ذلك كانت الفكرة التي سادت المناخ الطبي في العالم الإسلامي بقصد علاج الأعراض العقلية منذ أكثر من ألف سنة، كما كثرت المؤلفات الطبية في هذا المجال، وهو دليل آخر على الاهتمام بهذا النوع من المرضى ورعايتهم.^(٣)

ثم إنه كان لبيمارستانات ذلك العصر طريقتان في علاج المرضى:

(١) محمود الحاج قاسم محمد. الطب عند العرب والمسلمين "تاريخ ومساهمات"، ط ١. جدة: الدار السعودية. ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م). ص ٢١٧.

(٢) محمود الحاج قاسم. الطب عند العرب والمسلمين. ص ٢١٧.

(٣) محمود الحاج قاسم. الطب عند العرب والمسلمين. ص ٢١٨.

الأولى: وهي ما يشبه العيادة الخارجية، حيث كان الطبيب يجلس على دكة، ويكتب لمن يرد عليه من المرضى، للعلاج أوراقاً تمنحهم صيدلية البيمارستان بموجبها الأشربة والأدوية التي يصفها الطبيب، وكان المريض يُصرف له الدواء في البيمارستان؛ ثم ينصرف ليتناولوه في منزله.

الثانية: وهي معالجه المرضى، داخل البيمارستان، إذ يوزعون على القاعات بحسب أمراضهم، وكان لكل قسم من أقسام البيمارستان أطباء مختصون، يتفاوت عددهم بحسب سعة القسم وعدد المرضى.^(١)

والمعالجة في تلك البيمارستانات هي للجميع للملك والمملوك والكبير والصغير والحرّ والعبد والذكر والأنثى، وهذا ما نصّت عليه وثيقة وقف بيمارستان قلاوون بعد فراغه من بنائه إذ قال: "قد وقفت هذا على مثله فمن دوني، وجعلته وقفاً على الملك والمملوك والجندي، والأمير والكبير والصغير والحرّ والعبد الذكور والإناث".^(٢)

وكان المرضى الداخلون بعد أن تقيّد أسماؤهم، تنزع عنهم ثيابهم، وتؤخذ نقودهم عند أمين البيمارستان، ويعطون ثياباً نظيفة ويتناولون الأدوية، والأغذية، بإشراف الأطباء طيلة مكوثهم مجاناً.^(٣)

ويتألف أطباء البيمارستان غالباً من ثلاث فئات: "الطبائعيون" وهم الذين يقومون بعلاج الأمراض الباطنية، والجراحيين، وهم الذين يقومون بالعمليات الجراحية، والكحالون، وهم المختصين بمعالجة أمراض العيون، وهؤلاء يقومون بمهامهم، فيعالجون المرضى مجتمعين أو متناوبين مما يدل على مدى اهتمام الواقف بالرعاية الصحية، وكانت مواعيد تواجد الأطباء تختلف فمنهم من كان يلزم البيمارستان ليلاً ونهاراً، ومنهم من يتواجد في

(١) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ٣١-٣٢.

(٢) المقرئزي. الخطط. ج ٤، ص ٢٦٩.

(٣) المقرئزي. الخطط. ج ٤، ص ٢٦٨.

البيمارستان يوم واحد في الأسبوع أو أكثر ومنهم من يتواجد ليلاً فقط، لما قد يحدث من أزمات للمرضى أثناء الليل.^(١)

وكانت الدقة في التشخيص تدعو إلى ضرورة مراجعة الطبيب الكحال (طبيب العيون) مثلاً، والطبيب الطبائعي (طبيب الأمراض الباطنية)، للنظر سويًا في علاج المريض قد يرجع مرض عينيه إلى أسباب باطنية، وتوضح لنا هذه النقطة مدى التعاون بين الأطباء في فروع الطب المختلفة، وكانت إذا دعت الحال يدعى طبيب من قسم آخر غير القسم الذي فيه المريض للاستشارة، مما يدل على ما كان يتمتع به الأطباء من روح علمية وإيجابية، وهذا ما نراه مطبقاً بالبيمارستان المنصوري، وما تؤكد وثيقة الوقف بما نصه: "ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه هذا المارستان من الأطباء المسلمين الطبائعيين والكحاليين والجرائحين بحسب ما يقتضيه الزمان، وحاجة المرضى، وهو مخير في العدة، وتقرير الجاميكات، ما لم يكن في ذلك حيف ولا شطط، يباشرون المرضى والمختلين، الرجال والنساء، بهذا المارستان مجتمعين ومتناوبين، باتفاقهم على التناوب، أو بإذن الناظر في التناوب، ويسألون عن أحوالهم، وما يتجدد لكل منهم زيادة مرض أو نقص، ويكتبون بما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء وغيره، في دستور ورق ليصرف على حكمه، ويلتزمون المبيت في كل ليلة بالبيمارستان مجتمعين أو متناوبين، ويجلس الأطباء الكحالون لمداواة أعين الرمداء بهذا المارستان، ولمداواة من يرد إليهم به من المسلمين بحيث لا يرد أحد من المسلمين الرمداء لمداواة عينه بكرة كل يوم، ويباشرون المداواة، ويتلطفون فيها، ويرفقون بالرمداء في ملاطفتهم، وأن كان بينهم من به قروح أو أمراض في عينيه، تقتضى مراجعة الكحال للطبيب الطبائعي راجعه، وأحضره معه، وباشر معه من غير انفراد عنه، وراجعه في أحواله إلى حين برؤه وشفائه..."^(٢)



(١) محمد محمد أمين. الأوقاف. ص ١٦٧-١٦٨.

(٢) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم ١٤، ١٥.

المبحث الثاني: الأقسام التعليمية:

لقد أدرك سلاطين المماليك - حالهم حال من سبقهم - أنّ علم الطب باعتباره من العلوم التجريبية، لا يمكن دراسته بعيداً عن المرضى، وأنّ خير مكان لهذه الدراسة هي البيمارستانات، نظراً لقرب الطلاب من الحالات المرضية، ولتوفر العلاجات المتنوعة فيها.

من هذا المنطلق فإنّ البيمارستانات تعدّ معاهد هي الأنسب لتعليم الطب، حيث تحوي في الغالب على إيوان كبير للمحاضرات يجلس فيه كبير الأطباء، ومعه باقي الأطباء، والطلاب، وبجانبهم الآلات والكتب الطبية؛ ثم تجري المباحثات الطبية والمناقشات بين الأستاذ وطلابه، ويرجعون للكتب الطبية إذا احتاجوا إليها، وكثيراً ما يصطحب الأستاذ تلاميذه إلى داخل البيمارستان لإجراء الدروس العملية على المرضى بحضورهم.^(١)

وتؤكد لنا وثيقة وقف السلطان قلاوون أنّ خدمات البيمارستان المنصوري لم تقتصر على معالجة المرضى، بل تعدى الأمر ذلك إلى تدريس الطب والاهتمام به، وهو ما يشبه إلى حد كبير ما يتم في كبار المستشفيات في العصر الحديث من إلحاق كليات الطب بالمستشفيات، فقد نصت وثيقة وقف البيمارستان المنصوري على تعيين شيخ للاشتغال بالطب، يكون من بين أطباء البيمارستان، وقد خصّص له الواقف مكاناً محدداً لإلقاء دروس الطب على طلبته، فنصت الوثيقة على أن "يصرف الناظر في هذا الوقف لمن ينصبه شيخاً للاشتغال عليه بعلم الطب على اختلافه، يجلس بالمسطبة الكبرى المعينة له في كتاب الوقف المشار إليه، للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه في

(١) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٥٨١.

الأوقات التي يعينها له الناظر ما يرى صرفه إليه، وليكن من جملة أطباء البيمارستان المبارك من غير زيادة عن العدد".^(١)

وكان من جملة ما ذكره المقرئ عن هذا البيمارستان أنه جعل فيه مكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء دروس الطب.^(٢)

وكان من يتولى تدريس الطب في البيمارستان لا بد له من توقيع خاص، ولقد ذكر ابن عبد الظاهر توقيع مهم، يتضمن تعيين طبيب للتدريس في البيمارستان المنصوري حيث قال: "وجعلنا فيه مكاناً للاشتغال بعلم الطب الذي كاد أن يجهل، وشرعنا للناس إلى ورد بحره أعذب منهل، وسهلنا عليهم من أمره ما كان الحلم به من اليقظة أسهل، وارتدنا له من علماء الطب من يصلح لإلقاء الدروس، وينتفع به الرئيس من أهل هذه الصناعة والمرءوس، ويؤتمن على صحة الأبدان وحفظ النفوس، فلم نجد غير رئيس هذه الطائفة أهلاً لهذه المرتبة، ولم نرض لها من لم تكن له هذه المنقبة، وعلمنا أنه متى وليها أمسى بها معجباً، وأضحت به معجبة".^(٣)

ولقد حرص السلاطين والأمراء الذين شيّدوا البيمارستانات في العصر المملوكي على تزويدها بالمكتبات التي تضم المؤلفات الطبية المتخصصة، وهذا ما عمل به - من قبلهم - السلطان نور الدين محمود بن زنكي حيث أوقف على البيمارستان النوري جملة كبيرة من الكتب الطبية، وكانت في الخرستانين اللذين في صدر الإيوان.^(٤) وكذلك ما فعله السلطان الملك المنصور

(١) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم ١٥.

(٢) الخطط. ج ٢، ص ٤٠٦.

(٣) تشریف الأيام والعصور. ص ٢٢٩.

(٤) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ٥٨١.

قلاوون عندما أنشأ البيمارستان المنصوري، وأوقف عليه الأوقاف السخية، وجعل به خزانة كتب.^(١) وأيضاً ابن النفيس الطبيب المشهور (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) الذي أوقف داره وكتبه على البيمارستان المنصوري، وكانت هذه المكتبة من الضخامة أن بلغت محتوياتها مئة ألف مجلد.^(٢)

وهكذا تتسع الحركة التعليمية في عصر دولة المماليك لتمتد إلى مجال الدراسات الطبية بواسطة البيمارستانات، وذلك إدراكاً من سلاطين ذلك العصر لأهميتها في هذا الشأن.



(١) المقرئزي. الخطط. ج٤، ص٢٦٩.

(٢) السيد النشار. تاريخ المكتبات في مصر. ط١. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية. ١٣٠٤هـ (١٩٩٣م). ص١٠٣.

المبحث الثالث: مرافق البيمارستانات التموينية والخدمية:

بالإضافة إلى ما سبق من ذكرٍ لأقسام البيمارستانات العلاجية والتعليمية، فإنَّ هناك مرافق أخرى تحويها بيمارستانات ذلك العصر وهي تأتي مع الأولى مكّمة لرسالة البيمارستان وخادمة له كالأقسام التموينية والخدمية، فالتموينية هي التي تتمثل بالمطبخ وما يعدُّ به من طعام وشراب وأدوية صحية نافعة للمرضى المقيمين للعلاج، ويكون مما يصفه الطبيب للمرضى، وللمطبخ مشرفون يراقبون عمال المطبخ، ونظافتهم، ونظافة الآنية والقدور، وما يتبعها من آنية الطبخ والتقديم، وكمية الطعام الذي يقدم إلى المرضى، بحيث يكون مطابقاً لما قرره الطبيب.^(١) ولقد أفرد السلطان المنصور قلاوون في البيمارستان المنصوري مكاناً لطبخ الطعام والأدوية والأشربة، ومكاناً لتركيب المعاجين والأكحال والشيافات ونحوها، ومواضع يخزن فيها الحواصل، وجعل مكاناً يفرق فيه الأشربة والأدوية،^(٢) وذكر ابن طولون صورة من ذلك ضمن البيمارستان القيُمري بدمشق إذ يقول: " وفي شرقيه مطبخ للمزورات والفراريح وغير ذلك."^(٣)

أما الخدمية فهي الخدمات التي يسعى السلاطين لتوفيرها داخل البيمارستان، إذ عملوا على وضع الفراشين من الرجال والنساء لخدمه المرضى، والقيام بتجهيز كل قاعة بالأثاث الذي يريح المرضى من تخوت وفرش وطراريح ولحف ومخدات، فيكون لكل مريض تخت خاص به، وعليه من الفرش ما يؤمن راحته، وفي بعض البيمارستانات تكون الفرش من الكتان والصوف والحريز، متقنه الصنع، جميله المنظر.^(٤)

(١) الديوه جي. الموجز. ص ٦٦.

(٢) المقرئزي. الخطط. ج ٤، ص ٢٦٩.

(٣) القلائد الجوهريّة. ج ١، ص ٣٤٧.

(٤) المقرئزي. الخطط. ج ٤، ص ٢٦٩.

وقد أشارت وثيقة قلاوون إلى ذلك حيث جاء فيها: "ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف ثمن ما تدعو حاجة المرضى إليه من سرر حديد أو خشب، على ما يراه مصلحة، ولحف محشوة قطنًا، وطراريح محشوة بالقطن أيضًا، وملاحف قطن، ومخاد طرح، أو آدم محشوة على ما يراه، ويؤدى إليه اجتهاده... فيجعل لكل مريض من الفرش والسرر على حسب حاله، مما يقتضيه مرضه..."^(١)

ويقدم المارستان ثيابًا خاصة للمرضى عند دخولهم للمارستان، فهي نظيفة، يشرف الخدم على نظافتها وغسلها إذا اتسخت، وذلك الاهتمام بتوفير الغذاء المناسب لكل مريض حسب حالته الصحية، فضلًا عن توفير الإضاءة، والماء العذب، وأيضًا لم يغفل السلاطين عن حالة الجو في الصيف، فاشتروا ضرورة صرف مراوح من الخوص ليستخدمها المرضى في التخفيف من حرارة الصيف، كذلك امتدت حرصهم إلى أن يكون هناك ما يغطى به غذاء المرضى لمنع تلوثه، وأن يتناول كل مريض غذاءه من غير مشاركة مع مريض آخر زيادة في الحيلة، وأتباعًا لأساليب صحية، وهذا كله يدل على مدى ما كانت عليه بيمارستانات العصر المملوكي من العناية والاهتمام الصحي.^(٢)

وورد ذلك في وثيقة وقف بيمارستان قلاوون حيث جاء فيها: "... وماء من بحر النيل المبارك برسم شربهم وأغذيتهم، وثمرن مكبات خوص لأجل استعمالهم إيها في الحر، يصرف الناظر ثمن ذلك من ريع هذا الوقف في غير إسراف ولا إجحاف، ولا زيادة على ما يحتاج إليه كل ذلك بحسب ما تدعو الحاجة، لزيادة الأجر والثواب... ويجعل لكل مريض ما طبخ له، في كل يوم، في زبدية منفردة له من غير مشاركة مع مريض آخر، ويغطيها، ويوصلها إلى المريض، إلى أن يتكامل إ طعامهم، ويستوفى كل منهم غذاءه، وعشاءه، وما وصف له بكرة وعشية..."^(٣)

(١) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفوظة رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم ١٣.

(٢) محمد محمد أمين. الأوقاف. ١٦٢-١٦٣.

(٣) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفوظة رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم ١٤.

ومن ضمن الخدمات التي تقدّم في ذلك البيمارستان أنّ قاعات المرضى تدفأ بإحراق البخور أو تبرّد بالمرّاح الكبيرة الممتدة من طرف القاعة إلى الطرف الثاني، وكانت أرض القاعات تغطى بأغصان شجر الحناء أو شجر الرمان أو شجر المصطكي أو بعساليج الشجيرات العطرية.^(١)

وهناك أيضاً مرافق خدمية أخرى كالمخزن وهو لخزن الأثاث والآنية والطعام وما يحتاجه المرضى في تدبير أمورهم، وقد يكون فيه ما يكفي لمن في المارستان لسنه واحده، بالإضافة إلى وجود الحمامات داخل البيمارستانات وهناك الخاصة بالرجال والأخرى خاصة بالنساء، وهما للمرضى، ولمن يعمل في المارستان، وفيهما من يساعد المرضى على الاستحمام.^(٢)

وفي البيمارستانات الكبيرة بساتين واسعة، فيها أنواع الأشجار المثمرة، ويغرس فيها الأزهار والرياحين، يتخللها نافورات، يتدفق منها الماء، ويتوزع في أرجاء البستان وفي قاعات المرضى، وهذا ما عمل بالبيمارستان المنصوري فكان يمتاز بحدائقه الواسعة، وفيه أربعة أو اوين فخمة، في كل واحد نافورة يتدفق منها الماء، ويدور في قاعات المرضى، وينساب فيسقي الأزهار والرياحين التي كانت تزين هذا البناء وما فيه من ساحات وأجنحة، مما لم يكن مثلها في بيوت المترفين.^(٣)

وكذلك ما يمتاز به البيمارستان الأرغوني بجمال حدائقه ونافوراته وكثرة البرك به التي لا تزال آثارها موجودة إلى الآن.

وفي البيمارستان القيّمري بدمشق حديقة بها أصناف الورود والرياحين تفوح منها الرائحة الزكية التي تريح نفوس المرضى والمنومين وتزكي الأرواح داخل هذا البيمارستان، وبوسطه بركة عظيمة يأتي إليها الماء بناعورة مركبة على نهر يزيد دائماً بهدف تلطيف الجو.^(٤)



(١) Gomara نقلاً عن أحمد عيسى. ص ١٠٢-١٠٣.

(٢) الديوجي. الموجز. ص ٦٥-٦٦.

(٣) المقرئزي. السلوك. ص ١٧٥-١٧٦.

(٤) ابن طولون. القلائد الجوهريّة. ج ١، ص ٣٤٧.

المبحث الرابع: تصنيع الأدوية والعلاجات:

إنَّ عملية تصنيع الأدوية والعلاجات تتم داخل البيمارستان، سواء بالمطبخ وهو الذي تصنع به الأدوية والأشربة، أو في مكان خاص يفرد لتركيب المعاجين والأكحال والشيفات ونحوها كما هو معمول به في بعض البيمارستانات.

ويقسم الأطباء الأدوية إلى دواء مفرد ودواء مركب، ويقصد بالدواء المفرد ما ليس فيه تركيب صناعي^(١) وتكون في الغالب إما نباتية أو حيوانية أو معدنية.^(٢)

ولقد عدَّ ابن النفيس أجود أنواع هذه الأصناف، فهو يذكر أن أجود الأدوية والعلاجات من المعدنية ويقول: " ما أخذ من المعادن المشهورة بالجيد منها كالزاج الكرمانى والتوتيا الهندي، وكان مع ذلك من الشوائب غير مكسورة الكيفيات الخاصة بها".^(٣)

ويذكر أيضاً أن أفضل الأدوية النباتية: ما جني بعد استكمالها وقلَّ أخذه في الذبول، وكلما كان الأصل أقلَّ تشنجاً والغصن أقلَّ تشنجاً وأكبر وأسمن، والفواكه أشد اكتنازاً وأرزن وأنبل، فهو أفضل، خاصة ما اجثني في صفاء الهواء، وكان منبته مشرقاً ريحياً، وأجود أخذ الأصل عندما يريد الورق أن يسقط، وأقوى الأدوية النباتية قوة هي الجبلية؛ ثم البرية؛ ثم

(١) ابن النفيس، علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي (ت ٦٨٧هـ / ٢٨٨م). المهذب في الكحل المجرب، تحقيق محمد الوقائي ومحمد القلعة جي. ط٢. المغرب: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. - ٤١٤هـ (١٩٩٤م). ص ١٧٢-١٧٣.

(٢) القلانسي، بدر الدين محمد بن بهرام السمرقندي (ت ٥٦٠هـ / ١١٩٥م). أقرباذين القلانسي، تحقيق محمد زهير البابا. حلب: معهد التراث العلمي العربي. ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م). ص ٢٠.

(٣) ابن النفيس. المهذب. ص ١٩٠-١٩١.

البستانية، وأضعفها النهرية وكلما كان من ذلك ريحه أذكى ولونه أصبغ وطعمه أظهر فهو أفضل.^(١)

وأما أفضل الأدوية الحيوانية فهو: ما أخذ من حيوان شاب صحيح في الربيع، وخير أجزاء الحيوان ما أخذ بعد ذكاة ذلك الحيوان، وأما المأخوذ من حيوان ميت وخاصة ما كان موته بمرضٍ فرديئة.^(٢)

أما الدواء المركَّب هو الذي تعرف أمزجته ومقادير تلك الأمزجة من معرفة أمزجة مفرداتها ودرجاتها.^(٣)

ويشرف على تصنيع هذه الأدوية والعلاجات طبيب مختص بعلم الأدوية، وطرق تركيبها، ويعمل تحت يديه القومة المشرفون والخدم، وهذا الطبيب المختص هو الذي يقدر ما وصفه الطبيب المعالج من كل نوع، ويعهد به إلى الذين يعملون تحت إشرافه من القومة والمشرفين، فيقومون بإعداد وتركيب الدواء من أشربة ومعالجين، وتراكيب الأكحال والشيافات (الفتيلات)،^(٤) والصفوفات والمراهم والأدهان والدرياقات وغير ذلك، كل هذا يجري تحت إشراف الطبيب، الذي قدَّر لهم المناسب من كل نوع ويشرف على أعمالهم.^(٥)

وفي وثيقة وقف السلطان قلاوون على بيمارستانه يوضح لنا الواقف أنه من الضرورة تحضير الأدوية، في أوانها وتخزينها لحين الحاجة إليها.^(٦)

وقد خضعت صناعة الدواء إلى منهجية علمية وشروط دقيقة، فنجد الأدوية المفردة والمركبة تعرف قواها بطريقتين: الأولى التجريبية والثانية

(١) ابن النفيس. المهذب. ص ١٩١.

(٢) ابن النفيس. المهذب. ص ١٩١.

(٣) ابن النفيس. المهذب. ص ١٩٣.

(٤) الشيافات: جمع شياف وهو دواء مسحوق يستعمل للعيون. (محمد سيف النصر. منشآت الرعاية الاجتماعية. ص ٥٨، حاشية رقم ١).

(٥) المقرئزي. الخطط. ج ٤، ص ٢٦٩.

(٦) محمد محمد أمين. الأوقاف. ص ١٦٣.

القياس، فالتجربة هي معرفة قوة الدواء قبل الاستعمال، وأما القياس فهو الاستدلال على قوة الدواء من خلال لونه، ورائحته، وطعمه وغير ذلك.^(١)

وهناك قواعد ووصايا مهمة أشار إليها الأطباء مما يجب أن تراعى عند تعاطي الأدوية واستخدامها بعامّة، وهذا ما نبه عليه ابن النفيس بقوله: "أنا لاثوثر على الدواء المفرد مركباً إن وجدناه كافياً، لكننا قد نضطر إلى التركيب، أما لإصلاح كيفية دواء مفرد لحدثه أو طعمه، أو رائحته، أو لتقوية قوته، أو لإضعافها، أو لأنه سريع النفوذ فيخلط به ما يسرع تثبته..."^(٢)

ولقد حرص الأطباء على مداواة بالغذاء بدلاً من الدواء وهذا هو التدرج في العلاج من الضعيف إلى القوي ومن المفرد إلى المركب، فلا ينتقل من العلاج بالغذاء إلى الدواء إلا عند تعذره، ولا ينتقل إلى الدواء المركب إلا عند تعذر الدواء المفرد وهكذا.^(٣)

كانت الأدوية - مفردة أم مركبة - تحضر على هيئة مستحضرات ذات أشكال مختلفة تتوقف على طرق استعمالها وتعاطيها والغرض منها، كما كانت تعد بغرض أن يكون مفعولها محققاً مضموناً، وفي الوقت نفسه لاتمجها النفس ولاتعافها بل تستسيغها مع سهول تعاطيها، ولذلك كان على الصيدلي أن يقوم باجراء عمليات تهية الدواء تحقيقاً لهذه الأغراض.^(٤)

(١) ابن النفيس. الموجز في الطب، تحقيق عبداً لكريم العزباوي. القاهرة: لجنة أحياء التراث الإسلامي. - ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م). ص ٧٨.

(٢) الموجز. ص ١٢٣.

(٣) البغدادي، عبداً للطيف بن يوسف بن محمد بن علي (ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١م). الطب في الكتاب والسنة، تحقيق عبدالمعطي أمين قلعة جي. ط ٢. دار المعرفة. - ١٤٠٩هـ (١٩٨٨م). ص ٥٤، ٥٥.

(٤) عبدالعظيم صابر وعبدالحليم منتصر. موجز تاريخ الصيدلة، ضمن كتاب الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، إشراف محمد كامل حسين. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. ص ٣٥٤.

وقد أجمع الصيادلة أنَّ العمليات الخاصة بتحضير الأدوية بشتى أنواعها هي على النحو الآتي:

أولاً/ التسخين والتحميص: وهي من العمليات البسيطة ولكنها على الرغم من ذلك لها بعض الشروط، فمن المواد الدوائية ما يحتمل التسخين البسيط ويتلف عندما تصيبه نار قوية، ومن المواد الدوائية ما يحتاج إلى عرضه في الشمس مدة طويلة، ومنها ما يحتاج إلى التحميص مثل البذور شريطة أن تقلب في الخزف والأحجار.

ثانياً/ السحق: وهي عملية بسيطة كذلك بأن يؤخذ الدواء ويضرب بالهاون حتى يصبح مسحوقاً، ولكنها على الرغم من ذلك فيها بعض المحاذير، لأن بعض المواد الدوائية يبطل مفعولها بالسحق، لذلك أوجب الصيدلي أن تسحق بلطف أن كان ذلك مما لا بد منه، وقد يجري السحق على المادة الدوائية حتى تصبح دقيقة في حالة الكحال نظراً لعدم احتمال حاسة البصر للمسحوق الكثيف.

ثالثاً/ التنظيف والتصفية: وهي أن يتخلص الصيدلي من الأتربة والأوساخ وجميع ما يعلق بالمادة الدوائية من شوائب وذلك عن طريق غسلها بالماء، كانت التصفية الخطوة الثانية، وذلك بأن يتم تصفية ذلك شيئاً فشيئاً وتجفف بعد ذلك.

رابعاً/ التجفيف: وهي طريقة بسيطة لإزالة الرطوبة العالقة بالمادة الدوائية وغالباً ما تستعمل هذه الطريقة للأجزاء النباتية التي تفسدها الرطوبة، ويثابر العشاب أو الصيدلي على حفظها بعيدة عن الرطوبة، وقد يكون التجفيف بالنار الهادئة لكي لا تتلف المادة الدوائية أو بعرضها في الشمس مدة من الزمن حتى تجف.

خامساً / التذويب: وهي طريقة يتم بموجبها ذوبان مادة بمادة أخرى وقد يتم ذلك بالتسخين أو بدونه، وربما يصاحب عملية الذوبان عملية التقطير، حيث يتم إذابة المادة بالتسخين؛ ثم تقطر من أجل الحصول على المادة المذابة نقية تاركة وراءها الأوساخ والشوائب.

سادساً / التقطير والتحليل: وهي طريقة استعملها الصيدلي العربي في حالتها تحضير الدواء والاستدلال عليه، ويستخدم التقطير لتحضير الأدوية والتخلص من الشوائب العالقة فيها، والتي لا يمكن تصفيتها بالطرق الاعتيادية.

سابعاً / التحضير الكيميائي: وهي طريقة استخدمها الصيدلي العربي من أجل الحصول على بعض المركبات الكيميائية المستعملة كأدوية مثال ذلك خلات الرصاص وخلات النحاس، فيحضر الزنجرار مثلاً من وضع صفائح النحاس في الخل مدة طويلة حتى يتحول إلى محلول أخضر اللون، ويحضر الاسفيداج من معاملة الرصاص بالخل، حيث يحصل على خلات الرصاص؛ ثم تسخن بحرارة شديدة لتعطي كربونات الرصاص القاعدية، وغير ذلك من المواد المركبة.

ثامناً / الحرق: وهي طريقة استخدمها الصيدلي العربي من أجل الحصول على المادة الطبية التي يريدونها مثل ذلك حرق الأسرب (الأنثيمون) في النار للحصول على أوكسيد الانثيمون، وحرق أملاح مختلطة للحصول على القلي أو رماد الصودا، وقد تحرق المادة لتكون مهياًة للسحق، كما تحرق لتكون لطيفة الجوهر أو لتكون أشد تأثيراً من الناحية الدوائية.

تاسعاً / الطبخ: وهو من الطرق المألوفة لتحضير الأدوية الكثيفة القوام، ويتحكم الصيدلي في درجات الحرارة، لأنَّ منها ما يحتاج إلى طبخ على حرارة شديدة ومنها ما يحتاج إلى طبخ على حرارة معتدلة أو دون ذلك، لذلك وجب الاحتراس لكي لا يصيب الدواء المطبوخ تغيير وفساد، إذ من الأدوية ما يفقد

قوته بفعل الحرارة الشديدة، ومنها ما يتحلل ويتصاعد فلا يحصل المرء على الدواء المطلوب.

عاشراً / التحلية: وهي أن يقوم الصيدلي بإضافة مواد تصلح من طعام الدواء أن كان غير مقبول الطعم فلا يستطيع العليل احتمالها، وغالباً ما يضاف العسل والسكر مثلاً وما يجرى مجراهما، وقد استعملت هذه الطريقة في تحضير الاشربة واللعوقات والترياقات وغير ذلك.^(١)

وهكذا تقف الدراسة على مشهد مهم من سلسلة مشاهد التقدم الطبي عند المسلمين عبر عنصر أساسي من عناصر التطبيب، وهو أسلوب تصنيع الأدوية والعلاجات والتركيز في ذلك والبحث عن الجديد والمفيد فيها، وهو أمر يحسب للحضارة الإسلامية بعامّة ويسجل لها.



(١) ياسين خليل. الطب والصيدلة عند العرب، بغداد: التراث العلمي العربي. (١٩٧٩م). ص ٢٠٦-٢٠٨.

المبحث الخامس: مخازن الأدوية وأساليب صرفها:

وكان البيمارستان يُهتم بتخطيطه حسب حاجته وتقسيماته الضرورية، فقد أُفرد فيه مكانٌ لخبز الأدوية وحواصل العقاقير، وهذا يعدُّ من ضمن المرافق التموينية الأساسية في البيمارستانات.^(١)

وقد ذكر النويري عند حديثه عن بيمارستان قلاوون بالقاهرة أنه أفردت فيه أماكن لطبخ الطعام والأشربة والأدوية والمعاجين وتركيب الأكحال والشياطات والسفوفات وعمل المراهم والأدهان وتركيب الترياقات وأماكن لحواصل العقاقير وغيرها من هذه الأصناف المذكورة ومكاناً يفرق منه الشراب.^(٢)

ومخازن الأدوية تدخل في ذلك العصر ضمن ما أطلق عليه القلقشندي خزانة الشراب وهي المعبر عنها في زمنه بالشرابخانة والتي كانت تحوي أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة والمربيات الفاخرة وأصناف الأدوية والعطريات الفائقة التي لا توجد إلا فيها.^(٣)

وقد ذكر الديوه جي أنّ الصيدلية "من أهم ما يكون في البيمارستان، فيها أنواع الأدوية والعقاقير الحشائش التي يحتاجها المرضى في المعالجة، يشرف عليها طبيب مختص بعلم الأدوية، وطرق تركيبها، ويعمل تحت يديه القومة المشرفون والخدم، يساعدونه بما يوجههم إليه من عمل في تقديم الأدوية إلى المرضى، الذين هم في المارستان، و للصيدلية مخزن فيه من العقاقير ما يكفي لأكثر من سنة مما يحتاجه المرضى، وإذا ما قلت مادة في

(١) المقريري. الخطط. ج٤، ص ٢٦٩.

(٢) نهاية الأرب. ج٣١، ص١٠٧، ١٠٨.

(٣) صبح الأعشى. ج٣، ص٥٤٦.

المخزن أسرعوا إلى ابتياع ما يحتاجونه منها، والمشرف على المخزن يتفقد ما فيه دوماً، ويتدارك ما نقص دون تأخير".^(١)

ويتحدث البلوي في دهشة عن صيدلية البيمارستان المنصوري وما بها من الأدوية فيقول: "وأما ما يعالج به المرضى من قناطر الأشربة المقطرة والأكحال الرفيعة الطيبة التي تستحق فيها دنانير الذهب والإبريز وفصوص الياقوت النفيس، وأنواع اللؤلؤ الثمين فشيئ يهول السماع".^(٢)

وكان الدواء يعطى لكل مريض، سواء كان في المارستان أو خارجه فالدواء موقوف على كل مريض، على الملك والمملوك، والكبير والصغير، والحرّ والعبد، والذكر والأنثى.^(٣)

وإذا عرّت بعض الأدوية في المدينة، وكانت متوفرة في المارستان، فإنها تقدم لمن يحتاجها، سواء عولج في المارستان، أو من طبيب خارجي.^(٤)

وكلُّ علاج أو تدير يكتبه الطبيب للمريض، لا يؤخر، ولا يتوانى في تحضيره وتقديمه.^(٥)

كما كانت هناك أنظمة معمولاً بها، والتي تعدُّ من أسس الرعاية الصحية الحديثة، من ذلك ما يشترطه من ضرورة تحضير الأدوية، في أوانها وتخزينها لحين الحاجة إليها، على أن يصرف لكل مريض ما يحتاج إليه فقط دون زيادة أو نقصان، فقد كان للبيمارستانات خزانة كاملة للشراب.^(٦)

(١) الموجز. ص ٦٤.

(٢) تاج المفرق. ج ١، ص ٢١٨-٢١٩.

(٣) محمد محمد أمين. الأوقاف. ص ٦٦٠.

(٤) الديوه جي. الموجز. ص ٦٥.

(٥) الديوه جي. الموجز. ص ٦٥.

(٦) محمد محمد أمين. الأوقاف. ص ١٦٣-١٦٤.

وورد ذلك في وقفية قلاوون حيث جاء فيها: "... ويصرف الناظر في هذا الوقف ثمن سكر يصنعه أشربه مختلفة الأنواع، ومعاجين، وثمان ما يحتاج إليه لأجل ذلك من الفواكه والخماير، رسم الأشربة، وثمان ما يحتاج إليه من أصناف الأدوية والمعاجين والعقاقير والمراهم، والأكحال والشيافات، والذرورات^(١) والادهان، والسفوفات، والدريقات، والاقراص، وغير ذلك، يصنع كل صنّف في وقته وأوانه، ويدخره تحت يده في أوعية معدة له، فإذا فرغ استعمل مثله من ريع هذا الوقف، ولا يصرف من ذلك لأحد شيئاً إلا بقدر حاجته إليه، ولا يزيده عليها، وذلك بحسب الزمان، وما تدعو الحاجة إليه بحسب الفصول وأوقات الاستعمال، ويقدم في ذلك الأحوج فالأحوج من المرضى والمحتاجين، والضعفاء والمنقطعين، والفقراء، والمساكين...".^(٢)

ولقد رتب السلطان قلاوون رجلين اشترط فيهما الديانة والأمانة، يتولى أحدهما حفظ الأدوية والعقاقير، مسؤولاً عن صرف الأدوية حسب أوامر الأطباء، فيسلمها للرجل الثاني لتوزيعها على المرضى، وعليه أن يتأكد من أن كل مريض تناول الدواء الموصوف له، فنصت الوثيقة على أن "يصرف الناظر في هذا الوقت لرجلين مسلمين موصفين بالديانة والأمانة، يكون أحدهما خازن المخزن حاصل التفرقة يتولى تفرقة الأشربة والأكحال والأعشاب والمعاجين والأدهان والشيافات المأذون له في صرف ذلك من المباشرين، ويكون الآخر أميناً، يتسلم صبيحة كل يوم وعشيتة أقداح الشراب المختصة بالمرضى والمختلين، من الرجال والنساء، المقيمين بهذا المارستان، ويفرق ذلك عليهم، ويباشر شرب كل منهم لما وصف له من ذلك".^(٣)

(١) الذرورات: وهي الأدوية القاطعة للدم في الجراحات وانتفاخ الشرايين وتنفع في علاج الأنف والبواسير والرعاف والأورام. (محمد سيف النصر. منشآت الرعاية الاجتماعية. ص ٥٨، حاشية رقم ٢).

(٢) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم ١٤.

(٣) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم ١٤.

ولا شك إن اشتراط هذه الشروط لمن يتولى صرف الدواء يعد لفته حضارية مبكرة من القائمين على أمر البيمارستانات تستحق منا الوقوف والتدبر خاصتاً أننا نعيش أياماً بتنا نستمع فيها كثيراً من الأخطاء في صرف الأدوية بالصيدليات وخاصة التجارية منها إن أسند الأمر إلى غير أهله وخاصة عن طريق العمالة التي تخدم بالصيدلة وليست من قبل الصيدلاني المختص.

وهكذا ومن دراسة أقسام البيمارستانات في العصر المملوكي يظهر لنا ذلك التقسيم التخصصي الذي يتناول الأقسام العلاجية، والتعليمية، وما حوته تلك البيمارستانات من مرافق التموينية والخدمية، وكذا أساليب تصنيع الأدوية والعلاجات، ومخازن حفظها وأساليب صرفها، وهو تقسيم يؤكد ما وصلت إليه بيمارستانات ذلك العصر من تنظيم هو مدعاة فخر واعتزاز بما وصلت إليه حضارتنا الإسلامية في هذا المجال.



الفصل الثالث

المتنظيمات الإدارية والمالية للبيمارستانات:

- المبحث الأول / الإدارية:
 - ✿ الإشراف على البيمارستانات (ناظر البيمارستان، رئيس الأطباء "الساعور").
 - ✿ الوظائف الإدارية والفنية.
 - ✿ الرقابة الطبية والفنية (مراقبة الأطباء والصيادلة، مراقبة الخدمات والمرافق، المراقبة من خلال المحتسب).
 - ✿ شروط وصفات الطبيب.
 - ✿ المسؤولية الطبية.
- المبحث الثاني / المالية:
 - ✿ حقوق الأطباء وأجورهم.
 - ✿ الإيرادات وجهاتها.
 - ✿ أوجه الصرف على البيمارستان.

تطرقنا في الفصل السابق إلى أقسام البيمارستانات وما تحويه من مرافق وخدمات ساعدت البيمارستانات في العصر المملوكي على أداء رسالتها على الوجه المنوط بها ، وهنا يأتي الحديث عن التنظيمات الإدارية والمالية التي تسيّر وفقها تلك البيمارستانات بما يناسب عرضه في الآتي:

المبحث الأول/الإدارية:

❖ الإشراف على البيمارستانات:(ناظر البيمارستان، رئيس الأطباء "الساعور"):

لم يكن العمل في بيمارستانات العصر المملوكي يسير بطريقة عشوائية ودون تنظيم، بل كان يتم حسب تنظيمات دقيقة يُشرف على تنفيذها ولاة الأمر في كثير من الأحيان حيث كان يرأس كل العاملين بالبيمارستان ناظر البيمارستان، وقد كانت نظارة البيمارستان من ضمن الوظائف الديوانية العظيمة، ولقد حرصت وثائق الوقف على توكيد سلطة ناظر البيمارستان دائماً، حيث تركت له حرية التصرف في كثير من الأمور وتقدير المواقف حسب ما يراه، وعادةً يكون من أصحاب السيوف لأكبر الأمراء.^(١)

وكان ناظر البيمارستان هو المسؤول الأول عن الوقف، وعليه أن يقوم برعايته، والعمل على إنمائه، وحسن استغلاله طبقاً لشرط الواقف، وقد جرت العادة في العصر المملوكي أن يتولى الواقف النظر على أوقافه أثناء حياته؛ ثم يعهد بذلك من بعده لأولاده وذريته، أو لمن يعينهم من الأمراء الذين يخلفونه في وظيفته، أو الشيوخ والقضاة، أو يعهد بالنظر على أوقافه إلى عتقائه وذريتهم،^(٢) وهذه الوظيفة لا يشترط فيها أن يكون الناظر طبيباً باعتبار مسؤولية الإدارية في تولي النظر على البيمارستان، وهو أشبه ما يكون بالمدير الإداري في مستشفيات اليوم.

(١) القلقشندي. صبح الأعشى. ج ٤، ص ٣٩-٤٠.

(٢) محمد محمد أمين. الأوقاف. ص ٣٠٤.

والنظار منوط بهم تنمية البيمارستان وتتفاوت سياسة النظار في تدبير شؤون من تولوا النظر فيه بين سياسة الأنفاق والبدخ وبين سياسة التضييق، وكان لكل هذا آثاره في مصير المنشأة الموقوفة فقد ذكر عن ناظر البيمارستان المنصوري محمد بن أحمد بن يوسف بن حجاج السفطي أنه اجتهد في عمارته وعمارة أوقافه والحث على تنمية مستأجراته وسائر جهاته حتى الاحكار وما ينسب إليه من الآثار مع التضييق على مباشريه والتحرى في المريض المنزل فيه بحيث زاد عن الحد وقل من المرضى فيه العد وتحامى الناس المجيء إليه بأنفسهم أو بمرضاهم فصار لذلك مكنوساً ممسوحاً ومنع الناس من المشي فيه إلا حفاة وحجر في كل ما أشير إليه غاية التحجير فاجتمع في الوقف بسبب هذا كله من الأموال ما يفوق الوصف.^(١)

كما كان لكل بيمارستان رئيس للأطباء يسمى ساعور البيمارستان، فكانت إدارة البيمارستان تُسند في الغالب إلى رئيس الأطباء، وهذا يقابل في عصرنا الحاضر عميد كلية الطب أو رئيس الأطباء في المستشفيات الكبرى، حيث كان يُختار في العادة من كبار الأطباء وأشهرهم سمعة وعلماً.

وكان رئيس الأطباء يلقب رسمياً في ذلك العصر "بالصدر الأجل الكبير المحترم المقرب الأوحد" وكان الأطباء يعينون في مصر من قبل السلطان، أما في الشام فكانت ولايتهم إلى نواب السلطنة بها، وهو الذي يحكم على طائفة الأطباء ويأذن لهم في التطبيب ونحو ذلك.^(٢)

ونظراً للأهمية الكبرى المتعلقة بهذا المنصب، فإنه كان لابد لمن يرشح لهذه الرئاسة من توقيع سلطاني، وقد أورد القلقشندي ضربين من هذه التواقيع يتضح من خلال استعراضهما أهمية صناعة الطب وتفاوت رتب الأطباء والشروط والآداب التي ينبغي أن تتوافر في كل من يتصدر لصناعة الطب،

(١) السخاوي. الضوء اللامع. مج ٤، ج ٧، ص ١١٩.

(٢) القلقشندي. صبح الأعشى. ج ٥، ص ٤٣٨-٤٣٩.

وواجبات الرئيس في فحص الأطباء وامتحانهم، والمطالبة في إقصاء كل من لا يمتلك المؤهلات العلمية. وهذا لا يتم إلا بعد إجراء امتحان خاص بهم.^(١)

وكان مما جاء في هذا التوقيع قول القلقشندي بعد تسميته من يتولى رئاسة الطب: " فليباشر هذه الرياسة ناظرًا في مصالحها، مطلعًا من شهاب فضله ما يزين أفقها زينة السماء بمصاييحها، ومتفقدًا أحوال مباشريها، متملحًا أحوال المستقل بأعبائها والداخل فيها، سالكًا في ذلك سبيل من تقدمه من رؤسائها، حاكمًا في أمورها بما جرت به العادة المستقرة بين أكابرها وعلمائها، مطارحًا من قدمت هجرته فيها بما يقتضي له مراجعة أصوله، ملزمًا من ظهر قصوره فيها بالتدرب إلى حد لا يقنع منه بدون حصوله، مجيبًا في الإذن لمن أظهر الاستحقاق صدق ما ادعاه، قابلاً في الثبوت من مشايخ هذه الصناعة من لا يشهد إلا بما علمه ولا يخبر من التدرب إلا بما رآه ووعاه، متحريراً في الثبوت لدينه، آذنا بعد ذلك في التصرف إن ترقى علمه باستحقاقه إلى رتبة تعيينه، وليعط هذه الوظيفة حقها من تقديم المبرزين في علمها، وتكريم من منحه الله درجتي نقلها وفهمها، وتعليم من ليس عليه من أدواتها المعتبرة غير وسمها واسمها، ومنع من يتطرق من الطرقية إلى معالجة وهو عار من ردائها، وكف يد من يتهجم على النفوس فيما غمض من أدائها قبل تحقق دوائها، واعتبار التقوى فيمن يتصدى لهذه الوظيفة فإنها أحد أركانها، واختيار الأمانة فيمن يصلح للاطلاع على الأعضاء التي لولا الضرورة المبيحة حرم الوقوف على مكانها، وليكن في ذلك جميعه مجانبًا للهوى، ناويًا نفع الناس فإنما لكل امرئ ما نوى، والله تعالى يحقق له الأمل، ويسدده في القول والعمل، بمنه وكرمه."^(٢)

وكان يعاون رئيس الأطباء رؤوساء لفروع الطب المختلفة. من ذلك ما

(١) صبح الأعشى. ج ١١، ص ٣٧٧.٣٧١ ولأهمية هذين التوقيعين وحاجة الدراسة لكثير مما ورد فيهما رأيت مناسبة إرفاقهما ضمن ملاحق البحث.

(٢) القلقشندي. صبح الأعشى. ج ١١، ص ٣٧٧.٣٧٦.

ذكره القلقشندي أيضاً ضمن وظائف أرباب الصناعات بدمشق حيث قال: ومنها "رياسة الطب، ورياسة الكحالين، ورياسة الجرائحية وكلها على نحو ما تقدم في الديار المصرية وولاية كل منها بتوقيع كريم عن النائب".^(١)

وهي على النحو الآتي:

- رئيس الكحالين: وحكمه في الكلام على طائفة الكحالين حكم رئيس الأطباء في طائفة الأطباء.^(٢)

- رئيس الجرائحية: وحكمه في الكلام على طائفة الجرائحية و المجرين كالرئيسين المتقدمين.^(٣)

أما عدد الأطباء في البيمارستان فكان يتوقف على سعة البيمارستان، وسعة أوقافه.

❖ الوظائف الإدارية والفنية:

إضافة إلى الوظائف الإشرافية على البيمارستان، فإنه كان يشتمل على العديد من الوظائف الإدارية والمالية من مباشرين وأمناء ممن يقوم بوظائفه، وكان من ضمن الوظائف الإدارية والفنية التي تشير إليها مصادر العصر ما يأتي:

- مباشرو الإدارة:

وهؤلاء الذين يضبطون ما يُشترى من أصناف، ويتولون ضبط ما يدخل إلى البيمارستان وما يخرج منه خاصة، من غير أن يكون لهم تعلق في استخراج الأموال، وإنما يبتاعون الأصناف، ويحيلون بثمنها على ديوان صندوق المستخرج، ويكتبون في كل شهر عمل استحقاق لسائر أرباب الجامكيات والجرايات من سائر أرباب الوظائف والمباشرين، يكتبه العامل، ويكتب

(١) صبح الأعشى. ج٤، ص ٢٠٠.

(٢) القلقشندي. صبح الأعشى. ج٥، ص ٤٣٩.

(٣) القلقشندي. صبح الأعشى. ج٥، ص ٤٣٩.

عليه الشهود، ويأمر الناظر بصرفه، ويخلد في ديوان الصندوق، ويصرف على حكمه. وهذه الطائفة من المباشرين بالبيمارستان هم مباشرو الإدارة.^(١)

- مباشرو الصندوق:

وهم الذين إليهم يرجع تحرير جهات الأوقاف، واستخراج الأموال ومحاسبات المستأجرين، وصرف الأموال بمقتضى حوالة مباشري الإدارة، ومباشرة العمارة، وعمل الاستحقاق، لا يتصرفون في غير ذلك، كما لا يتصرف مباشرو الإدارة في صرف الأموال إلا حوالة بأوراقهم، أما العمارة فلها مباشرون يتفردون بها، من ابتياعه الأصناف واستعمال الصنائع وممرمة الأوقاف، وغير ذلك مما يدخل في وظيفتهم، وهم يحيلون بثمن الأصناف على الصندوق، كما يفعل في الإدارة، وينقل عليهم من الصندوق من المال ما يصرفونه لأرباب الأجر خاصة، ويكتبون في كل شهر عمل استحقاق بثمن الأصناف وأرباب الأجر، ويخصمونه بما أحالوا به على الصندوق، وما وصل إليهم من المال، ويسوقونه إلى قابض، وترفع كل طائفة من هؤلاء المباشرين حساباتهم، مياومة ومشاهرة ومساناة إلى الناظر والمستوفي.^(٢)

- ناظر الوقف:

هو المشرف على أوقاف البيمارستان ومتحصلها، ويرأس ناظر الوقف مجموعة من الموظفين الإداريين،^(٣) ويصرف له في كل شهر ستون درهماً وغرارة قمح، وغرارة شعير حسب ما حددته وقفية البيمارستان القيمري بدمشق.^(٤)

(١) النويري. نهاية الأرب. ج ٣١، ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٢) النويري. نهاية الأرب. ج ٣١، ص ١٠٩ - ١١٠.

(٣) محمد سيف النصر. منشآت الرعاية الاجتماعية. ص ٧٣.

(٤) كرد علي. خطط الشام. ج ٦، ص ١٥٨.

- المستوي:

وهو من يلي الناظر في الوظيفة، ومن أعماله مطالبة المستخدمين بما يجب عليهم دفعه من الحسابات في أوقاته، ويراجع ما يرد عليه من الحساب ويستوفيه، ويضبط إيرادات الدولة ومصروفاتها.^(١)

- الشاهدان:

والشاهد من الوظائف التي عُرفت في الأعمال الموقوفة عمومًا، وقد عرّفه ابن مماتي أنه الضابط لكل شيء مما هو شاهد فيه، وعليه أن يكتب الحساب الموافق لتعليقه.^(٢)

إنّ الأطباء لم يشغلوا بأعباء إدارية، بل ترك بعض العمل الإداري لشاهدين يحضران في كل يوم إلى المارستان ليصرفا ما يحتاج إليه المرضى بالمارستان ويضبطا مابه من الحواصل على عادة أمثالهما، وفي بيمارستان مكة فقد حدد الأشرف شعبان راتبهما معًا بمبلغ ألف درهم، أي أنّ كلاً منهما كان يتقاضى مبلغ خمس مئة درهم سنويًا أي نحو أربعين درهمًا شهريًا.^(٣)

- شيخ الأطباء:

هو الذي يُدرّس الطب ويكون من بين أطباء البيمارستان، ويخصص له الواقف عادةً مكانًا محددًا لإلقاء دروس الطب على طلبته،^(٤) وهذه الوظيفة الفنية وظيفية تعليمية تختلف عن الوظيفة الفنية لرئيس الأطباء.

(١) النويري. نهاية الأرب. ج ٣١، ص ١١٠ هامش (٢).

(٢) ابن مماتي، أسعد (ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م). كتاب قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سُوريال عطية. ط ١. القاهرة: مكتبة مدبولي. - ١٤١١هـ (١٩٩١م). ص ٣٠٤.

(٣) راشد القحطاني. أوقاف الأشرف شعبان. ص ١١٤.

(٤) محمد محمد أمين. الأوقاف. ص ١٧٠.

- أمين الحواصل:

هو الذي يفرق الطعام والشراب على المرضى بالمارستان، ولقد حددت وثيقة الأشرف شعبان أجره السنوي بمبلغ ثلاث مئة وستين درهماً أي بواقع ثلاثين درهماً شهرياً.^(١)

- خازن الأدوية:

الخازن هو محرز الشيء أو حافظه، وهنا يقصد به من يقوم بحفظ الأدوية والأشربة.^(٢)

وورد ذلك في وقفية قلاوون حيث جاء فيها: "... ويصرف الناظر في هذا الوقف ثمن سكر يصنعه أشربه مختلفة الأنواع، ومعاجين، وثمان ما يحتاج إليه لأجل ذلك من الفواكه والخماير، رسم الأشربة، وثمان ما يحتاج إليه من أصناف الأدوية والمعاجين والعقاقير والمراهم، والأكحال والشيافات، والذرورات والادهان، والسفوفات، والدريقات، والاقراص، وغير ذلك، يصنع كل صنف في وقته وأوانه، ويدخره تحت يده في أوعية معدة له، فإذا فرغ استعمل مثله من ريع هذا الوقف، ولا يصرف من ذلك لأحد شيئاً إلا بقدر حاجته إليه، ولا يزيد عليه، وذلك بحسب الزمان، وما تدعو الحاجة إليه بحسب الفصول وأوقات الاستعمال ...".^(٣)

- مباشر توزيع الأدوية والأشربة:

ويُعرف باسم خازن لمخزن حاصل التفرقة وهو الذي يكون مسؤولاً عن تفرقة الأدوية والأشربة والأكحال والأعشاب والمعاجين والأدهان والشيافات المأذون له في صرف ذلك حسب أوامر الأطباء فيسلمها بعد ذلك لشخص آخر

(١) راشد القحطاني. أوقاف الأشرف شعبان. ص ١١٣.

(٢) حسن الباشا. الفنون الإسلامية. ج ١، ص ٤٤٧.

(٣) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم ١٤.

يقوم بتوزيعها على المرضى، وعليه أن يتأكد من أن كل مريض تناول الدواء المصروف له.^(١)

ولقد رتب السلطان قلاوون رجلين اشترط فيهما الديانة والأمانة، يتولى أحدهما حفظ الأدوية والعقاقير، مسؤولاً عن صرف الأدوية حسب أوامر الأطباء، فيسلمها للرجل الثاني لتوزيعها على المرضى، وعليه أن يتأكد من أن كل مريض تناول الدواء الموصوف له، فنصت الوثيقة على أن "يصرف الناظر في هذا الوقت لرجلين مسلمين موصفين بالديانة والأمانة، يكون أحدهما خازن المخزن حاصل التفرقة يتولى تفرقة الأشربة والأكحال والأعشاب والمعاجين والأدهان والشياقات المأذون له في صرف ذلك من المباشرين، ويكون الآخر أميناً، يتسلم صبيحة كل يوم وعشيته أقداح الشراب المختصة بالمرضى والمختلين، من الرجال والنساء، المقيمين بهذا المارستان، ويفرق ذلك عليهم، ويباشر شرب كل منهم لما وصف له من ذلك".^(٢)

- سقاء المارستان:

لقد نصت وثيقة الأشرف شعبان على وجود سقاء يسقي الماء العذب للمرضى بالمارستان، وحددت أجره بمبلغ سبع مئة وستين درهماً، وقسمت هذا الأجر قسمين قسم عن المدة الأولى المعنية أعلاه، ولم يوضح ما يقصده بأعلاه، وإن كنا نرجح أنها مدة نهاية الحج وازدحام المارستان بالمرضى، فقد حدد لها ثلاث مئة درهماً، أما المدة الثانية وهي بقية السنة فجعل أجره أثناءها أربع مئة وستين درهماً.^(٣)

(١) محمد محمد أمين. الأوقاف. ص ١٦٦.

(٢) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم ١٤.

(٣) راشد القحطاني. أوقاف السلطان الأشرف شعبان. ص ١١٣.

- الفراشون (القومة):

وهم الذين يتولون أعمال النظافة وغسل ملابس المرضى، والقيام بمختلف مصالحتهم التي يحتاجون إليها، ونرى ذلك أنه عندما أنشأ قلاوون البيمارستان رتب فيه فراشين وفراشات لخدمة المرضى وإصلاح أماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم في الحمام، وقرر لهم على ذلك الجامكيات.^(١) وجاء في وقفية القيمري أنه يصرف إلى ثلاثة رجال يقوم لكل من الرجال في كل شهر ثلاثة عشر درهماً وسدس غرارة قمح، ولمن يقوم بمريضات النساء والمجنونات في كل شهر لكل واحدة عشرة دراهم وسدس غرارة قمح.^(٢) كما نصت وثيقة الأشرف شعبان على تعيين ثمانية من الفراشين والفراشات وحددت عملهم على أكمل وجه من وجوه الرعاية بالمرضى، فذكرت أنه: "على كل واحد من الفراشين من الرجال والنسوة أن يتعاهد من بإزائه من المرضى يقوم بمصالحتهم في شربهم وأكلهم وغسل ما يحصل منهم من الأوساخ وتنظيفهم وملازمتهم على العادة". ولم تكتف الوثيقة بإلزامهم بهذه الواجبات، بل ألقت عليهم واجباً أكبر من هذا وهو "أن يتقي كل منهم الله تعالى في ذلك ويعلم أنه رقيب عليه فيما هو لازم له من الخدمة".^(٣)

- البوابون:

وقد عرف البوابون بمعنى حراس الباب في جميع العصور الإسلامية، وهنا يقوم البواب بحراسة أبواب البيمارستان.^(٤) ويصرف له في كل شهر ثلاثة عشر درهماً وسدس غرارة قمح كما جاء في وقفية القيمري.^(٥) وكذلك لم يغفل السلطان شعبان ضرورة وجود بواب للمارستان لينظم الدخول إليه ويمنع أرباب الفساد أو التهم من الالتجاء إليه أو الاختفاء فيه إن ترك وشأنه، ولهذا نصت

(١) محمد محمد أمين. الأوقاف. ص ١٦٣.

(٢) كرد علي. خطط الشام. ج ٦، ص ١٥٨.

(٣) راشد القحطاني. أوقاف السلطان الأشرف شعبان. ص ١١٢-١١٣.

(٤) حسن الباشا. الفنون الإسلامية. ج ١، ص ٣٢٠.

(٥) كرد علي. خطط الشام. ج ٦، ص ١٥٨.

الوثيقة على أن يصرف للبواب في كل سنة ثلاثمائة وستون درهماً سنوياً بواقع ثلاثين درهماً شهرياً وحددت عمله بقولها: "على أن يتولى ما جرت به عادة أمثاله من غلق باب المارستان وفتحه وصونه عن أرباب التهم والفساد".^(١)

أما الوظائف الفنية فمن أهمها:

- الأطباء:

وأطباء البيمارستان غالباً ما يتكونون من ثلاث فئات هم: "الطبائعيون" وهم الذين يقومون بعلاج الأمراض الباطنية و"الجراحيون" وهم الذين يقومون بالعمليات الجراحية و"الكحالون" وهم المختصون بمعالجة أمراض العيون، فكان الأطباء يعالجون المرضى سواء كانوا مجتمعين أو متناوبين ويصفون لكل مريض ما يحتاج إليه من علاج وغذاء في دستور ورق ليصرف على حكمه،^(٢) وقد نصت وقفية القيمري أنه يصرف للطبيب في كل شهر سبعون درهماً ونصف غرارة من قمح، والأدنى ستون درهماً ونصف غرارة قمح، كما أفردت هذه الوقفية للكحال تقدير خاص حيث يصرف له في كل شهر خمسة وأربعون درهماً ونصف غرارة قمح.^(٣)

- الصيدلي:

هو المختص بعلم الأدوية، وطرق تركيبها، ويعمل تحت يديه القومة المشرفون والخدم، يساعده بهما يوجههم إليه من عمل في تقديم الأدوية إلى المرضى بالبيمارستان.^(٤) ويصرف له في كل شهر ستة وعشرون درهماً وثلث غرارة قمح حسب ما حددته وقفية القيمري.^(٥)

(١) راشد القحطاني. أوقاف السلطان الأشرف شعبان. ص ١١٣.

(٢) محمد محمد أمين. الأوقاف. ١٦٧.

(٣) كرد علي. خطط الشام. ج ٦، ص ١٥٨.

(٤) الديوه جي. الموجز. ٦٤.

(٥) كرد علي. خطط الشام. ج ٦، ص ١٥٨.

- المعمار:

وهو من يتولى عمارة البيمارستان وصيانته، وقد تقرر له من الرواتب ثلاثة عشر درهماً وسدس غرارة قمح حسب ما حددته وقفية القيمري.^(١)

❖ الرقابة الطبية والفنية:

الطب علم نظري وعملي، رغبّت الشريعة علمه وعمله، لما فيه من حفظ الصحة ودفع العلل والأمراض عن هذه البنية الشريفة، والطبيب هو العارف بتركيب البدن، ومزاج الأعضاء، والأمراض الحادثة فيها، وأسبابها وأعراضها وعلاماتها، والأدوية النافعة فيها، ويساوي بين الأمراض والأدوية في كمياتها، ويخالف بينها وبين كمياتها، فمن لم يكن كذلك فلا يحل له مداواة المرضى، ولا يجوز له الإقدام على علاج يُخاطر فيه.^(٢) لذا خضع الأطباء لرقابة المحتسبين وكذلك الصيادلة، كما عنى الفقهاء بتقنين مسؤوليات كل منهم والشرائط الواجب تحقيقها فيمن يتصدى لذلك وتحديد العقوبات والجزاءات اللازمة لردع الدخلاء والمشعوذين وقد صاغوا في ذلك كثيراً من القواعد والآراء التي تضمنتها كتب الفقه والحسبة، ولقد جاء في كتاب معالم القرية في أحكام الحسبة لابن الأخوة نص مخصوص بالأطباء وصناعتهم إذ يذكر ابن الأخوة أنه: "ينبغي للمحتسب أن يأخذ عليهم عهد أبقرات^(٣) الذي أخذه على سائر الأطباء ويحلفهم أن لا يعطوا أحداً دواءً مضراً

(١) كرد علي. خطط الشام. ج ٦، ص ١٥٨.

(٢) ابن الأخوة، محمد بن محمد القرشي (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٩م). معالم القرية في أحكام الحسبة، نقله وصححه روبن ليوي. القاهرة: مكتبة المتنبى (د. ت). ص ١٦٥-١٦٦.

(٣) أبقرات: من أشهر علماء الطب اليونانيين وهو أبقرات بن إيرأ قليدس بن أبقرات وينتهي نسبه إلى أحد ملوك اليونان، وقد تعلم صناعة الطب من أبيه إيرأ قليدس ومن جده أبقرات، وقد ولد أبقرات في مدينة قو وهي إحدى مدن جزر بحر إيجه سنة (٤٦٠ ق. م) وكانت مدة حياته خمساً وتسعين سنة قضاهما بين التعلم والتعليم، وكان يتردد بين رودس وقنيدس ومدينة قو، وقد ترك أبقرات آثاراً جلييلة في الطب، وصنّف كتباً طبية كثيرة، اشتهر منها اثنا عشر كتاباً أصبحت مراجع مهمة لمن درسوا الطب بعده (النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق (ت ٤٣٨هـ/١٠٤٦م). الفهرست، تحقيق ناهد عباس عثمان. الدوحة: دار قطري بن الفجاءة. -٤٠٥هـ [١٩٨٥م]. ص ٥٧٥، ٥٧٦).

ولا يركبوا له سمًّا ولا يصفوا سمًّا عند أحد من العامة، ولا يذكرها للنساء
الدواء الذي يُسقط الأجنة، ولا للرجال الذي يقطع النسل، وليغضوا أبصارهم
عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولا يفتشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار،
ولا يتعرضوا لما يُنكر عليهم فيه".^(١)

وأما الكحالون " فيمتحنهم المحتسب بكتاب حنين بن إسحق أعني العشر
مقالات في العين فمن وجده قيماً فيما امتحنه به عارفاً بتشريح طبقات العين
وعدد السبعة وعدد رطوبتها الثلاثة وعدد أمراضها الثلاثة وما يتفرع من ذلك
من الأمراض وكان خبيراً بتركيب الأكحال وأمزجة العقاقير أذن له
المحتسب بالتصدى لمداواة أعين الناس ولا ينبغي أن يفرط في شيء من آلات
صنعتة مثل صنابير السبل والظفر ومباضع الفصد ودرج المكاحل وغير ذلك،
وأما كحّالو الطرقات فلا يوثق بأكثرهم إذ لا دين لهم ويصدّهم عن التهجّم
على أعين الناس بالبضع والكحل بغير علم ومخبرة بالأمراض والعلل الحادثة
ولا ينبغي لأحد أن يركن إليهم في معالجة عينيه ولا يثق بأكحّالهم وأشيافهم
فإنّ منهم من يصنع أشيافاً أصلها النشا والصمغ ويصبغها ألواناً مختلفةً فيصبغ
الأحمر بالسيلقون والأخضر بالكركم والنيل والأسود بالقاقيا والأصفر
بالزعفران ومنهم من يجعل أشيافاً من ماميثا ويعجنه بالصمغ ومنهم من يجعل
كحلاً من نوى الإهليلج المحروق والفلفل وجميع غشوش أكحّالهم لا يمكن
حصرها فيحلفهم المحتسب على ذلك إذ لا يمكنه منعهم من الجلوس لمعالجة
أعين الناس".^(٢)

(١) ابن الأخوة. معالم القرية. ص ١٦٧-١٦٨.

(٢) ابن الأخوة. معالم القرية. ص ١٦٨-١٦٩.

وأما بالنسبة للجراحين " فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس^(١) المعروف بقاطا جانس في الجراحات والمراهم وان يعرفوا التشريح وأعضاء الإنسان وما فيه من العضل والعروق والشرابين والأعصاب ليجتنب ذلك في وقت فتح المواد وقطع البواسير وأن يكون معه دست المباحع فيه مباحع مدورات الرأس والمؤرّبات والحربات وفأس الجبهة ومنشار القطع ومخرقة الأذن وورد السلع ومرهمدان المراهم ودواء الكندر القاطع للدم، ومنهم من يهرّجون على الناس بعظام تكون معهم فيدفنونها في الجرح؛ ثم يخرجونها بمحضر من الناس ويزعمون أن أدويتهم القاطعة أخرجتها ومنهم من يصنع مراهم من الكلس المغسول بالزيت؛ ثم يصبغ لونه أحمر بالمغرة وأخضر بالكركم والنيل والأسود بالفحم المسحوق، فيعتبر عليهم ذلك".^(٢)

وأيضاً يقوم المحتسب بتفقد حالة المرضى ودرجة العناية بهم ويتحقق من صحة العلاجات وعدم غشها، وكان من يخالف القواعد العامة أو يغش يتعرض لعقاب صارم، فإن كان طبيباً أو صيدلياً طرد ومنع من مزاوله المهنة، وربما تعرض المخالف للإقامة عليه وجلده.

ولقد اهتم المحتسبون بمراقبة الصيادلة أيضاً وتدقيقهم في تركيب الأدوية ودوام مراقبتهم والتدقيق فيمن يسمح لهم بممارسة المهنة فيؤكد الشيزري بأنه "تدليس هذا الباب والذي بعده كثير، لا يمكن حصر معرفته على التمام.

(١) جالينوس: يوناني عاش في العصر الروماني، ويعد آخر الأطباء اليونانيين الكبار، وهو الثامن منهم، ولد في برغامون (تقع حالياً شمال أزمير في تركيا) سنة ١٣١م، وجمع آثار أبقراط في الطب وحفظها من الضياع، وشرح أفكار سابقه من الأطباء اليونانيين، وكانت وفاته سنة (٢٠٠م) بعد أن طاف في آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين والإسكندرية؛ ثم عاد إلى مسقط رأسه واشتغل فيها أربع سنوات طبيباً؛ ثم سافر إلى روما واشتهر فيها طبيباً. وجراحاً وله مصنفات في الطب كثيرة جداً اعتمد عليها من جاء بعده من الأطباء. (ابن جُلجُل، سليمان بن حسان الأندلسي) (ت بعد سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م). طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد السيد. ط٢. بيروت: مؤسسة الرسالة. ١٤٠٥هـ [١٩٨٥م]. ص ٤١-٤٤.

(٢) ابن الأخوة. معالم القرية. ص ١٦٩.

فرحم الله من نظر فيه، وعرف استخراج غشوشه، فكتبها في حواشيه تقريباً إلى الله تعالى، فهي أضر على الخلق من غيرها لأن العقاقير والأشربة مختلفة الطبائع والأمزجة، والتداوي على قدر أمزجتها. فمنها ما يصلح لمرض ومزاج، فإذا أضيف إليها غيرها أحرفها عن مزاجها فأضرت بالمريض لامحالة فالواجب على الصيادلة أن يراقبوا الله عز وجل في ذلك، وينبغي للمحتسب أن يخوفهم ويعظّمهم وينذرهم العقوبة والتعزير، ويعتبر عليهم عقاقيرهم في كل أسبوع".^(١)

وكان الصيادلة، كالأطباء يخضعون لامتحان يجريه عليهم رئيس الأطباء، وكان المحتسب يقوم بدور المشرف على هذه الامتحانات، إلى جانب تقويمه أعمال الصيادلة ومراقبة الصيدليات.^(٢)

وكما خضع الأطباء والصيادلة للمراقبة من قبل المحتسب، فقد خضعت الخدمات والمرافق المتصلة بالبيمارستان للمراقبة من خلال ناظر البيمارستانات لما يتمتع به من أحقيه في رئاسته جميع العاملين بالبيمارستان وماله من حرية التصرف في كثير من الأمور، ولقد كان كثير من سلاطين المماليك كالسلطان حسن (٧٤٨-٧٥٢هـ / ١٣٤٧-١٣٥١م) والسلطان الأشرف شعبان والسلطان محمد بن قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ / ١٤٦٨-١٤٩٥م) يترددون على البيمارستان ويتفقدون أحوال المرضى، وكانوا يصرفون المكافآت للأطباء والعاملين، كما كان الأمير جمال الدين آقوش الأشرفي في أثناء توليته نظر البيمارستان المنصوري، يُحسن إلى المرضى، ويتفقد أحوالهم، ويتكّر ويدخل إليهم قبل الفجر، ويسأل الضعفاء عن سائر أحوالهم حتى عن الفراش والطبيب، وأنه كان يدخل إلى مارستان المجانين، ويباشر أحوالهم بنفسه، ويتحدّث معهم، ولا يغفل عن مصلحة تتعلّق بمباشرتهم.^(٣)

(١) نهاية الرتبة. ص ٤٢.

(٢) حنيفة الخطيب. الطب عند العرب. بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع. (١٩٨٨م)، ص ٢٨٢.

(٣) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ٩٥.

وكما حظي انتظام العمل بالبيمارستان باهتمام السلاطين، فقد اهتموا باختيار نظام البيمارستان ومباشره ومراقبتهم ولم يترددوا في خلعهما إذا ما أساءوا التصرف فقد خلع السلطان حسن ناظر البيمارستان ابن الأطروش^(١) ولم يقبل فيه شفاة بعد أن كان قد أعاده مرة ولما كثرت الشكاية منه أمر السلطان نائب السلطنة بالكشف على البيمارستان واستقصاء أحوال المرضى به فثبت له أن ابن الأطروش أساء التصرف إذ إن فرش المرضى قد تلفت وأنها لم تجدد منذ ثلاث سنوات فرفع ذلك إلى السلطان فلم يقبل فيه وساطة وصرفه عن نظر البيمارستان وعين بدلاً منه الضياء يوسف الشامي في نظر البيمارستان وحسبة القاهرة وذلك في محرم عام ٧٥٢هـ (١٣٥١م).^(٢)

❖ شروط وصفات الطبيب:

كان الطب عند المسلمين في كثير من عصورهم صناعة نبيلة لا يسمح بتعاطيها إلا لمن حصل على خبرة واسعة في الطب، وأعد لذلك إعداداً علمياً، وخلقياً، يكفل عنايته بالناس، وتطبيبهم والاطلاع على أسرارهم المتعلقة بحاضر صحتهم، ولقد اشترط الحكام العرب على محترف المهنة الطبية أن يكون عالماً محيطاً بجميع العلوم التي لها صلة قريبة أو بعيدة في الطب.^(٣) أما بالنسبة للأطباء فإن لهم شروطاً وصفات لا بد أن يتحلوا بها وسوف أجمالها بالآتي:

يجب أن يكون الطبيب طلق الوجه، جميل المنظر، حسن الهيئة، كامل الخلق، نظيف الثياب، طيب الرائحة، يسر الناظر إليه، عفيف النظر، سليم

(١) هو علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الأطروش الحنفي، محتسب القاهرة، وقاضي العسكر، وكان فيه كرم، وهو معدود من رجال الدنيا، وله منازعات مع الضياء الشامي في نظر المارستان وحسبة القاهرة، وكان يلي هذا مرة وهذا مرة، وولى أولاً حسبة دمشق وتوفي سنة ٧٥٨هـ (١٣٥٦م). (المقريزي. السلوك. ج. ٤، ص ٢٣٣).

(٢) المقريزي. السلوك. ج. ٤، ص ١٣٣-١٣٤.

(٣) حنيفة الخطيب. الطب عند العرب. ص ٤٩.

القلب، صادق اللهجة، وأن يكون جيد التصوير، قوي الحدس والتخمين، صبوراً على التعب و النصب في درك الحق من الأمور، متحملاً ما يسمعه من المريض، متمسكا بدينه، واقفا عند حدود الله، يعالج الناس كلهم سواء، لا فرق بين الغني والفقير، صادقاً في قوله وفعله وشهادته، ويجب أن يكون مترفعاً عن المال، يكون طبه لخدمة المجتمع وتخفيف آلامه، لا يقبل الارتشاء، ولا يجعل من دوائه شراً ما، ينوي الخير للناس كافة ويعلم أنه وسيلة للشفاء، وأن الله واهب الحياة، هو الشافي وحده ولا يدعي الفضل فيما يوفقه الله إليه، يطب بما يعلمه، ويتجنب ما لا يعلمه، وإذا كان غير عارف بدوائه أن لا يكتب شيئاً من الأدوية لما في ذلك من إضاعة المال وضرر المريض، وأن يكون ملازماً للمطالعة والتتبع، يجرب ما يذكره من تقدمه من الأطباء ومعاصريه، يدون ملاحظاته وما قام به من تجارب، ليستفيد منها غيره، وعليه أن ينصرف ما أمكنه في البحث والتتبع، وهو ما يوجبه عليه عمله، وأن يكون دستوره "وقل رب زدني علماً"، وإذا عسر عليه أمر، رجع إلى أساتذته ومشائخه واستشارهم، يلبي داعي المريض في أي وقت، ويدقق أعراض مرضه في كل ما يعرض له، ويسأل المريض عن مرضه ونومه وطعامه وما يرتاح له، التخفيف عن المريض بكلام طيب ووجه باش، ويبعث في نفس المريض الأمل في شفاؤه.⁽¹⁾

والطبيب الحاذق في نظر العلامة ابن القيم هو الذي يراعى في علاجه عشرين أمراً:

- أولها: النظر في نوع المرض من أي الأمراض هو ؟.
- الثاني: النظر في سببه من أي شيء حدث، والعلّة الفاعلة التي كانت سبب حدوثه ما هي ؟

(1) الديوه جي. الموجز. ص ٩٣.

- الثالث: قوة المريض، وهل هي مقاومة للمرض، أو أضعفُ منه؟ فإن كانت مقاومةً للمرض، مستظهرةً عليه، تركها والمريض، ولم يُحرِّكُ بالدواء ساكنًا.
- الرابع: مزاج البدن الطبيعي ما هو؟
- الخامس: المزاجُ الحادثُ على غير المجرى الطبيعي.
- السادس: سببُ المريض.
- السابع: عاداته.
- الثامن: الوقت الحاضر من فصول السنة وما يليق به.
- التاسع: بلدُ المريض وتربُّته.
- العاشر: حال الهواء في وقت المرض.
- الحادي عشر: النظر في الدواء المضاد لتلك العلة.
- الثاني عشر: النظر في قوة الدواء ودرجته، والموازنة بينها وبين قوة المريض.
- الثالث عشر: ألا يكون كلُّ قصده إزالة تلك العلة فقط، بل إزالتها على وجهٍ يأمن معه حدوث أصعبٍ منها، فمتى كان إزالتها لا يأمن معها حدوث علةٍ أخرى أصعبٍ منها، أبقاها على حالها، وتلطيفها هو الواجب، وهذا كمرض أفواه العروق، فإنه متى عُولج بقطعه وحبسه خيف حدوث ما هو أصعبُ منه.
- الرابع عشر: أن يُعالج بالأسهل فالأسهل، فلا يَنْتَقِلُ من العلاج بالغذاء إلى الدواء إلا عند تعذُّره، ولا يَنْتَقِلُ إلى الدواء المركَّب إلا عند تعذرِ الدواء البسيط، فمن حذق الطيب علاجُه بالأغذية بدل الأدوية، وبالأدوية البسيطة بدل المركبة.

- الخامس عشر: أن ينظر في العلة، هل هي مما يمكن علاجها أو لا ؟ فإن لم يمكن علاجها، حفظ صناعته وحرمة، ولا يحملها الطمع على علاج لا يفيد شيئاً. وإن أمكن علاجها، نظر هل يمكن زوالها أم لا ؟ فإن علم أنه لا يمكن زوالها، نظر هل يمكن تخفيفها وتقليلها أم لا ؟ فإن لم يمكن تقليلها، ورأى أن غاية الإمكان إيقافها وقطع زيادتها، قصد بالعلاج ذلك، وأعان القوة، وأضعف المادة
- السادس عشر: ألا يتعرض للخلط قبل نضجه باستفراغ، بل يقصد إنضاجه، فإذا تم نضجه، بادر إلى استفراغه.
- السابع عشر: أن يكون له خبرة باعتلال القلوب والأرواح وأدويتها، وذلك أصل عظيم في علاج الأبدان، فإن انفعال البدن وطبيعته عن النفس والقلب أمر مشهود، والطبيب إذا كان عارفاً بأمراض القلب والروح وعلاجهما، كان هو الطبيب الكامل، والذي لا خبرة له بذلك وإن كان حاذقاً في علاج الطبيعة وأحوال البدن نصف طبيب. وكل طبيب لا يداوى العليل، بتفقد قلبه وصلاحه، وتقوية روحه وقواه بالصدقة، وفعل الخير، والإحسان، والإقبال على الله والدار الآخرة، فليس بطبيب، بل متطبب قاصر. ومن أعظم علاجات المرض فعل الخير والإحسان والذكر والدعاء، والتضرع والابتهال إلى الله، والتوبة، ولهذه الأمور تأثير في دفع العلل، وحصول الشفاء أعظم من الأدوية الطبيعية، ولكن بحسب استعداد النفس وقبولها وعقيدتها في ذلك ونفعه.
- الثامن عشر: التلطف بالمريض، والرّفق به، كالتلطف بالصبي.
- التاسع عشر: أن يستعمل أنواع العلاجات الطبيعية والإلهية، والعلاج بالتخييل، فإن لحدّاق الأطباء في التخييل أموراً عجيبة لا يصل إليها الدواء، فالطبيب الحاذق يستعين على المرض بكل معين.

○ العشرون: وهو ملاك أمر الطبيب أن يجعل علاجه وتديبره دائراً على سبب أركان: حفظ الصحة الموجودة، وردّ الصحة المفقودة بحسب الإمكان، وإزالة العلة أو تقليلها بحسب الإمكان، واحتمال أدنى المفسدتين لإزالة أعظمهما، وتفويت أدنى المصلحتين لتحقيق أعظمهما، فعلى هذه الأصول السبب مدارّ العلاج، وكلّ طبيب لا تكون هذه أخيه التي يرجع إليها، فليس بطبيب.. والله أعلم.^(١)

ومن صفات الطبيب أن يكون لديه آلات الطب على الكمال، والتي يستخدمها في كثير من الحالات وهي كلبات الأضراس ومكاوي الطحال وكلبات العلق وزرّاقات القولنج وزرّاقات الذكر وملزم البواسير ومخرط المناخير ومنخل البواسير وقالب التشمير ورساص التثقيب ومفتاح الرحم وبوار النساء ومكمدة الحشاء وقدح الشوصة وغير ذلك مما يحتاج إليه في صناعة الطب.^(٢)

أما الصفات التي يجب أن يتحلّى بها الطبيب حسبما ذكرها أبقراط فهي عشرة:

□ أولاً: يجب أن يكون الطبيب عارفاً بالله خائفاً منه معتقداً لأمر المعاد والثواب والعقاب، حتى يكون إيمانه بالله وبالمعاد داعياً له إلى أفعال الخير وناهياً له عن مواقع الضرر، فإن الطبيب متصرف في الأرواح، فإن لم يكن كذلك لم يجز الاعتماد عليه.

(١) ابن القيم. أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن القيم الجوزية (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م). الطب النبوي، مراجعة وتعليق: عبد الغني عبد الخالق، ط ٢، بيروت: دار القلم. (١٩٨٤م) ص ١١٩-١٢١.

(٢) ابن الأخوة. معالم القرية. ص ١٦٨ (حاشية رقم ١).

- ثانياً: يجب أن يحمدوا معلمهم ويشكروهم على ما أفادوهم من العلوم ويكثروا برهم كما يكثرون بر آبائهم، فكما أن الأبوين كانا سبب كونه، فكذلك معلموهم كانوا سبب شرفه ونباهته.
- ثالثاً: يجب أن لا يبخلوا على من أراد أن يتعلم هذه الصناعة من المستحقين لها، ولا يطلبون منهم جزاءً على ذلك التعليم.
- رابعاً: يجب أن يجتهد الطبيب في مداواة المرضى وحسن تدريبهم بالأغذية والأشربة، ولا يكون غرضه في مداواتهم طلب المال، لكن طلب الآخرة والثواب، وإن أمكنه أن يتخذ لهم الأدوية من ماله فليفعل، وإن عجز عن ذلك وصفه لهم وراعاهم غدوة وعشية إن كان المرض حاداً، لأن المرض الحاد سريع التغير من حال إلى حال.
- خامساً: لا يعطي لأحد دواءً قتالاً ولا يصفه ولا يدل عليه ولا ينطق به ولا يدفع إلى النساء دواءً لإسقاط الأجنة ولا يذكره لأحد.
- سادساً: لا ينبغي أن يفشي سر المريض ولا يطلع عليه غيره لا قريباً ولا بعيداً، فإن كثيراً من المرضى يعرض لهم علل يكتُمونها عن آبائهم وأهليهم ويذكرونها للطبيب بمنزلة أمراض الرحم والبواسير.
- سابعاً: يجب أن يكون الطبيب لطيف الكلام طلق الوجه حريصاً على المداواة، وأن لا يتكبر على الفقير ولا يمتنع عن استماع كلامه ولا يفرق في المداواة بين الغني والفقير.

- ثامناً: لا ينبغي للطبيب أن يكون مشتغلاً بالتلذذ والتنعم ولا أن يستكثر من شرب النبيذ، فإن ذلك مما يضر بالدماغ ويملؤه فضولاً ويفسد الذهن.
- تاسعاً: يجب أن يكون أكثر اشتغاله بقراءة الكتب ويلزم نفسه حفظ ما قرأه، ويجب أن يكون ملازماً للممارسات ومواضع المرضى، كثير المزاولة لأموورهم وأحوالهم مع الأساتيد والحدائق من الأطباء، كثير التفقد لأحوالهم، مستذكراً لما قرأه في الكتب من تلك الأحوال، فإنه إذا فعل ذلك كانت معالجته قريبه من الصواب.
- عاشراً: يجب أن لا يأنف من المشورة وأخذ رأي من هو أفضل منه، وإذا دخل على مريض مع عدّة من الأطباء فإن أشار غيره إلى الحق أقر له، وإن أشار إلى ما ليس بحق لم يخجله، بل تمهد له عذراً وذلك أن يقول: الذي ذكر قول بعض الناس، ولكني أوتر أن يكون العلاج كذا وكذا، فإن لاجه الناقص عرفه الخطأ برفق، فإن لم يقبل ولاجه وخشي جانيته على المريض بين للمريض ولأوليائه موضع الخطأ.^(١)

❖ المسؤولية الطبية:

المسؤولية الطبية أو ضمان الطبيب كما تعرف لم تكن وليدة تنظيمات الحضارة الإسلامية فحسب، بل عرفت عند كثير من الأمم القديمة، حيث عرفوا كثيراً من الآداب والسلوك المتصلة بعلم الطب، ومن ذلك مسؤولية

(١) الشيرازي، قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي. في بيان الحاجة إلى الطب والأطباء ووصاياهم، تحقيق محمد فؤاد الذاكري. ط١. الإمارات العربية المتحدة. مركز زايد للتراث والتاريخ. -١٤٢١هـ (٢٠٠١م). ص١٣١-١٣٣.

الضرر الذي يصيب الغير نتيجة ممارسة عمل أو علمٍ دون إجادة وخبرة، أو مخالفة لأصول صنعته، أو ما ينتج عن ممارسة غير المأذون له في الطبِّ مهام الطبيب وأدواره.

من هذا المنطلق فقد اهتم المسلمون بتحقيق مبدأ المسؤولية والمأخوذية عندما طبّقوا نظام الحسبة والرقابة على المهنة، حيث كان من واجبات المحتسب أن ينظر في أعمال الأطباء والصيادلة والكحالين والفسادين... إلخ، فكان لزاماً على المحتسب أن يعرف مستواهم العلمي والتطبيقي، وكيفية ممارستهم للمهنة، وهل فيها خلل أو غبن لغيرهم، أو احتمال ضرر فيمنعه قبل وقوعه.^(١)

أما عن أصل هذه المسؤولية في الشريعة الإسلامية، فيكفي أن نورد الحديثين الشريفين اللذين وردا في سنن أبي داود مرفوعاً إلى النبي ﷺ بقوله: " من تطبّب ولم يعلم منه طبٌّ فهو ضامن".^(٢) والحديث الآخر: " أيما طبيب تطبّب على قوم لا يُعرف له تطبّب قبل ذلك فأعنت فهو ضامن".^(٣)

وقد صنّف ابن القيم في الطب النبوي الأطباء أقساماً خمسة وبين أحكام كل صنف من حيث المأخوذية وفق الآتي:

"القسم الأول: طبيب حاذق أعطى الصنعة حقّها ولم تجن يده، فتولّد من فعله المأذون فيه من جهة الشارع، ومن جهة مَنْ يطبّه تلفُ العضو أو النفس، أو ذهابُ صفةٍ، فهذا لا ضمان عليه اتفاقاً، فإنها سرّاية مأذونٍ فيه، وهذا كما

(١) محمد علي البار. المسؤولية الطبية وأخلاقيات الطبيب ضمان الطبيب وإذن المريض، ط ١. جدة: دار المنارة للنشر والتوزيع. ١٤١٦هـ (١٩٩٥م). ص ٣٥.

(٢) أبو داود، الإمام سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م). سنن أبي داود. إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس وعابد السيّد. - بيروت: دار ابن حزم. - ١٤١٨هـ (١٩٩٧م). كتاب الديات. - باب من تطبّب.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الديات باب من تطبّب. وأعنت أي قطع عرقاً.

إذا خَتَنَ الصَّبِيُّ فِي وَقْتِ، وَسِنَّهُ قَابِلٌ لِلخِتَانِ، وَأَعْطَى الصَّنْعَةَ حَقَّهَا، فَتَلَفَ العَضْوُ أَوْ الصَّبِيُّ، لَمْ يَضْمَنْ، وَكَذَلِكَ إِذَا بَطَّ مِنْ عَاقِلٍ أَوْ غَيْرِهِ مَا يَنْبَغِي بَطُّهُ فِي وَقْتِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي فَتَلَفَ بِهِ، لَمْ يَضْمَنْ، وَهَكَذَا سِرَايَةٌ كُلُّ مَأْذُونٍ فِيهِ لَمْ يَتَعَدَّ الْفَاعِلُ فِي سَبَبِهَا، كَسِرَايَةِ الْحَدِّ بِالِاتِّفَاقِ. وَسِرَايَةُ الْقِصَاصِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ فِي إِجَابَةِ الضَّمَانِ بِهَا، وَسِرَايَةُ التَّعْزِيرِ، وَضَرْبُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَالْمُعْلَمُ الصَّبِيُّ، وَالْمُسْتَأْجِرُ الدَّابَّةَ، خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ فِي إِجَابَتِهِمَا الضَّمَانَ فِي ذَلِكَ، وَاسْتَثْنَى الشَّافِعِيُّ ضَرْبَ الدَّابَّةِ. وَقَاعِدَةُ الْبَابِ إِجْمَاعًا وَنِزَاعًا: أَنَّ سِرَايَةَ الْجَنَايَةِ مَضْمُونَةٌ بِالِاتِّفَاقِ، وَسِرَايَةُ الْوَاجِبِ مُهْدَرَةٌ بِالِاتِّفَاقِ، وَمَا بَيْنَهُمَا فِيهِ النِّزَاعُ. فَأَبُو حَنِيفَةَ أَوْجَبَ ضَمَانَهُ مَطْلَقًا، وَأَحْمَدُ وَمَالِكٌ أَهْدَرَا ضَمَانَهُ، وَفَرَّقَ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ الْمُقَدَّرِ، فَأَهْدَرَ ضَمَانَهُ، وَبَيْنَ غَيْرِ الْمُقَدَّرِ فَأَوْجَبَ ضَمَانَهُ. فَأَبُو حَنِيفَةَ نَظَرَ إِلَى أَنَّ الْإِذْنَ فِي الْفِعْلِ إِنَّمَا وَقَعَ مَشْرُوطًا بِالسَّلَامَةِ، وَأَحْمَدُ وَمَالِكٌ نَظَرَا إِلَى أَنَّ الْإِذْنَ أَسْقَطَ الضَّمَانَ، وَالشَّافِعِيُّ نَظَرَ إِلَى أَنَّ الْمُقَدَّرَ لَا يُمْكِنُ النِّقْصَانُ مِنْهُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ النَّصِّ، وَأَمَّا غَيْرُ الْمُقَدَّرِ كَالْتَّعْزِيرَاتِ، وَالتَّأْدِيبَاتِ فَاجْتِهَادِيَّةٌ، فَإِذَا تَلَفَ بِهَا، ضَمِنْ، لِأَنَّهُ فِي مَطْنَةِ الْعُدْوَانِ.

القِسْمُ الثَّانِي: مُتَطَبِّبٌ جَاهِلٌ بَاشَرَتْ يَدُهُ مَنْ يَطْبُهُ، فَتَلَفَ بِهِ، فَهَذَا إِنْ عِلْمُ الْمُجْنِيِّ عَلَيْهِ أَنَّهُ جَاهِلٌ لَا عِلْمَ لَهُ، وَأَذِنَ لَهُ فِي طَبِّهِ لَمْ يَضْمِنْ، وَلَا تُخَالَفُ هَذِهِ الصُّورَةُ ظَاهِرَ الْحَدِيثِ، فَإِنَّ السِّيَاقَ وَقُوَّةَ الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ غَرَّ الْعَلِيلَ، وَأَوْهَمَهُ أَنَّهُ طَبِيبٌ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَإِنْ ظَنَّ الْمَرِيضُ أَنَّهُ طَبِيبٌ، وَأَذِنَ لَهُ فِي طَبِّهِ لِأَجْلِ مَعْرِفَتِهِ، ضَمِنْ الطَّبِيبُ مَا جَنَّتْ يَدُهُ، وَكَذَلِكَ إِنْ وَصَفَ لَهُ دَوَاءً يَسْتَعْمَلُهُ، وَالْعَلِيلُ يَظُنُّ أَنَّهُ وَصَفَهُ لِمَعْرِفَتِهِ وَحَدِّقَهُ فَتَلَفَ بِهِ، ضَمِنْهُ، وَالْحَدِيثُ ظَاهِرٌ فِيهِ أَوْ صَرِيحٌ.

القِسْمُ الثَّلَاثُ: طَبِيبٌ حَازِقٌ، أَدْنَى لَهُ، وَأَعْطَى الصَّنْعَةَ حَقَّهَا، لَكِنَّهُ أَخْطَأَتْ يَدُهُ، وَتَعَدَّتْ إِلَى عَضْوٍ صَحِيحٍ فَأَتْلَفَهُ، مِثْلُ: أَنْ سَبَقَتْ يَدُ الْخَاتَنِ إِلَى

الكَمَرَةَ، فهذا يضمن، لأنها جنايةٌ خطأ؛ ثم إن كانت التُّلثُ فما زاد، فهو على عاقلته، فإن لم تكن عاقلةً، فهل تكون الدية في ماله، أو في بيت المال؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد. وقيل: إن كان الطبيب ذمياً، ففي ماله؛ وإن كان مسلماً، ففيه الروايتان، فإن لم يكن بيتُ المال، أو تعدّر تحميلة، فهل تسقط الدية، أو تجب في مال الجاني؟ فيه وجهان أشهرهما: سقوطها.

القسم الرابع: الطبيبُ الحاذقُ الماهر بصناعته، اجتهد فوصف للمريض دواءً، فأخطأ في اجتهاده، فقتله، فهذا يُخرَجُ على روايتين؛ إحداهما: أن دية المريض في بيت المال. والثانية: أنها على عاقلة الطبيب، وقد نص عليهما الإمام أحمد في خطأ الإمام والحاكم.

القسم الخامس: طبيبٌ حاذق، أعطى الصنعةَ حقها، فقطع سلعةً من رجل أو صبي، أو مجنون بغير إذنه، أو إذن وليه، أو حَتَنَ صبياً بغير إذن وليه فتَلَفَ، فقال أصحابنا: يضمن، لأنه تولد من فعل غير مأذون فيه، وإن أذن له البالغ، أو وليُّ الصبي والمجنون، لم يضمن، ويحتملُ أن لا يضمن مطلقاً لأنه محسنٌ، وما على المحسنين من سبيل. وأيضاً فإنه إن كان متعدياً، فلا أثر لإذن الولي في إسقاط الضمان، وإن لم يكن متعدياً، فلا وجه لضمانه^(١).

وقد شدّد الإسلام بذلك على مسؤولية الفرد ومسؤولية الجماعة في عمل يمسّ أرواح البشر قبل ممارسة الطب، إلا أن الفقهاء لم يستخدموا لفظ المسؤولية مع ورود أدلتها في الكتاب والسنة حيث استخدم الإمام الشافعي رحمه الله عن الطبيب الحاذق الذي لم تخطئ يده، ولكن مات العليل: " فلا عقل - أي لا دية - ولا مأخوذية إن حسنت نيته لله تعالى"^(٢).

وحديثاً قسم محمد علي البار المسؤولية الطبية إلى قسمين:

أولهما: المسؤولية الأخلاقية الأدبية والجنائية:

(١) الطب النبوي، ص ١١٦-١١٨.

(٢) الشافعي، الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس (ت ٢٠٤هـ / ٨١٩م) كتاب الأم، بولاق.

١٣٢١هـ. ج ٦، ص ١٦٨.

وهي متعلقة بسلوك الطبيب والهيئة الطبية من ممرضين وفنيين ومن أمثلتها قضايا الغش والكذب والتزوير في الشهادات والتقارير الطبية لمصلحة مريض معين أو ضده تبعاً للمصالح الشخصية التي سيحصل عليها من يكتب هذه التقارير الطبية، ومن أمثلتها إجراء عملية جراحية مثل الزائدة الدودية لشخص لا يعاني من التهاب الزائدة، ويجريها الطبيب طلباً للكسب،

ثانيهما: المسؤولية المهنية.

هي التي يسأل الطبيب والهيئة الطبية عن الأضرار الناتجة عن الجهل أو الخطأ. أما العمد فعقوبته أشد وعقوبته كعقوبة أي معتدي آخر وعليه القصاص.^(١)



(١) المسؤولية الطبية، ص ١٠٤-١٠٥.

المبحث الثاني / المالية:

❖ حقوق الأطباء وأجورهم:

كان للأطباء على وجه العموم من لدن الخلفاء والملوك والأمراء، الإحسان الكبير والأفضال الغزيرة، والجامكيات الوافرة والصلوات المتواترة، حتى بلغ بعض الأطباء من حسن الحال ورغد العيش إلى درجة عظيمة. فكان للأطباء بالمارستان على العموم جامكية خمسة عشر ديناراً وكان لبعضهم رزقان أي ثلاثون ديناراً في كل شهر لعملين مختلفين، وكان لعز الدين بن السويدي جامكية في أربع جهات في البيمارستان النوري وفي بيمارستان باب البريد في دمشق ولتردد على قلعة دمشق ولتدريسه في مدرسة الدخوارية،^(١) وهناك من يأخذ ثلاثة أرزاق لتعاطيه ثلاثة أرزاق: رزقاً للنقل من السرياني إلى العربي، ورزقين آخرين بسبب علمين آخرين.^(٢)

ولم تشر المصادر إلى أجر معين يصرف للطبيب في ذلك العصر حيث كان ذلك عائداً إلى ما يحدده الواقف، وفي البيمارستان المنصوري يصرف للطبيب على حسب ما يراه الناظر ويختلف ذلك من زمان لآخر، وأما البيمارستان القيمري فقد حدد واقفه أجر الطبيب حيث يصرف للطبيب في كل شهر سبعون درهماً ونصف غرارة من قمح، والأدنى ستون درهماً ونصف غرارة قمح وافردت هذه الوقفية للكحال تقدير خاص حيث يصرف له في كل شهر خمسة وأربعون درهماً ونصف غرارة قمح.^(٣)

(١) مدرسة الدخوارية: تُس هذه المدرسة لمنشئها الطبيب مهذب الدين عبدالرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار المتوفى سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٠م)، وكان إنشاؤه لها سنة ٦٢١هـ (١٢٢٤م). وكانت داراً له، وموقعها بالصاغة العتيقة قرب الزاوية الخضراء قبلي الجامع الأموي. (النعمي، عبدالقادر بن محمد الدمشقي) (ت٩٢٧هـ/١٥٢١). المدارس في تاريخ المدارس، أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية. - ١٤١٠هـ [١٩٩٠م. ج٢، ص١٠٠].

(٢) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص٢٨-٣٠.

(٣) كرد علي. خطط الشام. ج٦، ص١٥٨.

أما طبيب المارستان بمكة، فكان يتقاضى أكبر راتب من بين جميع الوظائف التي وردت في الوثيقة بعد الحاكم بمكة، إذ حددت الوثيقة راتبه بمبلغ ألفين وأربعمائة درهم سنوياً بواقع مئتي درهم في الشهر، وذلك نظير قيامه بمداواة المرضى والرمدا ومدواة الجرحى بالمارستان في مثل ذلك، ونلاحظ أنه لم يكلف بأي عمل إداري كما يحدث في كثير من الأحيان الآن إذ ينشغل الأطباء بأعمال إدارية تحول بينهم وبين التفرغ التام لمهمتهم الأصلية وهي علاج المرضى.^(١)

❖ الإيرادات وجهاتها:

جهات الإيرادات كثيرة ومتعددة منها ما تكون من جهة دعم خاص أو تكون من جهة دعم حكومي، ولكن الجهة التي انتشرت وبرزت في العصر المملوكي كممول أساس للبيمارستانات هي الأوقاف حيث شهد ذلك العصر انتشاراً للأوقاف وازدهاراً وكان مما شجع في ذلك هو المنافسة بين السلاطين والأمراء وغيرهم الشخصيات الكبرى فيما بينهم وبين بعض على إنشاء العمائر المحتوية على البيمارستانات، ورصد الأوقاف عليها، وكان السلاطين والأمراء يتباهون بعمائرهم، وما أوقفوه عليها من الأوقاف مما جعلهم يحرصون على أن يفتتحوها هذه المؤسسات ويقفون عليها الأوقاف.

ولقد ساهم سلاطين المماليك في انتشار الأوقاف وازدهارها بسبب ما عرف عن تلك الفترة من انتعاش الحياة الاقتصادية.

وقد استمرت هذه الرعاية من السلاطين والأمراء لمنشآت البيمارستان وتنمية أوقافه والحفاظ عليها فنرى السيدة جانم عتيقة الجمالي يوسف وزوجة الأمير شبك خازندار الملك المنصور قلاوون توقف ثلثي ممتلكاتها المقدرة بمائة وثمانين وستين فداناً بجهة أطفيح^(٢) على مصالح البيمارستان المنصوري

(١) راشد القحطاني. أوقاف السلطان الأشرف شعبان. ص ١١٤.

(٢) أطفيح: بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطئ النيل في شرقيه وفي قبلته مقام موسى بن عمران عليه السلام وفيه موضع قدمه. (ياقوت. معجم البلدان. مج ١، ج ١، ص ١٧٧).

طبقاً لشروط واقفه، وجعلت النظر على وقفها بعد موتها لمن يكون ناظراً على البيمارستان المنصوري.^(١)

كما أوقف السلطان الأشرف شعبان جزءاً من ريع أوقافه عليه، وكذا فعل رئيس المجبرين والجراحين أبو زكريا بن عبدا لله حيث قسم ريع وقفه إلى ثلاثة أثلاث فحدد الثلث الأول ليصرف على البيمارستان المنصوري، ويصرف الثلث الثاني على فقراء الحرم الشريف، وحدد مصروف الثلث الثالث على فقراء الحرم النبوي، وذكر أنه عندما يتعذر الصرف على فقراء أحد الحرمين فإنه يصرف لفقراء الحرم الآخر فإن تعذر ذلك يصرف على البيمارستان المنصوري بالإضافة لما هو معين له بالثلث الأول حيث ذكر ذلك نصاً بالوثيقة: "... فالثلث الأول مصروف للبيمارستان المنصوري الكاين بخط بين القصرين على ما يراه الناظر ويودى إليه اجتهاده، والثلث الثاني مصروف لفقراء [لفقراء] الحرم الشريف المكي شرفه الله تعالى وعظمه والثلث الثالث يصرف لفقراء [لفقراء] الحرم الشريف النبوي بمدينة طيبة الشريفه... فان تعذر الصرف لفقراء [الفقراء] احد الحرمين المشار إليهما أعلاه صرف لفقراء [لفقراء] الحرم الآخر فإن تعذر والعياذ بالله تعالى صرف للبيمارستان المنصوري المذكور أعلاه مضافاً لما هو معين صرفه له أعلاه ليكمل جميع الربيع المذكور للبيمارستان المذكور أعلاه..."^(٢)

وأيضاً نجد جهة من جهات الإيراد وهي التي يقوم بها السلاطين والأمراء دون جهات الوقف المحددة والثابتة، وهي تلك الترميمات التي حرصوا على القيام بها في حياتهم، وهذا ما قام به الأمير جمال الدين آقوش، وذلك في عام ٧٢٦هـ (١٣٢٥م) حينما أخلى الأواوين والقاعات من المرضى ولم يترك به سوى

(١) محمد سيف النصر. منشآت الرعاية الاجتماعية . ص ١٠٦.

(٢) وثيقة وقف تربيته على البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه رقم (٢٤) وحجة رقم (١٥٤) لوحة رقم ١٦.

ذوى الحالات الخطيرة وبدأت عمليات الإصلاح والترميم حيث أصلحت الجدران وجدد بياضها كما جددت دهانات الأسقف والأبواب وغيرها، ونحتت الواجهات الحجرية والقبة والمئذنة، وأعيد تذهيب الشريط الكتابي الممتد على واجهة المبنى كله حتى بدى كأنه جديد، وأعيد افتتاح البيمارستان وعاد إليه المرضى في يوم الثلاثاء الحادي عشر من جمادى الأولى في نفس العام، وبلغت جملة ما أنفق على هذه الإصلاحات ما يقارب ستين ألف دينار، ويضيف المقرئ أنه في نفس العام أضاف الأمير آقوش قاعة جديدة إلى قاعات البيمارستان، ونقل الحوض من جانب باب البيمارستان، وكان مخصص لشرب الدواب وذلك لتأذي الناس برأئحته ألفتته، وعمل موضعه سبيل ماء عذب لشرب الناس، وكان مصروف ذلك كله من ماله دون مال الوقف.^(١)

وكذلك خصَّص السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥ - ٨٤١هـ / ١٤٢٢ - ١٤٣٨م) ثلث ريع ناحية كنيسة سردوس^(٢) على مصالح البيمارستان المنصوري وذلك في وثيقة وقفه المسجلة بواجهة خانقاهه بالصحراء والمؤرخة في جمادى الأولى ٨٣٤ هـ (١٤٣٠م).^(٣)

ومن ضمن الأعيان التي كانت موقوفة على البيمارستان المنصوري فندق الملك السعيد بالفسطاط وهو فندق كبير يعلوه ربع كبير عمر في أيام الملك السعيد محمد بن بركة خان؛ ثم ملكه المنصور قلاوون وبعد ذلك أصبح وقفاً على المارستان المنصوري وكراؤه في كل شهر نحو الألفي درهم.^(٤)

(١) المقرئ. السلوك. ج ٣، ص ٨٩.

(٢) كنيسة سردوس: هي قرية تابعة لبلدة وسوق وتقع شمالها بنحو خمسة ونصف كيلو متر. (محمد سيف النصر. منشآت الرعاية الاجتماعية. ص ١٠٧، حاشية رقم ٢).

(٣) محمد سيف النصر. منشآت الرعاية الاجتماعية. ص ١٠٧.

(٤) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١٢٣.

❖ أوجه الصرف على البيمارستان:

إنَّ ما ينفق على البيمارستان عادةً ما يكون من حاصلات الأوقاف المقررة له، يتولى تدبيرها ناظر أمين، يشرف على نفقة من في المارستان، وهذا يتوقف على سعة المارستان، ومن فيه من المرضى.

ومن وثيقة وقف السلطان قلاوون على بيمارستانه يوضح لنا الواقف ما يحتاج إليه المرضى فيه، والتي كان يصرف عليها من ريع الوقف، وأهم هذه الخدمات توفير الأسرة والفرش الأزمة للمرضى، وتوفير الأدوية والعقاقير على اختلاف أنواعها، وتوفير الغذاء المناسب لكل مريض حسب حالته الصحية فضلاً عن توفير الإضاءة، والماء العذب، وترتيب الفراشين والقومة الذين يتولون أعمال النظافة وغسل ملابس المرضى والقيام بمختلف مصالحهم التي يحتاجون إليها، كما يوضح لنا الواقف في هذه الوثيقة بعض الأنظمة التي كان معمولاً بها، والتي تعدُّ من أسس الرعاية الصحية الحديثة، من ذلك ما يشترطه من ضرورة تحضير الأدوية في أوانها وتخزينها لحين الحاجة إليها، على أن يصرف لكل مريض ما يحتاج إليه فقط دون زيادة أو نقصان، واشترط الواقف أيضاً ضرورة صرف مراوح من الخوص ليستخدمها المرضى في التخفيف من حرارة الصيف، كذلك حرص الواقف على أن يكون هناك ما يغطى به غذاء المرضى لمنع تلوثه، وأن يتناول كل مريض غذاءه من غير مشاركة مع مريض آخر زيادة في الحيلة،^(١) ولقد ذكر النويري عند كلامه عن البيمارستان المنصوري في القاهرة أنه كان يصرف منه في بعض الأيام من الشراب المطبوخ خاصة ما يزيد على خمسة قناطر بالمصري، في اليوم الواحد، للمرتبين والطوارئ، غير السكر، والمطايخ من الأدوية، وغير ذلك من الأغذية والأدهان والترياقات وغيرها.^(٢)

(١) محمد محمد أمين. الأوقاف. ص ١٦٣.

(٢) النويري. نهاية الأرب. ج ٣١، ص ١٠٨.

ولقد خصّصت وقفية الأشرف شعبان مصروفات بيمارستان مكة بما يمكن تلخيصه في الآتي:

● حُصص مبلغ خمسة عشر ألف ومئتي درهم ثمن دقيق وقمح جملته ستة وسبعون أردباً وطحنه، فإن انخفض السعر اشترى ببقية المبلغ دقيقاً أو قمحاً، وقد حددت الوثيقة كيفية توزيع هذا الدقيق والقمح حيث ذكرت أنه يجري توزيع نصف أردب يومياً من الثالث عشر من ذي الحجة حتى آخر المحرم من السنة التالية أي منذ فراغ الحجاج من حجهم حتى رحيلهم عن مكة غالباً عائدين إلى بلادهم، وهي ثمانية وأربعون يوماً فيكون ماتم توزيعه هو أربعة وعشرون أردباً وفي حالة ازدياد الدقيق عن ستة وسبعين أردباً نتيجة لانخفاض السعر أضيفت الزيادة إلى هذه المدة وهي نهاية موسم الحج ليستفيد منها أكبر عدد من فقراء الحجاج.

● أما بقية أيام العام وهي ثلاث مئة واثنا عشر يوماً فيصرف الناظر في كل يوم سدس أردب (٢٠ كيلو جراماً) إلى طبّاخ يطبخه في جريرة ويفرق على الضعفاء من الرجال والنساء والأرامل وذوي الحالات المزمنة المقيمين بالبيمارستان، كما خصص للسمن الذي يطبخ به الدقيق سبعمائة وعشرين درهماً سنوياً بواقع ستين درهماً شهرياً أي درهمين كل يوم.^(١)

كما حددت الوثيقة أيضاً احتياجات المارستان السنوية من الحطب وزيت الزيتون اللزم للإضاءة، وثمان اللحم للضعفاء والسكر والأشربة والأدوية وغيرها على النحو الآتي:

(١) راشد القحطاني. أوقاف السلطان الأشرف شعبان. ص ١١٢.

١. ثلاث مئة درهم ثمن حطب تطبخ به الجريرة السابقة (الدقيق والسمن) وغيرها مما يحتاج إليه المرضى بالمارستان المذكور في كل يوم.
 ٢. أربع مئة وخمسين درهماً في ثمن زيت الزيتون وما يقوم مقامه ليضاء به على الضعفاء بالمارستان في طول السنة.
 ٣. أربعة آلاف درهم تصرف في ثمن لحم برسم الضعفاء في طول المدة وفي ثمن سكر وأشربة وغير ذلك مما يحتاج إليه في كل سنة.
- ويصرف للناظر على المارستان مبلغ خمس مئة درهم للإنفاق على ما تقتضيه مصلحة المرضى وما يحتاجون إليه من سكر وأدوية وأشربة وغير ذلك وما يحتاج إليه المارستان من عبي ومكانس وأسطال وغيرها بحيث يستمر نفعه على الدوام والاستمرار.^(١)
- ولم يقتصر أثر الأوقاف في مجال الرعاية الصحية على المترددين على البيمارستانات، بل شمل ذلك أيضاً المرضى والفقراء في بيوتهم، ويصرف لهم ما يحتاجون إليه من الأدوية والأشربة والأغذية أيضاً.^(٢)
- ولقد خصَّص السلطان قلاوون بعض ريع وقفه على البيمارستان لكسوة الخارجين من البيمارستان بعد شفائهم، ومن بين الخدمات الاجتماعية التي أداها وقف البيمارستان المنصوري، والتي تتصل بالمرضى، تجهيز ودفن من يموت من مرضى البيمارستان، حتى ولو مات بين أهله، فقد نصّت وثيقة الوقف على أن: "يصرف الناظر ما تدعو الحاجة إليه في تكفين من يموت بهذا البيمارستان من المرضى والمختلين الرجال والنساء، فيصرف ما يحتاج إليه

(١) راشد القحطاني. أوقاف السلطان الأشرف شعبان. ص ١١٤.

(٢) محمد محمد أمين. الأوقاف. ص ١٦٩.

برسم غسله وثمان كفنه، وحنوطه، وأجرة غاسله وحافر قبره، ومداراته في قبره على السنّة النبوية والحالة المرضية... فإن مات بين أهله صرف إليه الناظر في موته تجهيزه وتغسيله وتكفينه، وحمله إلى مدفنه، ومداراته في قبره ما يليق به بين أهله.."^(١)

ولعله يتبين من خلال دراسة تلك التنظيمات الإدارية والمالية التي كانت تسيروفقها ببيمارستانات العصر المملوكي ما يؤكد تطوراً حضارياً يسجل للحضارة الإسلامية في هذا المجال بصفحات ناصعة البياض، وكان له أثره في تطور الرعاية الصحية فيما بعد.



(١) محمد محمد أمين. الأوقاف. ص ١٧٢.

الفصل الرابع

الأثر العلاجي للبيمارستانات:

- المبحث الأول: مداواة المرضى ومتابعة أحوالهم الصحية.
- المبحث الثاني: الصلة بين البيمارستان والطب الشعبي.
- المبحث الثالث: أثر البيمارستانات في الحروب ومعالجة الجنود.
- المبحث الرابع: مواجهة البيمارستانات للأوبئة والأمراض.
- المبحث الخامس: الآثار الناتجة عن مزاوله البيمارستان لوظيفته.

كان للازدهار الذي شهدته بيمارستانات العصر المملوكي آثاره المتعددة على مختلف المجالات والأصعدة ولكن أبينها وأكدها هو ذلك الأثر العلاجي الذي قامت به البيمارستانات نتيجة لما شهده ذلك العصر من كثرة للأوبئة والأمراض وانتشارها ووقوع العديد من الكوارث الطبيعية والحروب ومن؛ ثم كانت الحاجة إلى الأطباء والعلاجات بمختلف أنواعها ملحة وضرورية من هذا المنطلق فقد تعددت تلك الآثار العلاجية إذا لم يقتصر الأمر على علاج المرضى داخل البيمارستانات وإنما تعداه إلى متابعة المرضى وتتبع أحوالهم بعد خروجهم من البيمارستان؛ ثم ذلك الأثر المهم الذي قامت به البيمارستانات أيام الحروب والمواجهات العسكرية في معالجة الجنود ومتابعة أحوالهم الصحية؛ ثم الأثر الكبير للبيمارستانات بمواجهة الأوبئة والأمراض؛ ثم تستوضح الدراسة أبرز الآثار الناتجة عن مزاولة البيمارستان لهذه الوظيفة، وهو ما سيأتي الحديث عنه مفصلاً في هذا الفصل وذلك وفق الآتي:

المبحث الأول: مداواة المرضى ومتابعة أحوالهم الصحية:

كان للخدمات العلاجية في العصر المملوكي أثر مهم في مداواة المرضى ومتابعة أحوالهم الصحية إذا لم يكن يُمنع منها أحد، بل كانت بيمارستانات ذلك العصر تستقبل جميع المرضى من مختلف فئات الشعب وهذا ما عمل به في البيمارستان المنصوري، وصُرح فيه نصاً، فقد جاء في وثيقة السلطان قلاوون: "وهذا البيمارستان هو الذي وقفه مولانا السلطان الملك المنصور الموكل الموقف عند خلد الله ملكه بيمارستاناً لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء المثريين والفقراء المحتاجين بالقاهرة، ومصر وضواحيهما، من المقيمين بهما والواردين إليهما من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وتباين أمراضهم وأوصابهم من أمراض الاجسام قلت أو كثرت، اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس، خفيت أو ظهرت واختلاف العقول التي

حفظها أعظم المقاصد والاعراض، وأول ما يجب الإقبال عليه دون الانحراف عنه، والإعراض، وغير ذلك مما تدعو حاجة الإنسان إلى صلاحه وإصلاحه بالأدوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب... يدخلونه جموعاً ووحداً، وشيوخاً، وشباناً، وبلغاً وصبياناً، وحرماً وولداناً، يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين بروئهم وشفائهم، ويصرف ما هو معد فيه للمداواة، ويفرق للبعيد والقريب، والأهلي وللغريب والقوى والضعيف، والذنى والشريف، والعلى والحقير، والغنى والفقير، والمأمور والأمير، والأعمى والبصير، والمفضول والفاضل، والمشهور والخامل، والرقيق والوضيع، والمترف والصعلوك، والمليك والمملوك، من غير اشتراط لعوض من الأعواض، ولا تعريض بإنكار على ذلك، ولا اعتراض، بل لمحض فضل الله العظيم..."^(١)

وكان من ضمن الاهتمامات بالمرضى العمل على توفير الغذاء المناسب لكل مريض حسب حالته الصحية، فضلاً عن توفير الإضاءة، والماء العذب، كذلك امتد حرصهم إلى أن يكون هناك ما يغطى به غذاء المرضى لمنع تلوثه، وأن يتناول كل مريض غذاءه من غير مشاركة مع مريض آخر زيادة في الحيلة، واتباعاً لأساليب صحية، وهذا كله يدل على مدى ما كانت عليه بيمارستانات العصر المملوكي من العناية والاهتمام الصحي.^(٢)

وقد ورد ذلك في وثيقة قلاوون حيث جاء فيها: "... وماء من بحر النيل المبارك برسم شربهم وأغذيتهم، وثمرن مكبات خوص لاجل استعمالهم إياها في الحر، يصرف الناظر ثمن ذلك من ريع هذا الوقف فى غير إسراف ولا إجحاف، ولا زيادة على ما يحتاج إليه كل ذلك بحسب ما تدعو الحاجة،

(١) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم (١٢).

(٢) محمد أمين. الأوقاف. ١٦٢-١٦٣.

زيادة الاجر والثواب... ويجعل لكل مريض ما طبخ له، فى كل يوم، فى زبدية منفردة له من غير مشاركة مع مريض آخر، ويغطيها، ويوصلها الى المريض، إلى أن يتكامل إطعامهم، ويستوفى كل منهم غذاءه، وعشاءه، وما وصف له بكرة وعشية...".^(١)

ومن أروع ما فيه أيضاً التعاون بين الأطباء والتشاور فيما بينهم فى فروع الطب المختلفة فى ذلك العصر وهذا كله عائد على مصلحة المرضى وكذلك ضرورة تواجد الأطباء بالبيمارستان ليلاً وهذا دليل على الاهتمام لما قد يحدث من أزمات للمرضى أثناء الليل وهذا ما جاء بوثيقة المنصور قلاوون: "ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه هذا المارستان من الأطباء المسلمين الطبائعيين والكحاليين والجرائحين بحسب ما يقتضيه الزمان، وحاجة المرضى، وهو مخير فى العدة، وتقرير الجاميكات، ما لم يكن فى ذلك حيف ولا شطط، يباشرون المرضى والمختلين، الرجال والنساء، بهذا المارستان مجتمعين ومتأوبين، باتفاقهم على التآوب، أو بإذن الناظر فى التآوب، ويسألون عن أحوالهم، وما يتجدد لكل منهم زيادة مرض أو نقص، ويكتبون بما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء وغيره، فى دستور ورق ليصرف على حكمه، ويلتزمون المبيت فى كل ليلة بالبيمارستان مجتمعين أو متأوبين، ويجلس الأطباء الكحاليون لمداواة أعين الرمداء بهذا المارستان، ولمداواة من يرد إليهم به من المسلمين بحيث لا يرد أحد من المسلمين الرمداء لمداواة عينه بكرة كل يوم، ويباشرون المداواة، ويتلطفون فيها، ويرفقون بالرمداء فى ملاطفتهم، وأن كان بينهم من به قروح أو أمراض فى عينيه، تقتضى مراجعة الكحال للطبيب الطبائعي راجعه، وأحضره معه، وباشر معه من غير انفراد عنه، وراجعته فى أحواله إلى حين برؤه وشفائه...".^(٢)

(١) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفوظة رقم(١٣) وحجة رقم(١٥) لوحة رقم (١٤).

(٢) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفوظة رقم(١٣) وحجة رقم(١٥) لوحة رقم (١٤، ١٥).

وكذلك نجد بالبيمارستان المؤيدي تخصيص مكان للمرضى والعمل على مداواتهم إلى حين شفائهم وهذا ما نصت عليه الوثيقة على أنه: " انشأ وأوقف ليكون مارستانا وجعله معد لمأوى الضعفا [الضعفاء] والرمد والمرورين ومن ابتلاه الله بمرض يمكن مداواته منه، بملاطفة الأطباء المقررين بالمكان المذكور فيه من المسلمين وجعل الأماكن التي من حقوق المكان المذكور معده للمذكورين لكل منهم ما يناسبه على الوجه الشرعى لاقامته فيه الى حين برئه من مرضه على العادة فى ذلك".^(١)

ويتبين لنا مدى حرص الأطباء على مداواة المرضى وإعطائهم العلاج المناسب دون أي تأخير، ويذكر ابن أبي أصيبعة أنه عندما أنشأ الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي البيمارستان الكبير بدمشق، "جعل أمر الطب فيه إلى أبي المجد بن أبي الحكم، وأطلق له جاميكية وجراية، وكان يتردد إليه ويعالج المرضى فيه، وكان أبو المجد بن أبي الحكم يدور عليهم ويتفقد أحوالهم ويعتبر أمورهم، وبين يديه المشارفون والقوم لخدمة المرضى، فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى في ذلك".^(٢)

ولم يكن كل المرضى يقيمون بالبيمارستان، فكان منهم من يترددون عليه للعلاج، وكانت تصرف لهم الأدوية والأغذية والأشربة بشرط عدم التضيق على المقيمين بالبيمارستان، وبهذا الشأن نصت وثيقة البيمارستان المنصوري على أن: "من كان مريضا فى بيته، وهو فقير، كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاج اليه من حاصل هذا المارستان من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها، مع عدم التضيق فى الصرف على من هو مقيم به".^(٣)

(١) وثيقة وقف بيمارستان المؤيد شيخ المحمودي بالقاهرة المحفوظة بوزارة الأوقاف برقم(٩٣٨).

(٢) عيون الأنباء. ص ٥٨١ .

(٣) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه رقم(١٣) وحجة رقم(١٥) لوحة رقم(١٥).

وهذا النوع من الخدمة قُصِدَ منه متابعة المريض في بيته، وهذا ما يشبه في بعض المجتمعات الحاضرة طبيب العائلة بما يؤكد تميز حضارتنا في كثير من جوانبها المضيئة.

ويؤكد ذلك النويري، ويعدها من مميزات هذا البيمارستان، وأن ذلك أدى إلى ازدياد أعداد المستفيدين من ذلك في وقت من الأوقات بما يزيد على المئتين غير من هو مقيم بالبيمارستان،^(١) إذ يحصى البلوى أنه بلغ عدد المترددين على البيمارستان المنصوري حوالي أربعة آلاف نفس حيث قال: " أن من يكحل فيه كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناقلين الخارجين أربعة آلاف نفس، وتارات يزيدون وينقصون".^(٢)

ونستدلُّ من هذه الأعداد الكبيرة التي كانت ترد إلى البيمارستان على مدى أهمية هذا البيمارستان والفائدة العظمى التي كان يقدمها لمختلف طبقات الشعب.

ولأهمية هذا الأثر والحاجة إليه في المجتمع المملوكي آنذاك فإن هذه العناية لم تقتصر على الموجودين داخل البيمارستان فحسب، بل شملت أيضاً متابعة المرضى خارج البيمارستانات، وهذا يدل على أن الحياة الصحية قد وصلت إلى درجة عالية من الرقي حيث كان من التقاليد المتبعة في بيمارستانات العصر المملوكي الاحتفاء بمن يمن الله عليه بالشفاء وكسوته بما يليق لاسيما في عصور لم تعرف الإجازات المرضية بأجر أو نصف أجر، لذا يمنح المريض هبات مالية حتى لا يجبر على العمل فتتغير صحته لذلك يحتاج للراحة بعد خروجه، وهذا ما كان متبعاً في بيمارستان قلاوون، حيث جاء بوثيقة وقفه: " أن من حصل له الشفاء والعافية ممن هو مقيم بهذا البيمارستان المبارك صرف الناظر إليه من ريع هذا الوقف المذكور كسوة مثله على العادة

(١) نهاية الأرب. ج ٣١، ص ١٠٨.

(٢) تاج المفرق. ج ١، ص ٢١٩.

بحسب الحال من غير زيادة تقتضى التضييق على المرضى والقيام بمصالحهم".^(١)

وبالإضافة إلى ذلك، فقد حرص الواقفون على متابعة أحوال المرضى الصحية بالمنشآت الأخرى حيث تقدم الرعاية الصحية للمتددين على تلك المنشآت الدينية والتعليمية حيث اشترط على الأطباء الحضور يومياً إلى المؤسسة الدينية لمعالجة من يمرض من أرباب الوظائف، أو طلبة العلم، سواء كانوا مقيمين بالمؤسسة، أو خارجها، وفي كافة الأحوال لا يكلف المريض بالحضور إلى الطبيب، بل يشترط الواقف ضرورة توجه الطبيب إلى المريض حيث سكنه.^(٢)

وهذا ما ذكر في وثيقة وقف السلطان الناصر حسن بن قلاوون والتي جاء فيها: " ويرتب الناظر رجلين مسلمين أحدهما عارف بالطب خبير بمعالجة الأبدان والثاني عارف بصناعة الكحل - أي طب العيون - على أن كلاً منهما يحضر كل يوم إلى المكان المذكور ويداوي من يحتاج إلى المداواة من أرباب الوظائف والطلبة المقيمين بالأماكن المذكورة أعلاه ومن يحضر إليهما من الطلبة وأرباب الوظائف ممن ليس له سكن بالمكان ومن مرض من المقيمين بالأماكن المذكورة أعلاه توجه الطبيب إليه في مكان إقامته ولا يكلف المريض الحضور إلى الطبيب ويصرف إليهما في كل شهر مائة درهم وعشرون درهما نقرة بالسوية لكل منهما ستون درهما. ويرتب الناظر رجلاً جرئاً مجبراً يحضر في كل يوم إلى المكان المذكور ويفعل نظير ما شرط على الكحال والطبيب بأعاليه فيصرف إليه في كل شهر أربعين درهما".^(٣)

(١) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفوظة رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم (١٦).

(٢) محمد أمين. الأوقاف. ص ١٧٤-١٧٥.

(٣) عبد الغني محمود عبد العاطي. التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، القاهرة: دار المعارف، ص ٢٠٦، نقلاً عن حجة السلطان حسن بن قلاوون.

ولم تقتصر هذه الرعاية على الأحياء فقط، ولكنها شملت أيضاً من يتوفى من مرضى البيمارستان فكان يُكفن ويُجهز، وقد كان هذا تقليداً سائراً في البيمارستانات المملوكية كافةً، فمن خلال وثيقة قلاوون نجد نصاً على هذا النوع من الخدمات فيما يلي: "يصرف الناظر ما تدعو الحاجة إليه في تكفين من يموت بهذا المارستان من المرضى والمختلين الرجال والنساء، فيصرف ما يحتاج إليه برسم غسله، وثمان كفنه، وحنوطه، وأجرة غاسله وحافر قبره، ومداراته في قبره على السنة النبوية والحالة المرضية... فإن مات بين أهله صرف إليه الناظر في موته تجهيزه وتغسيله وتكفينه، وحمله إلى مدفنه، ومداراته في قبره ما يليق به بين أهله..."^(١)

إنَّ هذه المتابعة للمرضى والفقراء تُعدُّ من أعمال القُربى إلى الله تعالى، وطلب المثوبة والأجر، ومهما يكن من أمر فقد كانت هذه البيمارستانات علامة حضارية وإنجازاً إنسانياً مبكراً في مجال الرعاية الاجتماعية يحسب لهذه الحضارة.



(١) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظة رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم (١٥).

المبحث الثاني: الصلة بين البيمارستان والطب الشعبي:

إنَّ الإنسان الأول في تجواله بحثاً عن غذائه بين الأشجار والحشائش لا بد وقد قابل منها ما لم يستسغه فتحاشاه وما ضره فتجنبه، ومن معلوماته هذه عن تلك النباتات كانت أول المعرفة بالنباتات الطبية والعقاقير، ومن ملاحظاته ومشاهداته عما نتج عن تعاطى هذه النباتات ومن هنا عُرِفَ العشاب الأول ونشأت صناعة العقاقير، ويتقدم معلومات الإنسان أمكنه الاستفادة من هذه النباتات وأجزائها في إصلاح بدنه وعلاج جراحه وأمراضه.^(١)

وبهذا يعود تاريخ معرفة الإنسان بالأدوية والعقاقير النباتية إلى أول عهده بعلاج ما يصيبه من أمراض، حيث اختبر أوراق الأشجار وأغصان النباتات وثمارها وجذورها لعلاج حالات مرضية، وقد نشطت معرفته بالأدوية النباتية عندما اقترنت بالمعرفة الطبية، فكانت الحاجة إلى تحضير الأدوية واستعمالها لحالات مرضية هي الدافع وراء البحث عن الأجزاء المختلفة للنبات وأوقات قطعها وطرق تحضيرها ومعرفة خصائصها الطبية ومفعولها.^(٢)

وبالنسبة لميدان الدراسة، فقد كانت الوصفات الطبية التي يصفها أطباء ذلك العصر حالهم حال أطباء المسلمين الأوائل تعتمد كثيراً على الأعشاب والنباتات المتوفرة في مناطقهم وبيئاتهم الطبيعية حيث عرفوا بالتجربة والاختبار كثيراً من النباتات والأعشاب التي يمكن الاستفادة منها في تحضير العقاقير والوصفات الطبية بل وتطور علم تركيب الأدوية في ذلك العصر إلى أن كوّن منه أشكالاً عديدة كالمساحيق والأشربة والزيوت والعمور والمراهم.

ولا أعتقد أنَّ المجال هنا يسمح باستعراض كلِّ الأعشاب والنباتات الطبية التي عرفها الأطباء المسلمون واستخرجوا منها كثيراً من أدويتهم، فقد اجتهد صيادلة المسلمين في البحث عن مركبات كثير من الأعشاب والنباتات مما

(١) عبدا لعظيم صابر وعبدا الحلیم منتصر. موجز تاريخ الصيدلة. ص ٢٧٤.

(٢) ياسين خليل. الطب والصيدلة عند العرب. ص ١٨٧.

وجد في بيئتهم الكثير منها ونجحوا في سببها أدويةً عولجت فيها كثيراً من الحالات و الأمراض، وهو سبقٌ يسجل للحضارة الإسلامية، حيث جاء الطب الحديث ليؤكد أثر هذه الأعشاب والنباتات علمياً في علاج هذه الأمراض، وباستعراض مؤلفات هذه الأدوية و تركيباتها في ذلك العصر وما احتوته تلك المؤلفات من وصفات طبية قائمة على استخدام النباتات والأعشاب يظهر اعتماد الطب في ذلك الزمان على الأعشاب ومدى خدمتها بالعلاجات بل المطلع على مؤلفات أطباء العصر المملوكي يتأكد له ذلك مما يؤكد تلك الصلة التي كانت قائمة بين البيمارستانات والطب الشعبي.



المبحث الثالث: أثر البيمارستانات في الحروب ومعالجة الجنود:

كانت البيمارستانات العسكرية من المرافق المهمة التي لم تخلوا منها الجيوش الإسلامية، وخصوصاً أن المسلمين خاضوا حروباً متواصلة مما دفعهم إلى تكوين جيوش قوية ومدربة، ويرافقها بيمارستان محمول مجهز بالأدوات الطبية والأدوية والأطباء في تخصصات مختلفة.^(١)

وعلى الرغم من ندرة المعلومات التي يمكن الاعتماد عليها لمعرفة عدد الأطباء والمرضين الذين كانوا يرسلون مع الجيوش المحاربة، وكيفية إخلاء الجرحى ونقلهم إلى البيمارستانات المتقدمة، إلا أننا من خلال بعض النصوص المتناثرة نستطيع أن نقول أن الجيش كان يصحب معه في أثناء المعارك مجموعة من الأطباء والمرضين والصيادلة، لإسعاف الجرحى وإخلائهم من ساحة المعركة ومعالجتهم أو نقلهم إلى بيمارستان الميدان بحملهم على النقالات المعدة لهذا الغرض.

ولقد كانت البيمارستانات المتقلة عبارة عن خيم ونقالات لنقل الجرحى ومعدات طبية استخدمت الجمال والبغال تتولى نقل تلك المعدات، ولقد عُرف هذا النوع من البيمارستانات في صدر الإسلام حينما ساهمت المرأة المسلمة مساهمة جادة في مشاركة الجيوش الإسلامية وهي تحمل عدة التمريض والإسعاف المعروفة آنذاك من لفائف وعصائب وما يلزمها لأداء مهامها الإنسانية، وكانت لهنّ مواقف خالدة ومواقع مشهودة سجلها التاريخ بأحرف ناصعة، وتعدّ خيمة رفيده الأسلمية أول خيمة طبية نُصبت في الإسلام، ويمكن أن تكون أول بيمارستان ميداني عُرف في الإسلام حيث انصرفت إلى واجبها ومهنتها وأقامت خيمتها قرب ميدان القتال وعندما أصيب الصحابي

(١) راجي التكريتي. الإسناد الطبي في الجيوش العربية الإسلامية، بغداد: دائرة الشؤون الثقافية. (١٩٨٤م). ص ١٧٦-١٧٩.

الجليل سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم من الأعداء، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بنقله إلى خيمة رفيدة حيث أتمت دورها على الوجه الأكمل حيث أخرجت السهم وأوقفت النزف وأشرفت على تمييزه، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يمر على الجرحى في خيمة رفيدة عدة مرات في اليوم. ^(١)

وقد ورد ذكرٌ لهذا النوع من البيمارستانات حينما وضع عبدالله بن الزبير مستشفى للجيش عندما حوَّصر في مكة المكرمة وضرب فسطاطاً في ناحية من المسجد الحرام، وكلما أُصيب أحد من أتباعه بجرح ينقل إلى ذلك الفسطاط للمعالجة. ^(٢)

وتطور الحال بعد ذلك حتى صار يصحب الجيش أطباء وصيدلة وعقاقير وغلمان، وكل ما يحتاجونه من آلات وأدوات، وخيام، ومحامل مريحة واسعة مفروشة بالأثاث اللين، ينقل بها المرضى والجرحى، تحمل على الجمال. وكان أول من اتخذ هذه المحامل هو الحجاج بن يوسف الثقفي. ^(٣)

ومن البيمارستانات المحمولة التي تناقلت أخبارها كتب التاريخ البيمارستان الذي وضعه شمس الملك بن نظام الملك، ولقد جاء عنه: "ومن جملة مبتدعاته في الخير، أنه جعل للمعسكر السلطاني ببيمارستان [بيمارستاناً] يحمل آلاته وخيمته وأدويته والأطباء والغلمان والمرضى مائتاً بختي". ^(٤)

وكان من ضمن هذه الممارستانات المشهورة المارستان الذي في معسكر السلطان محمود السلجوقي (ت ٥٢٥هـ / ١١٣٠م) ^(٥) الذي كان يعمل فيه

(١) ابن حجر. الإصابة في تمييز الصحابة. ج ٤، ص ٣٠٣.

(٢) الديوه جي. الموجز. ص ٧٧.

(٣) الديوه جي. الموجز. ص ٧٨.

(٤) البنداري. تاريخ دولة آل سلجوق. ص ١٢٩.

(٥) هو محمود السلطان ابن السلطان محمد بن ملكشاة بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق كان من خيار الملوك وكان فيه حلم، وكرم، وأناة، وبر وصلابة وتوفي سنة ٥٢٥هـ (١١٣٠م). (ابن الأثير. الكامل في التاريخ، تحقيق علي شيري. ط ١. لبنان: دار إحياء التراث العربي. - ٤٢٥هـ [٢٠٠٤م]. ج ٩، ص ٢١٩).

الطبيب أبو الحكم عبدالله ابن المظفر بن عبدالله بن محمد الباهلي الحكمي المغربي (ت ٥٤٩هـ/١١٥٤م)، وجاء عنه أنه: " كان ذا معرفة بالأدب والطب والهندسة ، وكان طبيب المارستان الذي كان يحمله أربعون جملاً ، المستصحب في معسكر السلطان محمود السلجوقي حيث خيم . وكان القاضي السديد أبو الوفاء يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر المعروف بابن المرخم الذي صار قاضي القضاة ببغداد في أيام الإمام المقتفي فاصداً وطبيباً في هذا المارستان المحمول المذكور ، وكان أبو الحكم يشاركه".^(١)

ولقد ذكرت المصادر أن من أشهر من خدم في الجيش الصلاحي الطبيب موفق الدين ابن المطران^(٢) الذي كان لا يفارقه في حروبه وغزواته ضد الفرنج ، وكانت له خيمة حمراء تشبه خيمة السلطان صلاح الدين ، فكان السلطان يعجب منه ولا ينكر عليه ذلك لمكانته عنده.^(٣)

وفي سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٦م) كان الملك العادل الأيوبي (٥٩٦-٦١٥هـ/١١٩٩-١٢١٨م) قد تفقد جيشه ، ورأى من المصلحة أن يزيد عدد أطبائه . فقال للصاحب بن شكر: نريد أن يكون مع الحكيم موفق الدين عبدالعزيز ما يلحق لذلك . فامتثل أمره ، وقال: "هنا حكيم فاضل في صناعة الطب ، يقال له المهذب بن الدخوار ، يصلح أن يكون في خدمة مولانا ، فأمر باستخدامه".^(٤)

وكان من عادة السلاطين تفقد البيمارستان قبل سفر الجيش ، ومن ذلك ما حدث في سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) قبل أن يخرج الملك الأشرف أبو الفتح موسى

(١) القفطى. أخبار العلماء. ص ٢٦٤

(٢) هو الحكيم الإمام العالم الفاضل موفق الدين أبو النصر أسعد ابن أبي الفتح إلياس بن جرجس المطران ، كان سيد الحكماء وأوحد العلماء ، جزيل النعماء ، أمير أهل زمانه في علم صناعة الطب وعملها ، وأكثرهم تحصيلاً لأصولها وجملها ، جيد المداواة لطيف المداراة ، وصار موسوماً بالطب ، وبقي طبيباً بدمشق لحين وفاته ، وله العديد من الكتب ومنها كتاب بستان الأطباء وروضة الألباء . (ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٦٠٣).

(٣) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٦٠٤.

(٤) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٦٧٩.

ابن الملك العادل أمر بتفقد المارستان، فوجدوا فيه نقصاً سدوه بشراء بغلات وخيم وآلات لا بد منها في السفر بعشرين ألف درهم.^(١)

وفي العصر المملوكي كان من عادة السلطان أن يصحب معه في أسفاره "من غالب ما تدعو الحاجة إليه، حتى يكاد يكون معه مارستان لكثرة من معه من الأطباء، وأرباب الكحل، والجراح، والأشربة، والعقاقير، وما يجري مجرى ذلك، وكلُّ من عاده طبيبٌ و وصف له ما يناسبه يُصرف من الشراب خاناه، أو الدواخاناه المحمولين في صُحبته".^(٢)

ولقد أُعجب الأوروبيون من وجود الأطباء وأدواتهم وطريقة معالجتهم للجرحى والمصابين بالجيوش الإسلامية وشاهدوا ذلك خلال الحروب الصليبية التي كانت أحد منافذ الحضارة التي انتقلت فيها الحضارة والعلوم من العالم العربي الإسلامي إلى ربوع أوروبا قاطبة، فوجدوا الإنسانية والعدل ونور العلم مشعة في المشرق الإسلامي فنهلوا من علومها واستفادوا من حضارتها ونقلوا من كتبها إلى عالم أوروبا حيث كان التخلف في العلوم احد مظاهرها آنذاك وبخاصة العلوم الطبية.^(٣)

وبهذا يتبين لنا أن الأطباء كانوا موجودين بين الأجناد يباشرون المرضى والجرحى من المقاتلين في ميادين الغزوات والحروب، وإن كنا لا نعرف الكثير عن مدى معلوماتهم الطبية ولا عن وسائل علاجهم.^(٤)



(١) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٦٨٣.

(٢) العُمري. مسالك الأبصار. ص ١٠٤.

(٣) راجي التكريتي. الإسناد الطبي. ص ١٨١.

(٤) راجي التكريتي. الإسناد الطبي. ص ١٩٦.

المبحث الرابع: مواجهة البيمارستانات للأوبئة والأمراض:

تطرقنا في الفصل الأول من هذه الدراسة إلى ما شهدته العصر المملوكي من انتشار للأوبئة والأمراض وما خلفته من آثار عظيمة، وما سعى إليه السلاطين والأمراء لإيجاد الحلول المناسبة لهذه الأزمات، وكان من ضمن هذه الحلول إنشاء البيمارستانات حيث يعدُّ أغلب الدارسين أنَّ هذا كان من دوافع إنشاء عديد من البيمارستانات. وهنا سوف يعرض هذا المبحث لبعض من الإجراءات التي قامت بها البيمارستانات في العصر المملوكي لمواجهة تلك الأوبئة والأمراض المنتشرة آنذاك على النحو الآتي:

- التعرف على نوعية الأوبئة والأمراض التي انتشرت في تلك الفترة ومحاولة مكافحتها والحد منها. ومن خلال الدراسة تبين أنه من الحوادث العظيمة التي ألمت بمصر ظهور العديد من الكوارث والأوبئة والأمراض وظهر انتشار الطاعون واشتداد أمره حتى صار الناس يتساقطون موتى في الطرقات من نساء ورجال وأطفال، مما أدى إلى فناء ثلث أهل مصر، واستمرت الطواعين تنتشر في الناس بالقاهرة ومصر حتى زاد أمره وبلغ عدة من يموت فيه باليوم الواحد ثلاثة آلاف، ووصل الوباء إلى عامة بلاد الشام فهلك فيه خلائق كثيرة جداً.^(١) فكان للبيمارستانات دور في التقليل من أثر هذه الأوبئة والأمراض.

- القيام بزيارة الأماكن الموبوءة والعمل على إرسال حملات إسعافية لتلك المناطق البعيدة عن البيمارستانات وإجراء ما يلزم، وهذا دور البيمارستان المتقل هو الذي يُنقل من مكان إلى مكان بحسب ظروف الأمراض والأوبئة وانتشارها وكذا الحروب، وهو عبارة عن مستشفى مجهز بجميع ما يلزم للمرضى والمداواة من أدوات وأدوية

(١) المقرئزي. السلوك، ج٤، ص٢٦٧.

وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة وكل ما يعين على ترفيهه الحال على المرضى والعجزة والمزمين والمسجونين ينقل من بلد إلى أخرى من البلدان الخالية من البيمارستانات الثابتة أو التي يظهر فيها وباء أو مرض مُعدٍ^(١) تستدعي بعض الحالات لرش المبيدات في أماكن معينه للحد من انتشار الوباء.

- القيام بالحجر الصحي لتفادي نقل العدوى بين الناس.
- القيام بمعالجة المرضى وصرف العلاج لهم بالمجان وهذا حافز لإقبال المرضى على العلاج والاهتمام بصحتهم، وكان أعظم شاهد على تلك العناية بالمرضى وثيقة المنصور قلاوون حيث جاء فيها: "وهذا البيمارستان هو الذي وقفه مولانا السلطان الملك المنصور الموكل الموقف عند خلد الله ملكه ببيمارستاناً مداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء الثريين والفقراء المحتاجين بالقاهرة، ومصر وضواحيهما، من المقيمين بهما والواردين إليهما من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وتباين أمراضهم..."^(٢)
- العمل على اكتشاف أدوية جديدة للأمراض المنتشرة في ذلك العصر.



(١) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١١.

(٢) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه رقم(١٣) وحجة رقم(١٥) لوحة رقم(١٢).

المبحث الخامس: الآثار الناتجة عن مزاولة البيمارستان لوظيفته:

وهكذا فإنه من خلال هذا المبحث يتضح ذلك الأثر الطبي المهم للبيمارستانات خلال ذلك العصر، وأن ما تمّ فعلاً من إجراءات وما وضع من تنظيمات تضمن لهذه البيمارستانات القيام بوظائفها المناسبة ترك آثاراً ونتائج مهمة لعل من أهمها:

- انتشار الوعي الصحي والمحافظة على صحة الإنسان وعلاجه ومواجهة سوء الأحوال الصحية.
- التعرف على نوعية الأوبئة والأمراض التي انتشرت في ذلك العصر ومحاولة مكافحتها والحدّ منها.
- التعرف على طرق العلاج ونوعية الأدوية ومركباتها.
- التفوق العلمي والتطبيق العملي حيث برز العديد من الأطباء و الصيادلة وظهرت المؤلفات الطبية في العصر المملوكي امتداداً لما اشتهر به المسلمون في كثير من عصورهم الذهبية في هذا العالم.
- كما أن هناك وظائف أخرى غير طبية وهي تتمثل باللقاءات العلمية والأثر التعليمي للبيمارستانات، وهذا ما سوف تعرض له الدراسة في الفصل القادم بمشيئة الله.
- ما تمّ كشفه من أدوية وأشربة جديدة جراء اللقاءات التي يقوم بها الصيادلة وعرضهم لنباتات البلاد الإسلامية ووصفهم لخواصها الطبية.
- تخليد ذكر سلاطين العصر وهذا ما نراه من بقاء هذه البيمارستانات تحمل أسماء منشئها إلى وقتنا الحاضر.
- ما تقدمه هذه البيمارستانات من خدمات جليلة، أدخلت السرور على المريض الفقير.

• ما وصلت إليه التنظيمات الإدارية والمالية لبيمارستانات الممالك، وهو ما أدى إلى انتظام الخدمة الطبية لتلك البيمارستانات بالصورة المرسومة لها.

وأخيراً نجد أنّ هذه البيمارستانات منشآت تقوم بمجموعة من الأدوار الاجتماعية والأوضاع والوظائف تتماسك جميعاً لتؤدي مجموعه من الأعمال تهدف في النهاية إلى تحقيق عام وهو علاج المرضى من أفراد المجتمع وتقديم الرعاية لهم، فهو نسق اجتماعي منظم للرعاية الصحية.



الفصل الخامس

الأثر التعليمي للبيمارستانات:

- المبحث الأول: التعليم النظري.
- المبحث الثاني: التعليم التطبيقي.
- المبحث الثالث: تعليم الصيدلة والعقاقير.
- المبحث الرابع: طرق تدريس الطب.
- المبحث الخامس: المكتبات.
- المبحث السادس: الاختبارات والإجازات الطبية.

تعرفنا في الفصول السابقة على مدى اهتمام السلاطين والأمراء وذوي الجاه في العصر المملوكي بأمر البيمارستانات، وأنهم كانوا يوقفون عليها الأوقاف، ويغدقون عليها الأموال والعطايا، من أجل النهوض برسالتها النبيلة في تطبيب الناس وعلاجهم، كما أن هذه البيمارستانات كانت ميادين لتعليم الطب إلى جانب وظيفتها الأساسية، ولم تلبث تلك البيمارستانات أن أصبحت مدارس ميدانية متخصصة لتدريس الطب.

"ومما تحسن الإشارة إليه في هذا الجانب أن تعلم الطب عند المسلمين لم يكن يتم بطريقة عشوائية، بل كان يتم حسب شروط وضوابط دقيقة يُشرف على تنفيذها ولاة الأمر في كثير من الأحيان، مما كان له أثرٌ إيجابي في التطور الملحوظ الذي حصل للعلوم الطبية ودافع قوي للأطباء المسلمين بأن يبدعوا في هذا المجال، مما نتج عنه كمٌّ هائلٌ من الدراسات الطبية المتطورة والمبتكرة والتي كان لها الأثر الكبير في إثراء الدراسات الطبية وارتقائها".^(١)

كما اعتمدت الدراسات الطبية وتعليمها على الناحيتين النظرية المكتبية القائمة على دراسة المادة الطبية من خلال الكتب والمصادر الطبية الأساسية، والناحية العملية القائمة على مراقبة المرضى داخل البيمارستانات وتشخيص أمراضهم ومعالجتها وتدوين الملحوظات اللازمة عن كل مريض .

إضافة إلى ذلك، فقد فرض على من يريد ممارسة الطب أو تدريسه تأدية امتحان أمام كبير الأطباء في الفرع أو المهنة التي يريد الإجازة فيها. فبعد قيام الحركة التدريسية لدراسة الطب النظري والعملي سواء في البيمارستانات دخلت على هذه المهنة بعض القيود والضوابط المنظمة لها، حيث لم تعد هذه الصناعة مباحة لكل من أراد، وإنما أصبح في كل بيمارستان هيئة تدريسية

(١) إبراهيم بن محمد المزيني. المدارس الطبيّة المتخصصة في الحضارة الإسلاميّة، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد الثالث عشر. - ذوالقعدة ١٤١٥هـ (إبريل ١٩٩٥م). (٣٤٩ - ٤١١). ص ٣٥٠.

خاصة يعينون من قبل السلطان أو الوزير، ويختارون من ذوي الشهرة والسمعة العلمية العالية، وكانت إدارة البيمارستان منوطة برئيس الأطباء الذي كان يُختار عادة من كبار الأطباء وأشهرهم سمعة وعلماً، ويصدر في تعيينه توقيع سلطاني يخوله النظر في البيمارستان وإدارته.^(١)

والدراسة في هذا الفصل تهتم - بحول الله - بإبراز ذلك الجانب المهم الذي قامت به البيمارستانات في المجال التعليمي، وتركت أثرها واضحاً في تطور علوم الطب في العصر المملوكي، وذلك وفق المباحث الآتية:

المبحث الأول: التعليم النظري:

لم تكن دراسة الطب في الحضارة الإسلامية تسير وفق نمط واحد عبر العصور الإسلامية المتتابة، فالأطباء الذين برزوا خلال القرون الهجرية الخمسة الأولى كان تعليمهم قد تمّ بدون شكّ على كتب الأوائل من اليونانيين أمثال أبقراط وجالينوس، وغيرها من الكتب التي انتخبها الأقدمون من أطباء الإسكندرية وغيرهم؛^(٢) ثم منذ بداية القرن السادس الهجري - الثاني عشر

(١) إبراهيم المزيني. المدارس الطبية المتخصصة. ص ٣٦٥.

(٢) وتتركز هذه الكتب في المدرسة اليونانية القديمة التي اشتهرت بصناعة الطب قبل الإسلام. ويمثل هذه المدرسة العلمان البارزان أبقراط وجالينوس اللذان صنفاً كثيراً من الكتب الطبية التي أصبحت أساساً في دراسة الطب وتدرسه أجيالاً وقروناً عديدة، فكتب أبقراط اشتهر منها اثنا عشر كتاباً هي: (كتاب الأجنة، كتاب طبيعة الإنسان، كتاب الأهوية، كتاب الفصول، كتاب مقدمة المعرفة، كتاب الأمراض الحادة، كتاب أوجاع النساء، كتاب أبيديما "الأمراض الحادة"، كتاب الأخلاط، كتاب الغذاء، كتاب قاطيطريون "حانوت الطبيب"، كتاب الكسر والجبر).

أما جالينوس فقد صنّف كثيراً من الكتب الطبية وغيرها من الكتب التي تخدم صناعة الطب، وقد حصرها ووصفها في المقالة الأولى من كتابه "بينكس" ويعني الفهرست، وكانت أبرز هذه الكتب ما يأتي: (كتاب الفرق، كتاب الصناعة الصغيرة، كتاب النبض الصغير، كتاب في التآتي لشفاء الأمراض "أغلوqn"، كتاب في العضل، كتاب في العصب، كتاب الأسطقسات، كتاب المزاج، كتاب القوى الطبيعية، كتاب العلل والأعراض، كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة، كتاب النبض الكبير، كتاب أصناف الحميات، كتاب أيام البحران، كتاب حيلة البراء، كتاب علاج التشريح) إلى غير ذلك

الميلادي - بدأ الاهتمام بالمدرسة الطبية الإسلامية التي بدأت تفرض نتائجها ومناهجها محل كتب الأقدمين ومناهجهم تدريجياً ، وظلت كتبهم هي المصادر الأساسية لدراسة الطب في العالم الإسلامي وأوروبا حتى عصور قريبة.^(١)

فقد بدأت مؤلفات طبية إسلامية في الظهور منذ بداية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وهي تُعدُّ بداية بروز مدرسة طبية جديدة أثبتت تفوقها العلمي على كثير من كتب القدماء، وبدأت هذه المدرسة منذ ذلك الوقت تحلُّ كتبها ومناهجها محل كتب ومناهج القدماء، وأصبحت فيما بعد هي المصادر الوحيدة لتعليم الطب في الديار الإسلامية وأوروبا إلى نهاية القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، ولقد كثرت الكتب الطبية الإسلامية بأيدي تلامذة الطب بعد هذا القرن، ويمكن تصنيفها إلى ما يأتي :-

١ - كتب المدخل إلى الطب:

وقد اشتهر منها كتاب المسائل لحنين بن إسحاق. وهذا الكتاب يعدُّ مدخلاً لدارس الطب، لأن مؤلفه قد جمع فيه جملاً وجوامع تجري مجرى الأوائل والبدايات لتعلم هذا العلم، وقد اختصره حيناً، وشرحه حيناً وعلق

من الكتب التي سردها كل من ابن النديم وابن أبي أصيبعة والتي تتجاوز المئة كتاب. وقد حظيت تلك الكتب بكثير من الشروحات والاختصارات من كثير من أطباء المسلمين.

أما الكتب التي انتخبها أطباء الإسكندرية فقد عددهم ابن أبي أصيبعة سبعة هم: "أصطفن، وجاسيوس، وثادوسيوس، وأكيلاوس، وأنقيلاوس، وفلاذْيوس، ويحيى النحوي". (ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ١٥١) وكانت هذه الكتب في القرن السادس الميلادي، بسبب ما أصاب الطب وتعليمه من ضعف وانحلال، بسبب استغناء التلامذة بالكنايش، فانتخبوا لتلامذتهم أربعة من كتب أبقراط الطبية وسنة عشر كتاباً من كتب جالينوس، وظلت تلك الكتب مرجعاً لتلامذة الطب حتى نهاية القرن السادس الهجري. (مريزن سعيد مريزن عسيري. تعليم الطب في المشرق الإسلامي نظمه ومناهجه حتى نهاية القرن السابع الهجري، مكة المكرمة: جامعة أم القرى. سلسلة بحوث الدراسات الإسلامية (١٦). - ١٤١٢هـ. ص ٣١-٣٧).

(١) مريزن عسيري. تعليم الطب في المشرق الإسلامي. ص ٢٢-٢٣.

عليه حيناً آخر كثير من أطباء ذلك العصر.^(١) وكذا كتاب المرشد أو "الفصول" لمحمد بن زكريا الرازي.^(٢)

٢ - كتب المشاهدات العملية:

وقد اشتهر منها: "كتاب الحاوي" لأبي بكر الرازي، وهو من أخصّ مؤلفاته، ويقع في ثلاثين مجلداً حسب رواية أبي الفداء، وفي إثني عشر مجلداً حسب الفهرست لابن النديم. وهو من أجلّ كتب الرازي وأعظمها في صناعة الطب ذلك أنه جمع فيه كل ما وجده متفرقاً في ذكر الأمراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية للمتقدمين ومن أتى بعدهم إلى زمانه، ونسب كل شيء نقله فيه إلى قائله، وقد نال هذا الكتاب من العناية الشيء الكثير فاختصر حيناً وعلق عليه حيناً آخر.^(٣) وقد قال عنه ابن خلكان أنه من الكتب الكبار يدخل في مقدار ثلاثين مجلداً، وهو عمدة الأطباء في النقل منه والرجوع إليه عند الاختلاف.^(٤) ويؤكد ما يرهوف أن هذا الكتاب يعدُّ أوسع مؤلف طبي توصل إليه طبيب، وأنه يتضمن كل ما توصل إليه الطب السرياني، والطب العربي من معرفة واكتشافات، وأنه قد جمع فيه الآراء والمعلومات من كتب الطب التي كان يعكف على قراءتها والنظر فيها، فيدرجها جنباً إلى جنب مع تجاربه الطبية، وقد جمعها كلها في أواخر أيامه وعمل منها هذا الكتاب

(١) أحمد أحمد بدوي. الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، القاهرة: دار نهضة مصر. ص ٣١١.

(٢) مريزن عسيري. تعليم الطب في المشرق الإسلامي. ص ٣٨. والرازي هو: أبو بكر محمد ابن زكريا فيلسوف من أئمة الطب من أهالي الري، ولد وتعلم بها وتقل بين البلاد وكثرت مصنفاه الطبية، وولي رئاسة الطب في البيمارستان المقتدري في بغداد، وكفّ بصره في آخر عمره، وكانت وفاته في بغداد سنة ٣١٣هـ (٩٢٥م). (ابن أبي أصيبعة. عيون الأنبياء. ص ٣٧٩-٣٩٢).

(٣) أحمد بدوي. الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية. ص ٣١١.

(٤) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر. (١٩٧٢م). ج ٥ ص ١٥٨.

المدرسي العظيم.^(١)

وقد حظي هذا الكتاب بكثير من الشروحات والاختصارات والتعليقات من قبل عديد من أطباء المسلمين وغيرهم مما يؤكد أهميته البالغة في هذا العلم.^(٢)

٣ - الكتب الموسوعية المبسطة:

ومن أشهرها كتاب القانون في الطب لابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨هـ (١٠٣٦م).^(٣) وقد نال هذا الكتاب من علماء العصر ما لم ينله كتاب سواه فاختصر، وشرح، ووضعت عليه الحواشي الكثيرة والتعليق العديدة،^(٤) كما نال من الأوربيين إعجاباً شديداً وكثر الطلب عليه، حتى أنه طُبِعَ في آخر ثلاثين سنة من القرن الخامس عشر الميلادي ست عشرة طبعة، واحدة

(١) ماكس مايرهوف. العلوم والطب ضمن مجلد تراث الإسلام، تأليف جمهرة من المستشرقين بإشراف سيرتوماس أرنولد. تعريب وتعليق جرجيس فتح الله. ط٣. بيروت: دار الطليعة، (١٩٧٨م). ص ٤٦٤، ٤٦٥.

(٢) من هذه الاهتمامات:

أ - اختصار الطبيب مهذب الدين بن علي الدخوار منشئ أول مدرسة تخصصية لتدريس الطب، والمتوفى في دمشق سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٠م). (ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٦٧٨).

ب - اختيار الطبيب هبة الله أمين الدولة ابن التلميذ المتوفى في بغداد سنة ٥٦٠هـ (١١٦٥م) وهو ممن تولوا رئاسة الأطباء في بغداد. (ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٣٢٠).

(٣) هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا صاحب التصانيف المشهورة في الطب والمنطق والطبيعات والإلهيات، أصله من بلخ، ومولده في إحدى قرى بخارى، نشأ وتعلم في بخارى، وطاف البلاد وناظر العلماء، واتسعت شهرته وكثرت مؤلفاته كانت وفاته في همذان سنة ٤٢٨هـ (١٠٣٧م). (ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٢، ص ١٥٧-١٦٢).

(٤) أحمد بدوي. الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية. ص ٣١١.

ومن هؤلاء:

- الطبيب عمر بن علي بن البذوخ القلعي المتوفى سنة ٥٧٥هـ (١١٧٩م) أو ٥٧٦هـ (١١٨٠م).

- والطبيب شرف الدين الرحبي مدرس الدخوارية المتوفى سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٨م).

- الطبيب علاء الدين ابن النفيس وقد ألف كتاباً سماه الموجز في الطب وهو مختصر لهذا الكتاب.

- الطبيب رضوان بن محمد بن الساعاتي المتوفى بدمشق سنة ٦١٨هـ (١٢٢١م) وقد وضع حواشي مفيدة على هذا الكتاب.

منها باللغة العبرية والباقي باللاتينية، وفي غضون القرن السادس عشر أعيد طبعه أكثر من عشرين مرة.^(١)

٤ - الكتب المتخصصة:

ومن أشهرها:

١ - كتاب العشر مقالات في العين لحنين بن إسحاق.^(٢)

٢ - كتاب الجراحة وهو الباب الثلاثون من كتاب "التصريف لمن عجز عن التأليف" لأبي القاسم خلف ابن العباس الزهراوي المتوفى سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩م)^(٣) حيث كان هذا الباب شرطاً في ممارسة الجراحة.^(٤) وقد نشر باللغة اللاتينية باسم (Chirurgia) وقال عنه بالنشأ صاحب كتاب تاريخ الفكر الأندلسي إنه أهم وأذيع كتاب في تاريخ الطب كله، وإن الزهراوي قد ارتفع به في أعين الناس إلى طبقة أبقراط وجالينوس وأنه يحوي رسوم الآلات الجراحية وهو أول مؤلف جعل الجراحة علماً قائماً بذاته مستقلاً عن الطب وأقامها على أساس من العلم بالتشريح.^(٥)

٣ - رسائل ابن مندويه الأصفهاني المتوفى سنة ٤١٠هـ (١٠١٩م):^(٦)

(١) ماكس مايرهوف. العلوم والطب ضمن مجلد تراث الإسلام. ص ٤٧٢.

(٢) الشيزري. نهاية الرتبة في طلب الحسبة. ص ١٠٠.

(٣) أبو العباس الزهراوي: طبيب فاضل عاش في الأندلس خبير بالأدوية المفردة والمركبة، جيد العلاج، له تصانيف مشهورة في صناعة الطب أشهرها كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف وهو كتاب تام في معناه كانت وفاته سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩م). (ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٤٦٠).

(٤) الشيزري. نهاية الرتبة. ص ١٠١.

(٥) آنخل جنثال بالنشأ. تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الأسبانية حسين مؤنس. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. ص ٤٦٦، وقد جعل وفاته سنة ٤٠٣هـ (١٠١٣م).

(٦) هو الطبيب أحمد بن عبد الرحمن بن مندويه الأصفهاني طبيب فارس خدم ملوك فارس؛ ثم انتقل إلى بغداد فعمل في البيمارستان العضدي، له أعمال مشهورة في الطب. (ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٤٢١-٤٢٢).

وهي رسائل متخصصة تبلغ الأربعين منها: رسالة في تركيب طبقات العين، ورسالة في وصف المعدة والقصد لعلاجها، ورسالة في علاج شقاق البواسير، ورسالة في ضعف الكلى إلى غير ذلك من الرسائل الطبية المفيدة.^(١)

٤ - كتاب مقالة في الحواس للطبيب موفق الدين عبداللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩هـ (١٢٣١م) وهو الكتاب الطبي الوحيد الذي بقي للطبيب موفق الدين البغدادي وقد نشرة الطبيب فيصل دبدوب في مجلة مجمع اللغة العربية دمشق سنة ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م).^(٢)

ويلاحظ هنا أن تحديد الكتب الطبية الدراسية، والكتب المساعدة الأخرى التي انتخبها القدماء لدراسة الطب، تجد اختلافاً بين الأطباء فيما ينبغي تدريسه منها لتلاميذ الطب، كما أن الأطباء الذين فضلوا كتب المدرسة الإسلامية ومناهجها في تعليم الطب، اختلفت طرقهم وتباينت اختياراتهم لتلك الكتب فمنهم من فضل كتب الرازي، وآخر مال إلى مصنفات ابن سينا، وكثير منهم جمع بين كتب هؤلاء الأطباء وما دونه لأنفسهم من مذكرات طبية جمعوا فيها بين معارف تلك الكتب الطبية وبين خبراتهم وتجاربهم الشخصية.^(٣)



(١) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٤٢٢-٤٢٣.

(٢) فيصل دبدوب. "مقالة الحواس لعبداللطيف البغدادي"، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. مج ٥٤. (١٩٧٠م). ٢٣٢.

(٣) مريزن عسيري. تعليم الطب في المشرق الإسلامي. ص ٢٥.

المبحث الثاني: التعليم التطبيقي:

يُعدُّ الطبُّ من العلوم التجريبية التي لا بد أن تتوافق الدراسة النظرية فيها مع التطبيقية والتجريبية، ولذا ظلَّت البيمارستانات هي الأماكن الرئيسية لمهنة الطب والصيدلة من حيث التدريس والتطبيق على الرغم من ظهور المدارس الطبية المتخصصة منذ منتصف القرن السابع الهجري، ففي إيوان البيمارستان كانت تُلقى الدروس والنظريات الطبية، وفي حجراته كان طلاب الطب ينتشرون بين صفوف المرضى ويطبِّقون ما درسوه عملياً بإشراف أساتذتهم الأطباء، ومن هذه البيمارستانات كانت تتخرج - في أغلب الأحيان - جماعات الطلبة في مختلف تخصصات الطب، فمنهم الطبيب على عمومه، ومنهم الجراح والفاصد والكجّال والأسناني وغير ذلك، وفي إيوانه أيضاً كانت تُعقد المناظرات والمناقشات بين الأطباء لبحث مرض استعصى أو دواء اكتشف، أو لحل مشكلة طبية معينة ويشترك مع البيمارستانات في تدريس الطب أماكن أخرى سبق الحديث عنها. وكان لمجموعها أثر كبير في تطور الدراسات الطبية عند المسلمين.^(١)

وقد أدرك المسلمون ما تمتاز به البيمارستانات من صلاحية لتعليم الطب، إذ الحالات المرضية ماثلة أمام أعين التلاميذ، والأدوية والعلاجات قريبة متوافرة فاتخذوا منها - إلى جانب قيامها بمعالجة المرضى - مدارس طب قامت بدور بارز في تدريس هذا العلم، وكان لها أثرٌ كبيرٌ في تطور العلوم الطبية الحديثة،^(٢) وكانت البيمارستانات تحتوي في الغالب على إيوان كبير للدروس يجلس فيه كبير الأطباء ومعه باقي الأطباء والطلاب، وبجانبهم الآلات والكتب الطبية؛ ثم تجرى المباحثات الطبية والمناقشات بين الأستاذ وطلابه، ويرجعون إلى الكتب الطبية إذا احتاجوا إليها، وكثيراً ما كان الأستاذ

(١) إبراهيم المزيني. المدارس الطبية المتخصصة. ص ٣٦٠.

(٢) محمد عبد الرحيم غنيم. تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، تطوان: دار الطباعة المغربية. (١٩٥٣م). ص ١١٨.

يصطحب تلامذته إلى داخل البيمارستان لإجراء الدروس العملية على المرضى، فيتم من خلال ذلك الربط بين الدراسة النظرية والعملية.^(١) وكان يُنص في وقفية البيمارستان على تخصيص جزء من ريع الوقف للأطباء الذين يدرسون فيه.^(٢) وقد حافظ البيمارستان طيلة العصور الإسلامية التي سبقت نشأة المدارس الطبية المتخصصة على مكانته الرائدة في تدريس الطب، وظلَّ هو القاعدة الأولى لتدريس هذا العلم نظرياً وعملياً، ومع ظهور عدد من المدارس المتخصصة في العصر الأيوبي فقد ظلت البيمارستانات تؤدي وظيفة مهمة في تدريس الطب لا يمكن أن تتوافر في المدارس الطبية، ألا وهي تقديم الدروس العملية للدارسين حيث الحالات المرضية ماثلة أمام أعينهم، واستمر ذلك الوضع حتى وقتنا الحاضر.

كان طلاب الطب بعد انتهائهم من دراساتهم النظرية يدخلون قاعات المرضى ويلاحظون ما يقوم به الأطباء من تشخيص للأمراض وإعطاء العلاج اللازم وإجراء العمليات الجراحية وملاحظة قوارير الفحص، وبعد سنين يؤذن لهم بفحص المرض وإبداء رأيهم في معالجتهم ويكون هذا بحضور رئيس الأطباء؛ ثم يتقدم الرئيس بيدي ملاحظاته ويكون كلامه هو الفصل، ويشبه هذا إلى حد كبير ما يتم في كبار المستشفيات في العصر الحديث من إلحاق كليات الطب بالمستشفيات حيث تتوافر الدراسة العملية، وممارسة الطب تحت يد الأساتذة، ولم يكن يسمح لأحد بمزاولة مهنة الطب إلا بعد أن ينتهي من هذا التدريب العملي ويمنح إجازة بممارسة المهنة.^(٣)

وظاهرة تدريس الطب داخل البيمارستانات أمرٌ وُجد في مرحلة سابقة على العصر المملوكي، حيث اشتهرت كثيرٌ من البيمارستانات الإسلامية بتزواج الوظيفتين فيها أعني العلاجية والتعليمية، وكان لذلك أثره الواضح في تقدم

(١) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ١٩-٢٠.

(٢) محمد غنيمه. تاريخ الجامعات. ص ١١٩.

(٣) محمد سيف النصر. منشآت الرعاية الاجتماعية. ص ٦٣.

العلوم الطبية، وهو ما جرى في البيمارستان النوري الكبير بدمشق، فقد أشار ابن أبي أصيبعة عندما ترجم لشيخه وهو يترجم لشيخه الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم المتوفى سنة ٥٧٠هـ (١٧٤م)،^(١) فذكر أن أبا المجد كان يدور على المرضى بالبيمارستان الكبير النوري، ويتفقد أحوالهم ويعتبر أمورهم، وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى، فكان جميع ما يكتبه لا يتوحد عنهم، وكان بعد فراغه من ذلك وطلوعه إلى القلعة وافتقاده المرضى من أعيان الدولة، يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان، وجميعه مفروش، ويحضر كتب الاشتغال، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه، ويقعدون بين يديه؛ ثم تجرى مباحث طبية، ويُقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات؛ ثم يركب إلى داره.^(٢)

وكان نور الدين محمود قد أوقف على هذا البيمارستان جملة من الكتب الطبية، وكانت في الخُرستانين اللذين في صدر الديوان.^(٣) وقد استمر ذلك الأثر حتى العصر المملوكي.

أما في العصر المملوكي فقد ظهر ذلك الدور للبيمارستانات واضحاً، واشتهرت عديد من البيمارستانات باعتبارها مراكز لتعليم الطب النظري وممارسته عملياً تحت يد الأساتذة المتخصصين. ويُعدُّ البيمارستان المنصوري بالقاهرة (بيمارستان قلاوون) بحق من أكبر المستشفيات وكليات الطب في تاريخ مصر في عصورها الإسلامية المبكرة، حيث نُصَّ على وظيفته التعليمية ضمن وثيقة وقف البيمارستان، وذلك في أن "يصرف الناظر في هذا الوقف لمن ينصبه شيخاً للاشتغال عليه بعلم الطب على اختلافه، يجلس بالمسطبة

(١) سبقت ترجمته في التمهيد.

(٢) عيون الأنباء. ص ٥٨١.

(٣) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٥٨١.

الكبرى المعينة له في كتاب الوقف المشار إليه، للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه في الأوقات التي يعينها له الناظر ما يرى صرفه إليه، وليكن من جملة أطباء البيمارستان المبارك من غير زيادة عن العدد".^(١)

وكان من جملة ما ذكره المقرئ عن هذا البيمارستان أنه جعل فيه مكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء دروس الطب.^(٢)

وكان من يتولى تدريس الطب في البيمارستان لا بدله من توقيع خاص، ولقد ذكر ابن عبد الظاهر توقيع مهم، يتضمن تعيين مهذب الدين للتدريس في البيمارستان المنصوري.

وجاء في هذا التوقيع أن السلطان أمر بإنشاء بيمارستان يبهر العيون، ويفوق الأبنية، ويحفظ فيه الصحة والعافية، وأوقف عليه أوقافاً مبرورة، وأسترسل قائلاً: "وجعلنا فيه مكاناً للاشتغال بعلم الطب الذي كاد أن يجهل، وشرعنا للناس إلى ورد بحره أعذب منهل، وسهلنا عليهم من أمره ما كان الحلم به من اليقظة أسهل، وارتدنا له من علماء الطب من يصلح لإلقاء الدروس، وينتفع به الرئيس من أهل هذه الصناعة والمرعوس، ويؤتمن على صحة الأبدان وحفظ النفوس، فلم نجد غير رئيس هذه الطائفة أهلاً لهذه المرتبة، ولم نرض لها من لم تكن له هذه المنقبة، وعلمنا أنه متى وليها أمسى بها معجباً، وأضحت به معجبة".^(٣)

وكان من جملة الأطباء الذين أشارت المصادر إلى تدريسهم في هذا البيمارستان:

(١) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم (١٥).

(٢) الخطط. ج ٢، ص ٤٠٦.

(٣) تشریف الأيام والعصور. ص ٢٢٩.

١ - الشيخ ركن الدين بن القوبع المتوفى سنة ٧٣٨هـ (١٣٣٨م).

ذكر ابن حجر العسقلاني أنه درّس الطب بالبيمارستان المنصوري واستمر على الأشغال به.^(١) وأشار الصفدي أنه كان يدرس الطب في البيمارستان المنصوري.^(٢)

٢ - الطبيب عمر بن منصور البهادري المتوفى سنة ٨٣٤هـ (١٤٢١م).^(٣)

حيث ذكر السخاوي أنه اشتغل بالطب حتى مهر واشتهر ودّرّس، واستقر في تدريسي البيمارستان وجامع ابن طولون في الطب ولكنه لم يكن محمود العلاج، وانتهت إليه الرياسة في الطب وتقدم فيه على أقرانه حفظاً واستحضاراً.^(٤)

ويبدو من مقولة السخاوي أنه لم يكن محمود العلاج، وأنّ اشتهاره بتدريس الطب كان أفضل من ممارسته التطبيب، وهو أمر مكرّر لدى بعض أطباء العصر، وربما انعكست الصورة فقليل إنّ فلاناً اشتهر بالتطبيب ولم يبرع في التدريس.

٣ - محمد بن علي بن عبد الكافي المتوفى سنة ٨٩١هـ (١٤٨٦م).

ذكر السخاوي أنه ممن تميز بالطب وعالج، وتدرّب به جماعة بل له في الطب كتاب يسمى الزبد وهو من أطباء البيمارستان المنصوري.^(٥)

٤ - محمد بن أحمد بن إبراهيم المخزومي المتوفى سنة ٨٧٣هـ (١٤٧٨م).^(٦)

حيث ذكر السخاوي أنه درّس الطب بالبيمارستان المنصوري بالقاهرة، إلى جانب تدريسه بجامع ابن طولون.^(٧)

(١) الدرر الكامنة. مج ٢، ج ٤، ص ١١٣. وقد سبقت الترجمة له في الفصل الأول.

(٢) الوايف بالوفيات. ج ١ ص ٢٤٠.

(٣) السخاوي. الضوء اللامع. مج ٣، ج ٦، ص ١٣٩، وقد سبقت الترجمة له ضمن أطباء البيمارستان المنصوري في الفصل الأول.

(٤) الضوء اللامع. مج ٣، ج ٦، ص ١٣٩،

(٥) الضوء اللامع. مج ٤، ج ٨، ص ١٩٠، ١٩١، وقد سبقت الترجمة له في الفصل الأول.

(٦) السخاوي. الضوء اللامع. مج ٣، ج ٦، ص ٢٨٤-٢٨٦، وقد سبقت الترجمة له في الفصل الأول.

(٧) الضوء اللامع. مج ٣، ج ٦، ص ٢٨٥.

- ٥ - الشريف السيد قاسم بن محمد التونسي توفى سنة ١٩٣ هـ (١٧٩٧م).
كان إماماً في الفنون وله يد طويلة في العلوم الخارجة مثل الطب والحرف
وكان معه وظيفة تدريس الطب بالبيمارستان المنصوري.^(١)
- أما فيما يتعلق بتقاليد المسلمين في الطب في الناحية التطبيقية فقد امتاز الطب
الأسلامي بسمات رفيعة أربع لاتزال باقية إلى يومنا هذا وهي:
١. طرق التعليم الطبي الإكلينيكي القائم على مشاهدة المرضى والاستماع
بدقة لشكواهم واستقصاء أحوالهم وزيارة منازلهم، ومن وسائل ذلك المرور
على أسرة المرضى بالبيمارستانات حيث كان شيوخ الأطباء يصاحبون
تلاميذهم يفسرون لهم أحوال المرضى ويشيرون عليهم بالعلاج، وهي وسيلة
التعليم الطبي السليم القائم على المشاهدة والتجربة وليس نقلاً عن الكتب
والمخطوطات فقط.
 ٢. المناقشات العلمية التي كانت وسيلة التعليم الطبي، فقد درج أساتذة الطب
الإسلامي على الجلوس مع كتبهم وتلاميذهم في قاعات مخصصة يتباحثون
ويتفكرون في أمور الطب. هذا وإن نظام تقديم رسالة أو أطروحة تمهيداً
للحصول على إجازة علمية هو نظام إسلامي.
 ٣. المؤتمرات العلمية التي درج الأطباء المسلمون على عقدها.
 ٤. وفي مجال التأليف العلمي التزم أغلب الأطباء المسلمين تقاليد منهجية في
كتاباتهم حرصوا فيها على ذكر مصادر ما أتوا به في مؤلفاتهم.^(٢)



(١) الجبرتي، عبدالرحمن بن الحسن (ت ٢٣٧ هـ / ١٨٢٢م). تاريخ عجائب الآثار في التراجم
والأخبار، ط٢. بيروت: دار الجيل. (١٩٧٨م). ج ١، ص ٥٤٣، وقد سبقت الترجمة له ضمن
أطباء البيمارستان المنصوري في الفصل الأول.

(٢) حسن أحمد إبراهيم. "العرب وإثراء الدراسات الطبية"، مجلة تصدرها الأمانة العامة لاتحاد
المؤرخين العرب العدد (١٧). بغداد.. ١٤٠١ هـ (١٩٨١م). ص ١٦٠-١٦١.

المبحث الثالث: تعليم الصيدلة والعقاقير:

نشأت الصيدلة منذ زمن قديم وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بعلم الطب إذ كان الطبيب هو الذي يعدُّ الدواء ويركبه للمرضى، ومع مرور الزمن وتشعب العقاقير وطرق تركيبها ظهر التخصص في هذا العلم مع اتصاله الملح مع الطب، فالأسس والاحتياجات والمقادير يصنعها الطبيب والصيدلي هو الذي يعمل على جمعها وتركيبها واختيار الأجود من أنواعها.

وقد برع المسلمون في تحضير الضمادات والمساحيق والمراهم وتركيباتها، واكتشفوا أدوية جديدة منها: الكافور والصندل واللاوند والمسك والتمر هندي والحنظل، كما اخترعوا الكحول والمستحلبات والخلصات العطرية، وهم أول من ابتكر الشراب الحلو المستخرج من نبات الكرنب مع السكر، ولا زال الغرب يطلقون عليه كلمة (Syrop) وهي مأخوذة من كلمة شراب التي تردد في المصادر العربية.^(١)

ولذا فإن من المسلم به لدى المختصين في تاريخ العلوم أن المسلمين هم أول من جعل الصيدلة علماً مستقلاً، وعملوا على تقدمه تقدماً ملحوظاً وبدا تقول "زيغريد هونكه" حول مكانة الصيدلاني عند المسلمين: "لقد نقل العرب حقل محضر الدواء عن حقل واصفه وأوجدوا مهنة الصيدلاني الذي ارتفع إلى مركز عال بفضل علومه ومسؤولياته الخاصة، وكانوا أول من افتتح

(١) إبراهيم المزيني. انتقال العلوم الطبية عند المسلمين إلى أوروبا وأثر ذلك في تطور علم الطب عند الأوروبيين " بحث منشور في مجلة التاريخ العربي"، الرياض: جمعية المؤرخين المغاربة. العدد ١٣. شتاء.. ١٤٢٠هـ (٢٠٠٠م). ص ١٣٢

الصيدليات العامة وذلك في العام الثمانين من القرن الثامن في ظل حكم الخليفة المنصور كما إنهم ألحقوا بكل بيمارستان صيدلية خاصة به".^(١)

ونما تبعاً لذلك علم العقاقير أو الأقرباذين عند المسلمين نموّاً كبيراً حيث أكثروا من التأليف في الأدوية المفردة من الأعشاب وغيرها، وفي الأدوية المركبة في صور مختلفة. وتضرب (زيغريد هونكه) مثلاً من عمل ابن سينا في كتابه المشهور "القانون في الطب" الذي ذكر فيه ما ينيف على سبع مئة عقار أدخلت كلها في علم النبات وعلم الصيدلة للأوروبيين. وظل الكثير منها بأسمائها العربية مستخدماً في اللغات الأجنبية كالعنبر والزعفران، والكافور، والمسك، وعود الند، والصندل، والتمر هندي وغيرها.^(٢)

لقد كانت عملية تعليم الصيدلة والعقاقير تتم بجانب التعليم الطبي في كثير من مراكز التعليم عند المسلمين وبخاصة البيمارستانات، ومما يدلنا على ذلك قول ابن عبد الظاهر عندما ذكر تولي مهذب الدين التدريس بالبيمارستان المنصوري: "وليجعل منهم جماعة طبائعية، وطائفة كحالين وجرائحية، وقوماً مجبرين، وبالحديد عاملين، وآخرين بأسماء الحشائش، وقوى الأدوية وأوصافها عالمين".^(٣)



(١) زيغريد هونكه. شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال الدسوقي. ط ٨. بيروت: دار الجيل ودار الأفاق الجديدة. ١٤١٣هـ (١٩٩٣م). ص ٣٢٩.

(٢) زيغريد هونكه. شمس العرب تسطع على الغرب. ص ٣٢١.

(٣) ابن عبد الظاهر. تشریف الأيام والعصور. ص ٢٣٠.

المبحث الرابع: طرق تدريس الطب:

تؤكد مصادر الدراسة المختلفة أنه لم يكن يتصدر لتدريس الطب إلا من كانوا من الرؤساء الطبائعيين أو الكحالين أو الجرائحين أو غيرهم ممن برز واشتهر في مجال الطب علماً وخبرة، وكان لابد من توقيع خاص بتدريس الطب. وقد أورد ابن عبد الظاهر توقيعاً يتضمن تعيين الطبيب مهذب الدين بن الموفق بن النجم لتدريس الطب في البيمارستان المنصوري بالقاهرة (بيمارستان قلاوون). وقد استهل المؤلف هذا التوقيع بالمقدمة التقليدية المعروفة في نشر هذا العصر، وتحدث من خلال ذلك عن إنشاء ذلك البيمارستان وأغراضه، وأبرز الوصايا والواجبات الملقاة على عاتق من يتصدى لمثل هذه الوظيفة.^(١) وبعدها ورد فيه: " وجعلنا فيه مكاناً للاشتغال بعلم الطب الذي كاد أن يجهل، وشرعنا للناس إلى ورد بحره أعذب منهل، وسهّلنا عليهم من أمره ما كان الحلم به من اليقظة أسهل، وارتدنا له من علماء الطب من يصلح لإلقاء الدروس، وينتفع به الرئيس من أهل هذه الصنعة والمرعوس، ويؤتمن على صحة الأبدان وحفظ النفوس، فلم نجد غير رئيس هذه الطائفة أهلاً لهذه المرتبة، ولم نرض لها من لم تكن له هذه المنقبة، وعلمنا أنه متى وليها أمسى بها معجباً، وأضحت به معجبة. ولما كان المجلس السامي مهذب الدين هو الرئيس المشار إليه، والوحيد الذي تعقد الخناصر عليه، وكان هو الحكيم بقراط، بل الجليل سقراط، بل الفاضل جالينوس، بل الأفضل ديسقوريدوس".^(٢) إلى أن

(١) ابن عبد الظاهر. تشریف الأيام والعصور، ص ٢٢٨ - ٢٢٩، ولم أعر على ترجمة لمهذب الدين بن الموفق بن النجم في مصادر البحث.

(٢) ابن عبد الظاهر. تشریف الأيام والعصور، ص ٢٢٩، وديسقوريدوس: هو طبيب يوناني جاء بعد أبقرط وله باع طويل في علم الأدوية والعقاقير واكتشافاتها ولا يعرف أحد زمانه تحديداً إلا إنه عاش في القرن الأول الميلادي وقد أطلق عليه لقب صاحب النفس الزكية. ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٤٨.

قال: " فليتلق هذه النعمة بالشكر الجليل، والحمد الجزيل، والثناء الذي هو بالنماء والزيادة كفيل، ولينتصب لهذا العلم المبارك انتصاب من يقوم بالفرض منه والسنة، ويعرف له فيه الفضل ويتقلد له فيه المنة، ويثى على آثاره الجميلة فيه وتثى إليه الأعنة، وليبطل بتقويمه الصحة ما ألفه ابن "بطلان"،^(١) وليرنا بتدبيره جبلة البر، فإنه جالينوس الزمان، وليبذل النجاة من الأمراض والشفاء من الأسقام، فإنه ابن سينا الأوان، وليجمع عنده شمل الطلبة، وليعط كل طالب منهم ما طلبه، وليبلغ كل متمن من الاشتغال أربه، وليشرح لهم صدره، وليبذل لهم من عمره شطره، وليكشف لهم من هذا العلم المكنون سره، وليرهم ما خفي عنهم منه جهره".^(٢)

وينتقل المؤلف بعد ذلك ليوصي هذا المدرس بضرورة توجيه طلبة هذا العلم إلى ضرورة التخصص في بعض فروعها، ومنه قوله: " وليجعل منهم جماعة طبائعية - يقصد أطباء الأمراض الباطنية - وطائفة كحاليين - ويقصد بهم أطباء العيون - وجراحية، وقومًا مجبرين، وبالحديد عاملين، وأخرى بأسماء الحشايش وقوى الأدوية وأوصافها عالمين".^(٣)

ثم ينتقل بعد ذلك إلى بعض الوصايا المهمة لمن يمارس هذه الصناعة فيقول: "وليامر كلا منهم بحفظ ما يجب حفظه، ومعرفة ما يزيد به حظه، وليأخذه بما يصلح به لسانه ولفظه، ولا يفتر عنهم في الاشتغال لحظة، وليفرد لكل علم من علوم الطب طائفة، ولكل فن من فنونه جماعة لمحاسنه عارفة،

(١) هو المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان. طبيب نصراني من أهل بغداد. سافر إلى مصر وأقام فيها ثلاث سنوات، ورحل إلى القسطنطينية؛ ثم إلى أنطاكية فترهب ومات فيها سنة ٤٥٨هـ (١٠٦٥م). من كتبه "دعوة الأطباء" و "تقويم الصحة". (الزركلي. الأعلام. ج٧، ص١٩١).

(٢) ابن عبد الظاهر. - تشریف الأيام والعصور، ص٢٣٠.

(٣) ابن عبد الظاهر. - تشریف الأيام والعصور، ص٢٣٠.

وليصرف إليهم من وجوه فضائله كل عارفة، وليكشف لهم ما أشكل عليهم من غوامضه، فليس لها من دون إيضاحه كاشفة.^(١)

إلى أن قال: "لينشر في هذا المكان المبارك من أرباب هذه العلوم قوم بعد قوم، ويظهر منهم في الغد - إن شاء الله تعالى - أضعاف من هو ظاهر منهم اليوم، وليقال لكل من طلبته إذا شرع في إجازته وتزكيتته: لقد أحسن شيخه الذي عليه تأدب، وإن من خرج هذا المهذب، عاملاً في ذلك بشروط الواقف أعز الله نصره، واقفاً عند أمره أمضى الله أمره".^(٢)

وهذا التوقيع وما اشتمل عليه من شروط ووصايا وآداب هو غاية في الأهمية. ويؤكد لنا ما وصلت إليه آداب الطب وتعليمه من رقي وازدهار في ظل الحضارة الإسلامية.

وتختلف طرائق تدريس الطب عن غيره من العلوم لكونه من العلوم التجريبية التي ينبغي أن تعتمد في تعلمها على الناحيتين (النظرية) التي تعنى بدراسة مادة الطب من مصادرها الأساسية، (والعملية) التي تعنى بمتابعة المرضى داخل البيمارستانات وتشخيص أمراضهم ومعالجتها وتدوين ما يلاحظ في ذلك، ويتمثل هذان الأسلوبان فيما يأتي:

أ: الناحية النظرية:

كان لابد لمن أراد تعلم الطب أن يبدأ أولاً بدراسة مادته نظرياً وفق ما يأتي:

١ - "دراسة الكتب الطبية الأساسية بنفسه أو بإشراف أحد أساتذته المختصين وفق منهج تعليمي منظم، فيقوم بقراءة كتب جالينوس وأبقراط،

(١) ابن عبد الظاهر. - تشریف الأيام والعصور، ص ٢٣٠.

(٢) ابن عبد الظاهر. تشریف الأيام والعصور. ص ٢٢٩. وقد وقع هذا التقليد في رمضان سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) وقد كتبه القاضي محمد بن المكرم كاتب الدرج.

وحنين بن إسحق، والرازي وابن سينا وغيرهم في التشريح ومنافع الأعضاء ومختلف الأمراض، وكانت هذه الدراسة ضرورية لمن أراد تعلم الطب".^(١)

٢ - "التدوين: وهو من العناصر الأساسية لدراسة الطب، إذ يُعدُّ أول المعرفة ألحقه بالطب، حيث لم يكن يسمح لطلبة الطب المبتدئين أن يقطعوا برأي في العلل أو العلاجات ما لم يسبق ذلك تدوين لكثير من آراء الأطباء المشهورين من السابقين والمعاصرين، وكذلك تدوين المشاهدات الخاصة بهم واختباراتهم الشخصية".^(٢)

٣ - حضور الدروس المنظمة التي كان يعقدها الموصوفون بصناعة الطب، وقد وصف لنا ابن أبي أصيبعة الدروس الطبية التي كان يعقدها شيخه الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار المتوفى سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٠م)،^(٣) حيث قال: "وكان الشيخ مهذب الدين رحمه الله إذا تفرغ من البيمارستان، وافتقد المرضى من أعيان الدولة وأكابرها وغيرهم، يأتي إلى داره؛ ثم يشرع في القراءة والدرس والمطالعة، ولا بد له مع ذلك من نسخ، فإذا فرغ منه أذن للجماعة فيدخلون إليه ويأتي قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين، وكان يقرأ كل واحد منهم درسه، ويبحث معه فيه، ويفهمه إياه بقدر طاقته، ويبحث في ذلك مع المتميزين منهم إن كان الموضوع يحتاج إلى

(١) إبراهيم المزيني. المدارس الطبيّة المتخصصة. ص ٣٦٨.

(٢) إبراهيم المزيني. المدارس الطبيّة المتخصصة. ص ٣٦٨.

(٣) هو الصدر العالم الفاضل أبو محمد عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار أوجد عصره وفريد دهره وعلامة زمانه انتهت إليه رئاسة الطب ومعرفتها وتحقيق كلياتها وجزئياتها، ولد ونشأ بدمشق كحالا مشهوراً، وكتب في الطب، واشتغل بالعربية، وخدم الملك العادل الأيوبي بصناعة الطب، وخدم بالبيمارستان النوري الكبير بدمشق، واجتمع عليه خلق كثير لدراسة الطب منهم الطبيب ابن أبي أصيبعة صاحب المعجم المشهور، وصنف كتباً كثيرة قيل إنها بلغت أكثر من مائة مجلدة، وكانت وفاته بدمشق في شهر صفر سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٠م). (الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج ٢٢ ص ٣١٦-٣١٧).

فضل بحث، أو فيه إشكال يحتاج إلى تحرير، وكان لا يقرئ أحداً إلا وبيده نسخة من ذلك الكتاب يقرأه ذلك التلميذ، ينظر فيه ويقابل به".^(١)

ب: الناحية العملية التطبيقية:

لقد اتبع الأطباء المسلمون الطريقة العملية الصحيحة في دراسة الطب وتشخيص الأمراض وعلاجها والمسامة حديثاً بالطريقة الكلينيكية أو السريرية، والتي لم يأخذ بها الغرب إلا في عصور متأخرة وكانت هذه الطريقة تشمل ما يأتي:

١ - مراقبة المرضى وملازمتهم داخل البيمارستانات للتعرف على أمراضهم وما يوصف لهم من علاجات وأثر تلك العلاجات على حالة المرض وتدوين ذلك كله في مذكراتهم.^(٢)

٢ - مراقبة كبير الأطباء عند فحصه ومعالجته للمرضى ومرافقته في المرور على المرضى لتفقد أحوالهم. يقول ابن أبي أصيبعة عن شيخه الطبيب مهذب الدين الدخوار: "لازمته أيضاً في وقت معالجته للمرض بالبيمارستان فتدربت معه في ذلك وباشرت أعمال صناعة الطب"^(٣) ثم يقول: "فكنت بعد ما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المقيمين بالبيمارستان، وأنا معهم، أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبي فأعابن كيفية استدلاله على الأمراض، وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم، وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداواتها".^(٤)

(١) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنبياء. ص ٦٨٣.

(٢) إبراهيم المزيني. المدارس الطبية المتخصصة. ص ٣٦٩.

(٣) عيون الأنبياء. ص ٦٨٣.

(٤) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنبياء. ص ٦٨٢-٦٨٣.

٣ . حضور المناقشات والمناظرات والاجتماعات العلمية التي كانت تدور بين أساتذة الطب حول مرض لم يظهر لمعالجة أو مريض لم يتوصل الطبيب لتشخيص مرضه. يشير إلى ذلك ابن أبي أصيبعة وهو يترجم لشيخه الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم المتوفى سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م)، فيذكر أن أبا المجد كان يدور على المرضى بالبيمارستان الكبير النوري بدمشق ويتفقد أحوالهم، ويعتبر أمورهم وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى، فكان جميع ما يكتبه لا يتوخر عنهم، وكان بعد فراغه من ذلك وطلوعه إلى القلعة وافتقاده المرضى من أعيان الدولة يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان، وجميعه مفروش، ويحضر كتب الاشتغال، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه، ويقعدون بين يديه؛ ثم تجرى بينهم مباحث طبية، ويقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات؛ ثم يركب إلى داره.^(١)

ثم يشير إلى ذلك ابن أبي أصيبعة أيضاً في موضع آخر وهو يترجم لشيخه الطبيب مهذب الدين بن الدخوار فيقول: "وكان في ذلك الوقت أيضاً معه في البيمارستان لمعالجة المرضى الحكيم عمران وهو من أعيان الأطباء وأكابرهم في المداواة والتصريف في أنواع العلاجات، فتضاعفت الفوائد المقتبسة من اجتماعهما، ومما كان يجري بينهما من الكلام في الأمراض ومداواتها وما كانا يصفاه للمرضى".^(٢)

(١) عيون الأنبياء. ص ٥٨١.

(٢) عيون الأنبياء. ص ٦٨٢-٦٨٣.

٤ - القيام بدراسات عملية على المرضى وتجربة العلاجات الجديدة عليهم وتدوين ذلك مع الحرص على عدم المجازفة في الأمر، أو إصابة أي مريض بأي أذى. ومن ذلك التجارب التي كان يقوم بها الطبيب صاعد بن بشر بن عبدوس^(١) في بيمارستان بغداد، فقد خالف القدماء لأول مرة بمعالجة كثير من الأمراض التي اشتهرت معالجتها بالأدوية الحارة إلى المداواة بالتبريد والترطيب والحجب عن الغذاء والمداواة بماء الشعير، ومياه البزور فأظهر في المداواة عجائب^(٢).



(١) ويكنى أبا منصور، كان أول أمره فاصداً في البيمارستان ببغداد؛ ثم اشتغل في صناعة الطب وتميز بها حتى صار من أربابها، وكان أول من نبه إلى استبدال الأدوية الحارة في معالجة أكثر الأمراض إلى المداواة بالفصد والتبريد والترطيب ومنع المرضى من الغذاء، فأشتهر في ذلك وبرز به ولم تعلم سنة وفاته. له مقالة في مرض المراقيا ومداواتها. (ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٢٨٩-٢٩٠).

(٢) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٢٨٩.

المبحث الخامس: المكتبات:

تُعد المكتبات من الأمور التي تستند عليها مختلف الجهود الثقافية في أي علم من العلوم وفي أي مجتمع من المجتمعات لدرجة انه يمكن اعتبارها معياراً لتقدم ذلك المجتمع أو هذا العلم.

من هذا المنطلق نجد اهتمام الملوك والأمراء والأثرياء في مختلف العصور بإنشاء المكتبات والصرف عليها لتكون مراكز لطلبة العلم في مختلف ميادين العلوم مجموعة في مكان واحد كي يسهل على طالب العلم الإطلاع عليها والاستفادة منها مما كان له أثره في ازدهار كثير من العلوم وازدهارها.

وحيث تعرفنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة إلى أقسام البيمارستانات التعليمية، ومن خلال ذلك تمّ التطرق بشيء من الإيجاز إلى ذكر المكتبات الطبية باعتبارها جزءاً من حركة التعليم في ذلك العصر لذا نرى اهتمام منشئي البيمارستانات بتزويدها بالمكتبات التي تضم المؤلفات الطبية في مختلف أفرع الطب وميادينه لتجمع في خزانة يرجع إليها طلبة الطب مع أساتذتهم ويتباحثون فيها.

وأوضح مثال لذلك ما أوقفه الملك نور الدين محمود بن زنكي على بيمارستانه في دمشق حيث أوقف جملة كبيرة من الكتب الطبية، ذكر ابن أبي أصيبعة أنها كانت في الخريستانين اللذين في صدر الإيوان.^(١)

كما أشارت المصادر إلى أنّ الطبيب ابن النفيس المشهور (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) أوقف داره وكتبه على البيمارستان المنصوري، وكانت هذه المكتبة من الضخامة أن بلغت محتوياتها مئة ألف مجلد، وهكذا تتسع الحركة المكتبية في مصر المملوكية لتمدد فتشمل المكتبات المتخصصة في مجال الطب وذلك إدراكاً من رجال ذلك العصر لكافة متطلبات الحياة.^(٢)

(١) عيون الأنباء. ص ٥٨١.

(٢) السيد النشار. تاريخ المكتبات. ص ١٠٣.

ومن هنا قامت المكتبة بأعظم دور مما ساعد ذلك على زيادة فرص التعلم في ذلك العهد، كما أن تعظيم كثير من السلاطين والأمراء المماليك للعلم وأهله، وشعور الأطباء بواجبهم العلمي، وتنافسهم في أدائه، قد أدى إلى انتشار حركة الدراسة والتأليف والبحث في المجال الطبي، والدليل على ذلك ما خلفه لنا علماء ذلك العصر من تراث علمي ضخم،^(١) فكانت المكتبة المملوكية بكتبها الكثيرة وسيلة جيدة، وقوة دافعة وإيجابية في حياة البيمارستان، وبالإضافة إلى ما قامت به من حفظ للتراث الإسلامي والحضارة الإسلامية. كما أسهمت في تخريج عدد كبير من الأطباء و الصيادلة.^(٢)



(١) يمكن أن يشار هنا إلى مجموعة من مصنفات أطباء العصر المملوكي ممن وردت الإشارة إليهم ضمن من تولى مهنة التطبيب وتعليمه في بيمارستانات ذلك العصر.

(٢) علي سالم النباهين. نظام التربية الإسلامية. ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

المبحث السادس: الاختبارات والإجازات الطبية:

لم يكن لصناعة الطب في بداية الدولة الإسلامية ضابط أو قيد، وإنما كان أحدهم إذا أراد أن يكون طبيباً يكفيهِ بأن يقرأ كتاباً من الكتب الطبية المشهورة على أحد أطباء عصره، فإذا أحسَّ من نفسه أنه تعلم الصنعة مارسها دون امتحان، وبقيت الحال كذلك حتى أوائل القرن الرابع الهجري أيام الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ / ٩٠٧-٩٣٢م) الذي وضع نظاماً معيناً لصناعة الطب، وفرض على من يريد ممارسة الطب أو تدريسه تأدية امتحان ينال النجاح فيه إجازة يسمح له بعدها بمزاولة هذه المهنة تطبيقاً أو تدريساً، ولعل مما دعا الخليفة المقتدر إلى هذا الإجراء هو ما رواه ابن أبي أصيبعة عن ثابت بن سنان^(١) قوله: "ولما كان في سنة تسع عشرة وثلاثمائة اتصل بالمقتدر أن غلطاً جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل، فأمر إبراهيم بن محمد بن بطحا بمنع سائر المتطببين من التصرف إلا من امتحنه والدي سنان بن ثابت^(٢) وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له من الصناعة. فصاروا إلى والدي وامتحنهم، وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه، وبلغ عددهم في جانبي بغداد ثمانمائة رجل ونيفاً وستين رجلاً، سوى من استغنى عن مهنته باشتهاره بالتقدم في صناعته، وسوى من كان في خدمة السلطان"^(٣).

ومنذ ذلك الحين ساروا في جميع بلاد المسلمين على نظام الامتحانات، وأصبح طالب الطب متى ما أتمَّ دروسه في الطب يتقدم إلى رئيس الأطباء في بلده يطلب منه إجازة في ممارسة هذه الصنعة.

(١) هو أبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قررة كان طبيباً فاضلاً خدم في صناعة الطب عدداً من الخلفاء العباسيين في بغداد، وله كتاب مشهور في التاريخ، كانت وفاته سنة ٣٦٣هـ (٩٧٣م). (عيون الأنباء. ص ٢٨٠-٢٨٣).

(٢) هو أبو سعيد سنان بن ثابت بن قررة برز في الطب، وله قوة في علم الهيئة. وقد خدم الخليفة العباسي المقتدر بالله والقاهر؛ ثم الراضي بالله، وتوفي ببغداد مسلماً سنة ٣٣١هـ (٩٤٣م). (النديم. الفهرست. ص ٥٤٩-٦٠٠).

(٣) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٢٧٨.

وتمثل الإجازات الطبية مظهرًا مهمًا من مظاهر تطور الطب في عصر المماليك حيث تضمن لصاحبها ممارسة الطب وقدرته على تعليمه، وقد كانت بيمارستانات الدولة المملوكية مراكز علمية لتلقي هذا العلم إلى جانب كونها مراكز علاجية لممارسة مهنة الطب، وكان الأطباء فيها يحصلون على تلك الأجازات الطبية فيما تلقوه على مشايخهم ورؤسائهم في علم الطب علمًا وممارسة سواء في مجالٍ عام أو في تخصص دقيق منه.

وقد تعرض الطبيب مهذب الدين بن هبل المتوفى سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) في كتابه الكبير المختارات في الطب لمؤهل الطبيب وامتحانه فقال: "مما يمتحن به الطبيب حتى يوثق بعلمه وعمله أن ينظر في ماذا أنفق زمانه إن كان الاشتغال بهذه الصناعة، وملازمة خدمة الكبراء من أهلها، وطول ملازمتهم والقراءة عليهم، والعلاج بين أيديهم، والتدريب على الدخول إلى المرضى في بيوتهم، وملازمة خدمة البيمارستان الذي يجتمع فيه حدّاق الأطباء، وكثرة نظره إلى معالجة الأستاذ، فيشار إليه ويعدّ عليه، وكذلك هل يثني عليه الناس لحسن سيرته وديانته، وأن همته إذا خلا في بيته مطالعة الكتب ودراسة هذه الصناعة"^(١).

وكتب الطب مليئةً بالتعليقات والشروحات التي تبين اشتهاار الإجازات الطبية بين أطباء ذلك العصر، ولعله باستقراء العديد من الإجازات العلمية التي تمنح لطلبة العلم في ذلك العصر يتأكد إن للإجازة أركان ضرورية أربعة هي: المُجيز، والمُجاز، والمُجاز به، ولفظ الإجازة، وتختلف أنواع الإجازة من

(١) ابن هبل، أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن هبل البغدادي (ت ٦١٠هـ / ١٢١٣م). المختارات في الطب، الهند: مطبعة دائرة المعارف العثمانية. ج ١، ص ٧-٦.

حيث جواز العمل بها باختلاف تلك الأركان.^(١)

وكان طالب الطب يتقدم إلى أستاذه برسالة في الفرع الذي يودُّ التخصص فيه كالجراحة مثلاً أو الكحالة، وهذه الرسالة أشبه ما تكون بالأطروحة في زماننا هذا، وتكون الرسالة إما تأليف الطالب نفسه، أو لأحد الأطباء المتقدمين أو المعاصرين فيمتحنه فيها وبما يتعلق بالطب بصورة عامة والفرع الذي تخصص به الطالب بصورة خاصة، فإذا اقتنع الأستاذ بأجوبته ومقدرته على ممارسة المهنة أخذ منه عهد أبقرراط في الطب، وأذن له بالعمل بإعطائه إجازة يحق له بموجبها ممارسة هذه الصناعة.^(٢)

وحرصاً على تنفيذ اللائحة الطبية فيما يتعلق بالامتحانات وتخصيص الأطباء، فقد وضع القائمون على هذه الصناعة امتحاناً في كل فرع من فروع الطب. وكان الجراح يمتحن في مادتي علم التشريح وعلم الجراحة للوثوق من مدى معرفته بأمور معالجة الكسور وإصلاح الخلل الصحي وتفتيت الحصى وإزالة اللوزتين الملتهبتين وشتى الدمامل وبضع الأعضاء المهترئة، وكان الطالب إذا نجح يمنح إجازة تجيز له مهنة الطب تخصص الجراحة، وهي تنص بعد البسمة على منح الطالب حق ممارسة مادة تخصصه حتى شفاء المريض، كما تذكر حقه في فصد العرق وإزالة البواسير وخلع الأسنان وخياطة الجروح وختان الرضع... كذلك تحتم عليه وجوب استشارة رؤسائه ومعلميه ذوي الخبرة، والمعرفة.^(٣)



(١) إبراهيم المزيني. الحياة العلمية. ص ٢٢٢.

(٢) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات. ص ٤٣.

(٣) زيفريد هونكه. شمس العرب تسطع على الغرب، وقد أوردت نموذجاً لشهادة حصل عليها طبيباً مختصاً بالجراحة. ص ٢٣٨-٢٤٢.

الفصل السادس

الأثر الاجتماعي للبيمارستانات

- المبحث الأول: علاقة الأطباء بالسلطين والأعيان.
- المبحث الثاني: علاقة الأطباء بالفقراء وعامة الناس.
- المبحث الثالث: أثر البيمارستانات في مواجهة الأزمات الاجتماعية.
- المبحث الرابع: الأثر الاجتماعي على المرضى داخل البيمارستان.
- المبحث الخامس: الأثر الاجتماعي على المرضى خارج البيمارستان.

تعرفنا فيما سبق على ما مرَّ به العصر المملوكي من اختلال للحالة الصحية، نتيجة العديد من الظروف التي مرَّت بذلك العصر كان من أهمها ما أصاب البلاد من كوارث وأوبئة متتالية، نتيجة لذلك كانت البيمارستانات الميدان المناسب لتتبع أحوال المرضى، ومقاومة الأمراض الناتجة، والعمل على الحدِّ من انتشارها، وما برزت به تلك البيمارستانات باعتبارها المكان الأنسب لتلقي العلوم الطبية، وتبيان ذلك الأثر الذي تركته تلك البيمارستانات في مجال تعليم الطب. إلا أننا هنا - وفي هذا الفصل - نتبين الأثر الاجتماعي الذي تركته تلك البيمارستانات من حيث كونها نسق اجتماعي يقدم نوعاً من أنواع الرعاية الاجتماعية المهمة في ذلك العصر، وذلك وفق المباحث الآتية:

المبحث الأول: علاقة الأطباء بالسلطين والأعيان:

لقد أبدى السلطين في العهد المملوكي اهتماماً كبيراً بإنشاء البيمارستانات، وأمتدَّ ذلك إلى تشجيع السلطين والأمراء للأطباء وتحفيزهم وإعطائهم العطايا السخية الوافرة، ومنهم من أفرد طبيباً خاصاً أو أكثر لخدمته، حيث اهتم السلطين والأمراء وأهل الخير بالتقرب إلى الله سبحانه وتعالى من طيبات أموالهم بأوقاف وقفوها على البيمارستانات لتستمر في أداء رسالتها، ويشير الواقف في وثيقته إلى الغرض من وقف هذا البيمارستان ويعدد المنتفعين به، كما يعدد الأمراض التي تعالج فيه، مما يعطينا صورة واضحة عن مدى أهمية هذا البيمارستان، والأثر الاجتماعي والصحي الذي قامت به لمختلف فئات الشعب في العصر المملوكي.

وكان لذلك التشجيع أثراً واضحاً في تجمع صفوة الأطباء المرموقين في البلاد المملوكية من مختلف الأمصار الإسلامية، وقد وجد هؤلاء الأطباء القادمون التقدير المناسب من السلطين والموسرين، حيث أكرمهم ومنحهم الضمانات الكافية لأداء وظائفهم في بيئة اجتماعية مناسبة، وقد تابع هؤلاء سير أعمال الأطباء بأنفسهم.

وكتب المصادر التاريخية والتراجم تفيض بذكر تلك العلاقة القائمة بين هؤلاء السلاطين والموسرين والأطباء البارزين في العصر المملوكي، من ذلك ما أشار إليه ابن أبي أصيبعة وهو يترجم لشهاب الدين ابن فتح الدين^(١) في أنه خدم بصناعة الطب الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الملك الصالح صاحب الديار المصرية الشامية.^(٢)

وكذلك أشار ابن أبي أصيبعة عندما ترجم لمهذب الدين أبي سعيد محمد ابن أبي حليقة^(٣) إلى أنه خدم السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بصناعة الطب، ولقي منه غاية الاحترام وأوفر الإنعام، والمنزلة العالية الجميلة، والعطايا الجزيلة.^(٤)

وفي الغالب أن هذه العلاقة تمتد لتصل إلى درجة عالية من الثقة التي يعطيها السلطان للطبيب وهذا ما حدث مع ابن البرهان الطبيب^(٥) حيث كان علمه بالطب أحسن من معالجته بخلاف ابن المغربي وكان كثير الأموال والتجارات وكان بينه وبين ابن المغربي منافسة، فسأل الناصر أن يعفيه من الخدمة بالطب وأن يكون تاجراً من تجار الخاص فقال الناصر نحن نعرف أنه

(١) أشار إليه ابن أبي أصيبعة باسم شهاب الدين ابن فتح الدين ونعته بأنه سيّد العلماء ورئيس الأطباء، علامة زمانه، وأوحد أوانه، قد جمع الفضائل، وتميز على الأواخر والأوائل، وأتقن الصناعة الطبية علماً وعملاً، وحررها تفصيلاً وجمالاً، وهو علامة وقته في حفظ الصحة ومراعاتها، وإزالة الأمراض وعلاجاتها. (ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٥٤٠-٥٤١).

(٢) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٥٤١.

(٣) هو مهذب الدين أبي سعيد محمد ابن أبي حليقة الطبيب كان مولده في القاهرة سنة ٦٢٠هـ، وأخذ الطب عن أبيه، وخدم السلطان الظاهر بيبرس بصناعة الطب، وله فيه مصنفات مشهورة، ولم تعلم سنة وفاته تحديداً إلا أنه كان حياً سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٨م). (عيون الأنباء. ص ٥٥٣-٥٥٤).

(٤) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٥٥٤.

(٥) هو محمد بن إبراهيم بن عبد الله صلاح الدين ابن البرهان الطبيب، أقرأه أبوه القرآن والطب ومهر في الكحل أولاً؛ ثم تصرف في الطب وكان مشاركاً في الحكمة والنجوم وتوفي سنة ٧٤٣هـ (١٣٤٢م). (ابن حجر. الدرر الكامنة. مج ٢، ج ٣، ص ١٧٥-١٧٦).

يأنف من كون ابن المغربي رئيساً، ولكن هو عندنا أكبر وأفضل من ابن المغربي فبلغه ذلك، ففرح وسكن خاطره ولم يزل على حاله حتى مات في جمادى الأولى سنة ٧٤٣هـ (١٣٤٢م).^(١)

ولقد عظم أمر هؤلاء الأطباء عند السلاطين والأمراء حتى وصلت خدمتهم إلى الدور السلطانية، ولقد أشار ابن فضل الله العمري عندما ترجم لفرج الله ابن صغير^(٢) أنه انفرد بخدمة الأمير بكتمر الساقي،^(٣) وكان يعتمد عليه دون سائر الأطباء ويعمل بقوله في معالجته ومعالجة ولده وحريره وخواصه وأعزائه، وأضاف ابن فضل الله العمري أن السلطان الناصر كان يثق به وأفرده بعد بكتمر الساقي لخدمة الدور السلطانية والنساء.^(٤)



(١) ابن حجر. الدرر الكامنة. مج ٢، ج ٣، ص ١٧٥-١٧٦.
(٢) هو فرج الله بن صغير، قرأ على أبيه وعلى ابن النفيس، واقتصر على علم الطب وحققه وأذن له في الكحل؛ ثم في الطب وجلس للتطبيب وعاد المرضى وظهر أثر علمه وكثر النفع به وبرأ المرضى على يده. (مسالك الأبصار. ج ٩، ص ٥٠٩).
(٣) كان من مماليك المظفر بيبرس فلما استقر الناصر في السلطنة بعد الكرك دخل في مماليكه وتقل إلى أن صار خصيصاً بالناصر، وكان جميع رؤساء المماليك يهادونه ويبالغون في التقرب لخاطره بكل ممكن، وكان يتلطف بالناس ويقضي حوائجهم وكان يحجز على الناصر في كثير من المظالم، وكان جيد الطباع حسن الجانب كثير الأموال جداً ومات في أوائل سنة ٧٣٦هـ (١٣٣٥م). (ابن حجر. الدرر الكامنة. مج ١، ج ١، ص ٢٨٦-٢٨٧).

(٤) مسالك الأبصار. ج ٩، ص ٥٠٩.

المبحث الثاني: علاقة الأطباء بالفقراء وعامة الناس:

لم يكن اسم الفقراء أو حالة الفقر خافية على منشئى البيمارستانات في العصر المملوكي، وهذا ما نراه جلياً حينما ينصُ الواقف في وثيقته ضمن الغرض من وقف بيمارستانه، ويعدّد المنتفعين به، ويجعل للفقراء اسماً في ذلك، كما حصل ضمن وثيقة وقف بيمارستان السلطان قلاوون بالقاهرة، بالتوكيد على ضرورة تقديم الرعاية الصحية لمختلف فئات الناس في العصر المملوكي، ومنهم هؤلاء الفقراء، إذ ورد فيها: "وهذا البيمارستان هو الذي وقّفه مولانا السلطان الملك المنصور الموكل الموقف عند خلد الله ملكه بيمارستاناً لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء المثريين والفقراء المحتاجين بالقاهرة، ومصر وضواحيهما، من المقيمين بهما والواردين إليهما من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وتباين أمراضهم وأوصابهم من أمراض الأجسام قلّت أو كثرت..."^(١).

من هذا المنطلق أصبح للفقراء سهم مقررّ في نظر أطباء ذلك العصر بتوجيه رواد الخير فيه، فتسابق الأطباء إلى خدمة هذه الفئة من فئات المجتمع في ذلك العصر إضافة إلى أن العلاقة الإنسانية والتعاطف مع المرضى أصلاً هو أحد المبادئ التي تُقدم عليها مهنة الطبابة، وهي سمة إنسانية من سمات هذه المهنة، لذا يجب أن يكون الطبيب ملتزماً تجاه مريضه بحيث يستحق الثقة التي أولاها له المريض، ولقد كان كثير من الأطباء محباً للخير شديد الشفقة على المرضى خصوصاً الفقراء منهم، فكان الطبيب يتفقدهم ويعالجهم ويوصل إليهم النفقة وما يحتاجونه من الأدوية والأغذية وهذا قمة التكافل الاجتماعي الذي شهدته حضارتنا الإسلامية، وشهد لها بذلك.

(١) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظة رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم (١٢).

ولقد أشار ابن حجر العسقلاني عندما ترجم لابن السراج الطبيب ذكر أنه كان كثير الإحسان للمحتاجين يعالجهم مجاناً ويعينهم من عنده.^(١)

ومن الأمثلة على شفقة الأطباء على المرضى الفقراء ما عامل به الرئيس علاء الدين^(٢) رئيس الأطباء بالديار المصرية الذي انتهت إليه معرفة العلاج، ومهر فيه، حيث كان يصف للفقراء الدواء بفلس، ويصف ذلك الدواء بعينه للغني بمئة.^(٣)

وبهذا نرى عظم اهتمام الأطباء بالناس كافة، بل إن نظرتهم الاجتماعية كانت هي الأساس في تلك العلاقة، وكانوا مترفعين عن الطمع حرصين على سلامة أفراد المجتمع وصحتهم غنيهم وفقيرهم، ومن أجل هذه الغاية الإنسانية، فقد اتصف الأطباء باتصال مباشر مع كافة أفراد الشعب في ذلك العصر متوخين الإخلاص في المهنة والأمانة فيها.



(١) الدرر الكامنة. مج ٢، ج ٣، ص ١٧٥، وهو محمد بن إبراهيم بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن يوسف بن روييل الأنصاري الغرناطي المعروف بابن السراج الطبيب، ولد سنة ٦٥٤هـ وقرأ الطب وكان عارفاً بالأعشاب وتوفي في ربيع الأول سنة ٧٣٠هـ (١٣٢٩م).

(٢) هو علي بن عبدالواحد بن محمد بن صغير الرئيس علاء الدين رئيس الأطباء بالديار المصرية وتوفي في ذي الحجة سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م). (ابن حجر. الدرر الكامنة. مج ٢، ج ٣، ص ٤٧).

(٣) ابن حجر. الدرر الكامنة. مج ٢، ج ٣، ص ٤٧.

المبحث الثالث: مواجهة البيمارستانات للأزمات الاجتماعية:

تطرقنا في الفصل الأول من هذه الدراسة إلى ما مرَّ به العصر المملوكي من انتشار للكوارث حيث واجهت المجتمع نوازل طبيعية تتمثل بزيادة أو نقصان النيل وكذلك الزلازل والسيول والرياح والآفات الحشرية، وما حدث جراء ذلك من خسائر مادية وبشرية، وتبع تلك الأحداث - في الغالب - ارتفاع في أسعار السلع بحيث أدى ارتفاع الأسعار الفاحش واحتكار المواد الغذائية الرئيسية في البلاد إلى انخفاض القدرة الشرائية، وبالتالي إلى إضعاف المقاومة للأمراض.^(١)

ومن الطبيعي أن يلجأ التجار إلى استغلال ظروف الأزمة أو المجاعة فيرفعون السعر، وتزداد أرباحهم زيادة فاحشة، فقد بلغت أرباح الواحد من التجار أثناء مجاعة (٦٩٥-٦٩٦هـ/١٢٩٥-١٢٩٦م) في عهد السلطان العادل كُتبغا،^(٢) ما بين مئة ومئتي درهم حيث وصل سعر القمح إلى تسعمئة درهم، والشعير إلى سبع مئة، فعظم الجوع، وانتهى الخبز من الأفران والحوانيت، حتى كان العجين إذا خرج إلى الفرن انتبه الناس فلا يحمل إلى الفرن، ولا يخرج الخبز منه إلا ومعه عدة يحمونه بالعصي من النهابة، فكان من الناس من يُلقى نفسه على الخبز ليخطف منه، ولا يبالي بما ينال رأسه وبدنه من الضرب، لشدة ما نزل من الجوع.^(٣)

وكان جراء ذلك تفشي كثير من الأوبئة والطواعين التي اجتاحت البلاد بصورة مفرجة، حتى لقد ضربت مصر بثمانية عشر طاعوناً في خلال ثلاثة

(١) حسن حبشي. الاحتكار المملوكي. ص ١٥٣.

(٢) هو الملك العادل زين الدين من المماليك البحرية وكانت فترة حكمه ما بين (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٤-١٢٩٦م)، وكانت وفاته في يوم النحر من سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢م).

(ابن حجر. الدرر الكامنة. مج ٢، ج ٣، ص ١٥٨-١٥٩).

(٣) المقريزي. إغاثة الأمة. ص ٤٧، ٥٠، ٥١.

أربع قرن من الزمان، أي بمعدل طاعون كل أربع سنوات تقريباً، ونتج عن هذا تدهور القدرة الإنتاجية للفرد في البلد وكثرة الموتى.^(١)

ولم تقتصر الأرباح على التجار والباعة فقط، فلقد كان للأطباء والصيدلة نصيباً في تلك الأزمات حيث يُطلب الأطباء، وتبذل لهم الأموال، وكثير تحصيلهم، فكان كسب الواحد منهم في اليوم مئة درهم، وكذلك تُطلب الأدوية للمرضى، فباع عطار برأس حارة الديلم من القاهرة في شهر واحد بمبلغ اثنين وثلاثين ألف درهم، وبيع من دكان يعرف بالشريف عَطوف بمثل ذلك.^(٢) ونجد أن سعر السكر والعسل والفواكه وكل ما يدخل في علاج المرضى يزداد سعره، حيث أُبيع الفروج بثلاثين درهماً، والبطيخة بأربعين، والبيض كل ثلاث حبات بدرهم.^(٣)

ولكن نجد البيمارستانات كمنشأة من منشآت الرعاية الاجتماعية تقف أمام هذه الأزمات الاجتماعية وقفه عظيمه، فلقد استطاعت الحد من أضرار الكوارث والتقليل من انتشار الأوبئة والأمراض في المجتمع المملوكي حيث وفرت خدمات جليلة بالمجان لكافة فئات الشعب حتى لا يتردد الفقراء والمحتاجون في طلب العلاج عند حاجتهم لذلك وهذا ما جاء في وثيقة السلطان قلاوون: "... وهذا البيمارستان هو الذي وقفه مولانا السلطان الملك المنصور الموكل الموقوف عند خلد الله ملكه ببيمارستانا مداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء المثريين والفقراء المحتاجين بالقاهرة، ومصر وضواحيهما، من المقيمين بهما والواردين إليهما من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وتباين أمراضهم وأوصابهم من أمراض الأجسام قلت أو كثرت، اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس، خفيت أو ظهرت...

(١) حسن حبشي. الاحتكار المملوكي. ص ١٥٣.

(٢) المقرئزي. إغاثة الأمة. ص ٥١.

(٣) المقرئزي. إغاثة الأمة. ص ٤٩.

وغير ذلك مما تدعو حاجة الإنسان إلى صلاحه وإصلاحه بالأدوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب، والاشتغال فيه بعلم الطب، والاشتغال به، يدخلونه جموعاً ووحداً، وشيوخاً، وشباناً، وبلغاً وصبياناً، وحرماً وولداناً، يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمدواتهم إلى حين بروئهم وشفائهم، ويصرف ما هو معدّ فيه للمداواة، ويفرق للبعيد والقريب، والأهلى وللغريب والقوى والضعيف، والذنى والشريف، والعلى والحقير، والغنى والفقير، والمأمور والأمير، والأعمى والبصير، والمفضول والفاضل، والمشهور والخامل، والرفيع والوضيع، والمترف والصعلوك، والمليك والمملوك، من غير اشتراط لعوض من الاعواض، ولا تعريض بإنكار على ذلك، ولا اعتراض، بل لمحض فضل الله العظيم...^(١)

و كان إذا عزّت بعض الأدوية في المدينة، وكانت متوفرة في المارستان، فإنها تقدم لمن يحتاجها، سواء عولج في المارستان، أو من طبيب خارجي.^(٢)

ولم يقتصر ذلك الأثر بما أشارت إليه الدراسة في هذا المبحث وإنما تعدى الأمر ذلك إلى مواجهة ما نتج عن هذه الأزمات من مظاهر الفقر والمجاعات التي يحتاج بمواجهتها إلى تدخل مالي ربما عجزت عنه المصروفات الحكومية آنذاك نتيجة لأضطرابات سياسية واقتصادية مشهورة فكانت أموال البيمارستانات وربما بعض فوائض الأوقاف فيها تسخر للصرف على هؤلاء، ففعل ذلك رئيس المجبرين والجراحين أبو زكريا بن عبدا لله حيث قسّم ريع وقفه إلى ثلاثة أثلاث فحدّد الثلث الأول ليصرف على البيمارستان المنصوري، ويصرف الثلث الثاني على فقراء الحرم الشريف، وحدّد مصروف الثلث الثالث على فقراء الحرم النبوي، وذكر أنه عندما يتعذر الصرف على فقراء أحد الحرمين فإنه يصرف لفقراء الحرم الآخر فإن تعذّر ذلك يصرف على

(١) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم ١٢.

(٢) الديوه جي. الموجز. ص ٦٥.

البيمارستان المنصوري بالإضافة لما هو معين له بالثلث الأول وذكر الواقف أنه عندما يتعذر الصرف على البيمارستان فإنه يصرف على الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام والمنقطعين حيث ذكر ذلك نصاً بالوثيقة: "... فالثلث الأول مصروف للبيمارستان المنصوري الكاين بخط بين القصرين على ما يراه الناظر ويودى إليه اجتهاده والثلث الثانى مصروف لفقراء الفقراء الحرم الشريف المكي شرفه الله تعالى وعظمه والثلث الثالث يصرف [لفقراء] الحرم الشريف النبوي بمدينة طيبة الشريفه... فان تعذر الصرف لفقراء الفقراء أحد الحرمين المشار إليهما أعلاه صرف لفقراء الفقراء الحرم الاخر فان تعذر والعياذ بالله تعالى صرف للبيمارستان المنصوري المذكور أعلاه مضافاً لما هو معين صرفه له أعلاه ليكمل جميع الريع المذكور للبيمارستان المذكور أعلاه فان تعذر الصرف للبيمارستان المذكور صرف للفقراء للفقراء والمساكين من المسلمين والمسلمات والأرامل والأيتام والمنقطعين أينما كانوا وحيثما وجدوا على ما يراه الناظر ويودى إليه اجتهاده..."^(١)

وكذلك ذكر في وقفية البيمارستان القيمري ما يدل على اهتمام الواقفين بالمحتاجين حيث حدد منشئه المصروفات على المرضى والأطباء والخدمات بالبيمارستان وشملت الوثيقة بعد ذلك مصروفات أخرى شملت الفقراء والمساكين من غير المرضى حيث قال: "... والمؤذن بالمسجد بقرب البيمارستان خمسة وعشرون درهماً، فإن فضل يصرف إلى فكاك الأسارى من الكفار، وبعد ذلك عاد وقفاً على الفقراء..."^(٢)

وبهذا نرى أنه من بين الدلائل المهمة على الاهتمام بالمجتمع المملوكي هو العناية بالشؤون الصحية للأفراد، وتوفير الرعاية الصحية لهم، عن طريق النهوض بالطب والأطباء وإعداد المنشآت الطبية وتزويدها بكل ما يكفل لها

(١) وثيقة وقف تربيته على البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه رقم (٢٤) وحجة رقم (١٥٤) لوحة رقم (١٦).

(٢) كرد علي. خطط الشام. ج ٦، ص ١٥٩.

الاستمرار في أداء وظيفتها، فضلاً عن توفير كل أسباب الرعاية الاجتماعية والعمل على رقي المجتمع والمحافظة عليه من الأوبئة والأمراض المنتشرة آنذاك. إلا أنه إلى جانب حصول مثل هذه الأوبئة الخطيرة في الدولة المملوكية، فقد كان يحدث أحياناً أن يتعرض الناس لأمراض عامة، إلا أنها غير مهلكة، ولكن يبدو أنها كانت تشل عجلة النشاط الإنساني اليومي مما يعيق حركة المساهمة الحضارية في ذلك المجتمع، وتدل من ناحية أخرى على عدم وجود الوعي الصحي الضروري للحيلولة دون تفشي هذه الأمراض، وكذلك إهمال بذل العناية اللازمة كي تستمر الممارسات القائمة في تقديم العلاج الناجح، والدواء المفيد، الأمر الذي يدعونا أن نسجل نتيجة مهمة حول الوضع السياسي المعاصر وقتذاك، وهي إهمال الحكام المماليك بذل الدعم المعنوي، والرعاية المادية لتلك المراكز الاجتماعية كي تستمر في تقديم العون المطلوب منها نحو المرضى والسقماء.^(١)



(١) حياة ناصر الحجري. أحوال العامة في حكم المماليك، ط٢. الكويت: دار القلم. (١٩٩٤م). ص٣٦٨.

المبحث الرابع: الأثر الاجتماعي على المرضى داخل البيمارستان:

ولم تقتصر وظيفة البيمارستانات الاجتماعية على تقديم التشخيص والعلاج لمرضى البيمارستانات، بل تعدتها إلى مراعاة المريض نفسياً واجتماعياً، من ذلك ما أُطلق عليه في عُرف المهنة بالسِر الطبي والذي يعني كتمان ما أُطلع عليه الطبيب من أحوال مريضه مما لا يجوز إفشاؤه.

وهذا الأمر نجده من أولويات الأخلاق التي يطالب بها الطبيب في أحد بنود القسم والذي نصه: " سوف أحتفظ بكل ما أراه أو أسمعه من أسرار الناس التي ينبغي ألا أكشف ما لا يجب ذكره مما تصل معرفتي إليه في حدود مهنتي أو خارجها أو في مخالطتي اليومية من الناس بل أكتمه سراً".^(١)

وقد نقل محمود الحاج قاسم عن الرازي شرطه في ذلك بقوله: " ينبغي للطبيب أن يكون رفيقاً بالناس حافظاً لغيبتهم كتوماً لأسرارهم... فإنه ربما يكون ببعض الناس من المرض ما يكتمه عن أخص الناس به مثل أبيه وأمه وولده، وإنما يكتمونه خواصهم ويفشونه إلى الطبيب ضرورة.."، وقد ضرب الأطباء المسلمون مثلاً بالتزامهم بهذا الشرط مع مرضاهم في حياتهم وحتى بعد مماتهم.^(٢)

كما أدرك القائمون على الحالة الصحية في ذلك العصر أهمية الترفيه على المرضى داخل البيمارستانات للتعجيل بشفائهم فوجدت بتلك البيمارستانات أنواع مختلفة من صور الترفيه لتسليه المريض، وكان الاهتمام بالترفيه على المرضى يبدأ منذ نشأه البيمارستان وذلك من خلال العناية باختيار أجمل المواقع لبناء البيمارستان، وما يبدعونه في تخطيطه وتزيينه

(١) محمود الحاج قاسم. الطب عند العرب والمسلمين. ص ٣٦١.

(٢) الطب عند العرب والمسلمين. ص ٣٦١.

بالنقوش والزخارف الجميلة، واتخاذ النافورات في أقسامه، وتدفق المياه إلى ساحاته وحدائقه، وما فيها من أشجار وأزهار ورياحين.^(١)

ولقد بلغ من حرصهم على راحة المريض أنهم كانوا يعدون له ثياباً لليل، وأخرى للنهار، وذلك حسب الموسم لإذهاب الملل عنه.^(٢)

ومن ضمن الخدمات كانت قاعات المرضى تدفأ بإحراق البخور أو تبرد بالمراوح الكبيرة الممتدة من طرف القاعة إلى الطرف الثاني، وكانت أرض القاعات تغطى بأغصان شجر الحناء أو شجر الرمان أو شجر المصطكي أو بعساليج الشجيرات العطرية.^(٣)

وأيضاً لم يغفل السلاطين عن حالة الجو في الصيف، فاشتروا ضرورة صرف مراوح من الخوص ليستخدمها المرضى في التخفيف من الحرارة الصيف.^(٤)، وثنى مكبات خوص لأجل استعمالهم إياها في الحر، يصرف الناظر ثمن ذلك من ريع هذا الوقف في غير إسراف ولا إجحاف، ولا زيادة على ما يحتاج إليه كل ذلك بحسب ما تدعو الحاجة، لزيادة الأجر والثواب...^(٥)

وبالإضافة إلى الخدمات التي يسعى السلاطين لتوفيرها داخل البيمارستان، عملوا على وضع الفراشين من الرجال والنساء لخدمه المرضى، والقيام بتجهيز كل قاعة بالأثاث الذي يريح المرضى من تخوت وفرش وطراريح ولحف ومخدات، فيكون لكل مريض تخت خاص به، وعليه من الفرش ما يؤمن راحته، وفي بعض البيمارستانات تكون الفرش من الكتان

(١) المقرئزي. السلوك. ج ٢، ص ١٧٥-١٧٦ (حاشية رقم ١).

(٢) أحمد عيسى بك. تاريخ البيمارستانات. ص ٨٧.

(٣) Gomara نقلاً عن أحمد عيسى. ص ١٠٢-١٠٣.

(٤) محمد محمد أمين. الأوقاف. ص ١٦٢-١٦٣.

(٥) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه

رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم ١٤.

والصوف والحرير، متقنه الصنع، جميله المنظر.^(١) وأشارت وثيقة قلاوون إلى ذلك حيث جاء فيها: "ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف ثمن ما تدعو حاجة المرضى إليه من سرر حديد أو خشب، على ما يراه مصلحة، ولحف محشوة قطناً، وطراريح محشوة بالقطن أيضاً، وملاحف قطن، ومخاد طرح، أو آدم محشوة على ما يراه، ويؤدى إليه اجتهاده... فيجعل لكل مريض من الفرش والسرر على حسب حاله، مما يقتضيه مرضه...".^(٢)

بالإضافة إلى وجود الحمامات داخل البيمارستانات وهناك الخاصة بالرجال والأخرى خاصة بالنساء، وهما للمرضى، ولمن يعمل في المارستان، وفيهما من يساعد المرضى على الاستحمام.^(٣)

وأمتدت العناية إلى الأهتمام بأعمال النظافة وغسل ملابس المرضى، والقيام بمختلف مصالحهم التي يحتاجون إليها، ونرى ذلك أنه عندما أنشأ قلاوون البيمارستان رتب فيه فراشين وفراشات لخدمة المرضى وإصلاح أماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم في الحمام، وقرر لهم على ذلك الجامكيات.^(٤) وكذلك وجد الفراشين والفرشاة لخدمة المرضى بالبيمارستان القيمري حيث جاء في وقفية القيمري تحديد لمصروفات هؤلاء في كل شهر.^(٥) كما نصت وثيقة الأشرف شعبان على تعيين ثمانية من الفراشين الفراشين والفرشاة وحددت عملهم على أكمل وجه من وجوه الرعاية بالمرضى، فذكرت أنه: "على كل واحد من الفراشين من الرجال والنسوة أن يتعاهد من بإزائه من المرضى يقوم بمصالحهم في شربهم وأكلهم وغسل ما يحصل منهم من الأوساخ وتنظيفهم وملازمتهم على العادة". ولم تكتف الوثيقة

(١) المقرئزي. الخطط. ج٤، ص٢٦٩.

(٢) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم ١٣.

(٣) الديوه جي. الموجز. ص٦٥-٦٦.

(٤) محمد محمد أمين. الأوقاف. ص١٦٣.

(٥) كرد علي. خطط الشام. ج٦، ص١٥٨.

بالزامهم بهذه الواجبات، بل ألفت عليهم واجباً أكبر من هذا وهو "أن يتقي كل منهم الله تعالى في ذلك ويعلم أنه رقيب عليه فيما هو لازم له من الخدمة"^(١).

وفي البيمارستانات الكبيرة بساتين واسعة، فيها أنواع الأشجار المثمرة، ويغرس فيها الأزهار والرياحين، يتخللها نافورات، يتدفق منها الماء، ويتوزع في أرجاء البستان وفي قاعات المرضى، وهذا ما عمل بالبيمارستان المنصوري فكان يمتاز بحدائقه الواسعة، وفيه أربعة أواوين فخمة، في كل واحد نافورة يتدفق منها الماء، ويدور في قاعات المرضى، وينساب فيسقي الأزهار والرياحين التي كانت تزين هذا البناء وما فيه من ساحات وأجنحة، مما لم يكن مثلها في بيوت المترفين،^(٢) وفي البيمارستان القيمري حديقة بها أصناف الورود والرياحين تفوح منها الرائحة الزكية التي تريح نفوس المرضى والمنومين وتزكي الأرواح داخل هذا البيمارستان، وبوسطه بركة عظيمة يأتي إليها الماء بناعورة مركبة على نهر يزيد دائماً بهدف تلطيف الجو.^(٣)

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل عملت البيمارستانات على توفير خدمات اجتماعية مختلفة ومن أروع الخدمات الإنسانية حيث كانت تراعى حالة المريض النفسية، فقد أشارت مصادر العصر إلى أن المؤرقين من المرضى كانوا يعزلون في قاعة منفردة يطربون آذانهم بسماع ألحان الموسيقى الشجية، أو يتسلون باستماع القصص يلقيها عليهم القصاص، وكان الناقهون منهم تمثل أمامهم الروايات المضحكة، ومشاهد من الرقص البلدي، وكان المؤذنون في المسجد الملاصق له يؤذنون في السحر قبل ميعاد الفجر بساعتين، وينشدون الأناشيد بأصوات ندية تخفيفاً للآلام المرضى وملهم الذين يضجرهم السهر وطول الوقت.^(٤)

(١) راشد القحطاني. أوقاف السلطان الأشرف شعبان. ص ١١٢-١١٣.

(٢) المقرئزي. السلوك. ص ١٧٥-١٧٦.

(٣) ابن طولون. القلائد الجوهريّة. ج ١، ص ٣٤٧.

(٤) مصطفى السباعي. من روائع حضارتنا، ط ١. بيروت: دار الورق للنشر والتوزيع. ١٤٢٠هـ.

(١٩٩٩م). ص ٢٣٠-٢٣١.

وعلى الرغم مما يشير السباعي وغيره مما كتب عن خدمات الترفيه في هذه البيمارستانات بهذه الصورة إلا أن الباحثة لا ترى إلزام الأخذ به لعدم الوقوف عليه في مصادر العصر بصفة صريحة.

وبهذا نرى أن غالبية السلاطين المماليك الذين اهتموا بالمنشآت المعمارية في الشام ومصر حرصوا على بناء مجموعة متكاملة الخدمات، أي بناء البيمارستان بجانب القبة والمدرسة وتسمى باسم منشئها مثل مجموعة السلطان قلاوون وهكذا، وبهذا نستنتج عظم فائدة وجود القبة والمدرسة بالقرب من البيمارستان.

كما تناسب الإشارة إلى أنه لم تصل إلينا أية معلومات عمّا عُرف في بعض بيمارستانات العصر المملوكي من علاج المرضى بالموسيقى والترفيه عنهم في البيمارستان المستصري بمكة المكرمة، ولعل هذا راجع إلى طبيعة مكة الدينية، بل إنه وردت إشارات إلى أنه رتب مؤذنون ينشدون على المآذن قبل الفجر بساعتين، بأنغام شجية تخفيفاً لعناء السهر على المرضى المؤرقين. غير أننا لا نستبعد أن يكون المؤذنون في الحرم المكي الشريف قد قاموا بهذه المهمة نظراً لملاصقة البيمارستان المشار إليه للحرم المكي.^(١)



(١) علي السيد. الرعاية الصحية. ص ١٤٦.

المبحث الخامس: الأثر الاجتماعي على المرضى خارج البيمارستان:

وما يشار إليه هنا أنَّ العناية الاجتماعية لبيمارستانات الدولة المملوكية لم تقتصر على المرضى ممن هم داخل البيمارستان فحسب، بل امتدت إلى من هم خارج البيمارستانات، وهذا يدل على أنَّ الحياة الصحية قد وصلت إلى درجة عالية من الرقي في ذلك العصر وتوّعت عطاءاتها وأغراضها حيث كان من التقاليد المتبعة في بيمارستانات العصر المملوكي الاحتفاء بمن يمن الله عليه بالشفاء وكسوته بما يليق لاسيما في عصور لم تعرف الإجازات المرضية بأجر أو نصف أجر، لذا يمنح المريض هبات مالية حتى لا يجبر على العمل فتتغير صحته لذلك يحتاج للراحة بعد خروجه، وهذا ما كان متبعاً في بيمارستان قلاوون، حيث جاء بوثيقة وقفه " أن من حصل له الشفاء والعافية ممن هو مقيم بهذا البيمارستان المبارك صرف الناظر إليه من ربع هذا الوقف المذكور كسوة مثله على العادة بحسب الحال من غير زيادة تقتضى التضييق على المرضى والقيام بمصالحهم".^(١)

ولم تقف هذه الخدمات الاجتماعية للبيمارستانات على الأحياء فقط بل أمتد الأثر إلى ما بعد الموت حيث كان من يتوفى من مرضى البيمارستان يكفن ويجهز وقد كان هذا تقليداً سائراً في البيمارستانات المملوكية كافة، فمن خلال وثيقة قلاوون فقد نصت على هذا النوع من الخدمات فيما يلي: " يصرف الناظر ما تدعو الحاجة إليه في تكفين من يموت بهذا المارستان من المرضى والمختلين الرجال والنساء، فيصرف ما يحتاج إليه برسم غسله، وثمان كفنه، وحنوطه، وأجرة غاسله وحافر قبره، ومداراته في قبره على السنة النبوية والحالة المرضية... فإن مات بين أهله صرف اليه الناظر في موته تجهيزه وتغسيله وتكفينه، وحمله إلى مدفنه، ومداراته في قبره ما يليق به بين أهله..".^(٢)

(١) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم (١٦).

(٢) وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظه رقم (١٣) وحجة رقم (١٥) لوحة رقم (١٥).

وبعد: فإله من هذا العرض قد اتضح لنا مدى الرعاية الاجتماعية والخدمية التي لقيها الناس في المجتمع المملوكي طوال ذلك العصر عن طريق منشآت البيمارستانات، والتي حظي بها جميع فئات الشعب صغاراً وكباراً، مما يؤكد لنا أن هذا العصر قد بلغ درجة كبيرة من التقدم والرقى والنظم التي تمس حياة الناس مما يعدُّ أساساً مهماً من أسس الرعاية الاجتماعية الحديثة.



الختومة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات ، والشكر له سبحانه على ما أنعم به من إتمام هذا البحث على هذا الوجه الذي أرجو أن يكون عملاً صالحاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكون وافياً بأهدافه. وبعد..

فإنه بعد الانتهاء من دراسة هذا البحث عن البيمارستانات في العصر المملوكي ودراسة لأوضاعها وآثارها في ذلك العصر، تبين للباحثة مجموعة من النتائج التي يمكن استخلاصها لتكوّن خاتمة لهذا البحث وفق الآتي:

أولاً: كشفت هذه الدراسة أنّ ما دعت الحاجة إليه من إنشاء البيمارستانات هو ما مُنِيَ به ذلك العصر من انتشار للكوارث والأوبئة والأمراض حيث تركت تلك الأمور أثراً بالغاً في الحالة الصحية في البلاد المملوكية، وبالتالي كان للبيمارستانات أثرها الواضح في مواجهة تلك الأوبئة والأمراض المنتشرة آنذاك.

ثانياً: عرضت الدراسة إلى حالة الانتعاش الاقتصادي الذي مرّ به العصر المملوكي مما أدى إلى حرص السلاطين والأمراء على إنشاء تلك البيمارستانات لتخليد ذكركم وبقاء هذه المنشآت شاهداً حياً لأعمالهم.

ثالثاً: أبانت الدراسة ما قامت به الأوقاف من دور كبير حيث عملت على دعم البيمارستانات، وبالتالي أدى ذلك إلى استمرارها في أداء وظيفتها حيث رصدت الدراسة اهتمام السلاطين المماليك والأمراء بالبر والخيرات وطلب المثوبة من الله وخصوصاً فيما يتعلق بضعاف الناس، فأنشأوا تلك البيمارستانات، وأوقفوا الأوقاف الدائرة عليها مما يعود ذلك على المجتمع المملوكي كافة بالخير.

رابعاً: ما أتبع من اشتراطات بيئية وفنية في إنشاء البيمارستانات في ذلك العصر، وهذا دليل على عظمة العمارة الإسلامية والتي لا تزال آثارها تتحدث عن نفسها ممثلة في تلك البيمارستانات وغيرها من المنشآت

المعمارية، وما بقي من هذه البيمارستانات يؤكد عظمة البناء وجمال التصميم.

خامساً: أمكن من خلال هذه الدراسة الكشف عن أنواع البيمارستانات سواء الثابت منها، أو المتقل، أو غيرها مما شهده ذلك العصر وكان لكل منها أثره المنشود بما يقوم به كل نوع من دور لخدمة المرضى.

سادساً: توصلت الدراسة إلى رصد موسّع لأعظم البيمارستانات في الدولة المملوكية كالبيمارستان النوري والمنصوري والأرغوني والمؤيدي والقيصري وغيرهما، بما حوته من أقسام، ودراسة لتطور أوضاعها.

سابعاً: تحدّثت الدراسة عن تلك الأقسام الفرعية داخل البيمارستان الواحد، وما قامت به تلك الأقسام من أثر علاجي وتعليمي ملموس بالإضافة إلى ما حوته البيمارستانات من مرافق تموينية وخدمية.

ثامناً: أمكن من خلال الدراسة الكشف عن أنواع الأدوية والعلاجات التي حوتها بيمارستانات ذلك العصر، وطريقة تحضيرها، وجودة أنواعها حيث قسّم الأطباء الأدوية إلى مفرد ومركب، وما يمتاز به كل نوع حيث تتم عملية تحضير الأدوية والعلاجات داخل البيمارستانات. كما أوضحت الدراسة أنّ هذه الأدوية مثلها مثل الخدمات الأخرى داخل البيمارستانات كانت تصرف لجميع المرضى بالمجان سواء من هم داخل البيمارستانات أم خارجه.

تاسعاً: الكشف على ما تمّ داخل بيمارستانات ذلك العصر من تنظيمات إدارية ومالية كان لها أثرها الواضح في أداء هذه البيمارستانات لأدوارها المنوطة بها، وقد حددت أوقاف البيمارستانات في ذلك العصر وظائف العاملين بها، وتنوعت هذه الوظائف حسب حاجة البيمارستان وأقسامه، وكانت المسؤوليات داخل البيمارستانات محدّدة وواضحة

لكل عاملٍ فيها ، مما يؤكد أن واقضي تلك البيمارستانات كانوا جادين في تحقيق الأهداف الصحية المنشودة، وتوفير الخدمات والرعاية للمرضى.

عاشراً: أبانت الدراسة الأثر العلاجي للبيمارستانات ومتابعة أحوال المرضى الصحية والعناية بهم، والاهتمام بأحوالهم الصحية سواء داخل البيمارستانات أم خارجها، ولقد كانت الوصفات العلاجية التي يصفها أطباء ذلك العصر حالهم حال أطباء المسلمين في كثيرٍ من تلك العصور تعتمد على الأعشاب والنباتات المتوافرة في بيئاتهم حيث تم التعرف على كثيرٍ من النباتات التي تستخدم في وصفات العلاج أو تركيب الدواء.

أحد عشر: كشفت هذه الدراسة أن الجيوش في ذلك العصر كانت تصطبج معها مجموعةً من الأطباء والمرضين والصيدلة للقيام بالمهام الطبية، ويمكن هنا أن يلفت النظر إلى أن طبيعة العصر المملوكي عصر مواجهات عسكرية سواء مع المغول أو الصليبيين مما يؤكد هذا الدعم. كما كان للمرأة المسلمة دورٌ في الحروب حيث عملن على تضמיד الجراح وجبر العظام وإيقاف الدماء النازفة من جراح المقاتلين.

اثنا عشر: كشفت الدراسة أثر التشجيع العلمي الواضح في تجمع صفوة الأطباء المرموقين في البلاد المملوكية من مختلف الأمصار الإسلامية، وقد وجد هؤلاء الأطباء القادمون التقدير المناسب من السلاطين والموسرين، حيث أكرمهم ومنحوهم الضمانات الكافية لأداء وظائفهم في بيئة اجتماعية مناسبة، وقد تابع هؤلاء سير أعمال الأطباء بأنفسهم.

ثالث عشر: ظهر من خلال هذه الدراسة ذلك الأثر التعليمي الذي تركته البيمارستانات في ذلك العصر في جانب تعليم الطب، وظهر أثر السلاطين ورجال الدولة في الاهتمام بالعلوم الطبية بشكل واضح من

خلال بناء البيمارستانات، وتخصيص أروقة تعليم الطب داخلها حيث أصبحت تلك البيمارستانات مدارس طبية مهمّة وأساسية لتعليم الطب. كما أبانت الدراسة إفراد إمكانية لإلقاء الدروس الطبية داخل البيمارستانات ليتزامن ذلك مع الدروس العملية التجريبية حضورياً على المرضى داخل البيمارستان حيث يتم تشخيص المرض ومعالجته بحيث عملياً مع ما درسه الطلبة نظرياً بإشراف الأطباء، كما أبانت الدراسة أنّ طرق وأساليب تدريس الطب تتنوع وتتعدد في ذلك العصر حيث كشفت هذه الدراسة عن نظم تعليمية مميزة في التعليم الطبي وكثرت العناية باتباع الأساليب المجدية في تعليم الطب.

رابع عشر: أوضحت الدراسة ظهور التخصص بعلم الصيدلة في ذلك العصر، فبالرغم من ارتباطه بالطب في كثير من العصور إلا أننا في الوقت نفسه نلمس هنا اتجاهاً واضحاً في العصر المملوكي للفصل بين المعرفة الطبية والمعرفة الصيدلانية بحيث يمكن القول أنّ التخصص في معرفة الأدوية والعقاقير النباتية والحيوانية والمعدنية كان من نصيب الصيدلي حيث إنّ الصيدلي هو الذي يعمل على جمع وتركيب الأدوية واختيار الأجود بالإضافة إلى التأليف في الأدوية المفردة والمركبة، إلا أنه تجدر الإشارة إلى أنّ عملية تعليم الصيدلة والعقاقير كانت تتم بجانب التعليم الطبي داخل البيمارستانات.

خامس عشر: تظهر الدراسة دور المكتبة الطبية في العملية التعليمية لعلم الطب بما تحويه من كتب طبية متخصصة، والتي كانت تدرس في غالبها داخل تلك البيمارستانات، وكذلك قامت المكتبات بأثر آخر مهم ألا وهو العمل على حفظ التراث الإسلامي والحضارة الإسلامية في هذا المجال، وبخاصّة الكتب الطبية القديمة التي أصبحت فيما بعد مصادر لتدريس الطب لدى مختلف الشعوب.

سادس عشر: أمكن من خلال هذه الدراسة الكشف عن الضابط والنظام لمن يريد أن يكون طبيباً ، حيث يقدم الطالب رسالة في إحدى فروع الطب كالجراحة مثلاً أو الكحالة ، أو أن يمتحن في أحد كتب الأوليين الطبية المتخصصة ، وينال الطالب بعد ذلك إجازة يسمح له بعدها بمزاولة مهنة الطب تطبيقاً وتدریساً ، وربما اكتفى له بأحدهما ، وهو ما يظهر من خلال ترجمات أطباء ذلك العصر.

سابع عشر: توصلت الدراسة إلى ذلك الارتباط بين الأطباء والسلطين والأمراء حيث لقي الأطباء التشجيع والاحترام من خلال تلك العلاقات ، ونال الأطباء بسببها وافر الأعطيات من هؤلاء السلطين والأمراء ، كما أنه كانت هناك صورة راقية من صور التكافل الاجتماعي الذي شهده ذلك العصر ، وهو تلك العلاقة التي تربط الأطباء بالأعيان وعامة الناس حيث عمل بعض الأطباء على تقديم العلاج بالمجان للفقراء والمحتاجين وهذا دليل على شفقة الأطباء وحبهم للخير.

ثامن عشر: توصلت الدراسة إلى ذلك الأثر الذي تركته البيمارستانات في الوقوف أمام الأزمت الاجتماعية ، حيث عملت على الحد من أضرار الكوارث ، والتقليل من انتشار الأوبئة والأمراض في المجتمع المملوكي ، والعمل على توفير كل أسباب الرعاية الاجتماعية المواجهة لذلك.

تاسع عشر: كما كشفت هذه الدراسة ما تقدمه البيمارستانات من خدمات اجتماعية متنوعة لتوفير الراحة للمرضى تلك الخدمات التي لم تقتصر على من هم داخل البيمارستان بل امتدت إلى من هم خارج البيمارستان بتقديم العلاج والغذاء اللازم لهم ، كما أن تلك الخدمات لم تقتصر على الأحياء فحسب ، بل شملت الأموات أيضاً بما يلزمهم من الكفن والتجهيز ، وهي صورة رائعة من صور العطاء الحضاري الذي سُجِّل لبيمارستانات ذلك العصر.

عشرون: تلفت الدراسة النظر إلى أن ما أصاب الديار المملوكية في بعض عصورها من أوبئة وأمراض خطيرة، فتكت بالناس وشلت عملية النشاط الإنساني، وأعاقت حركة المساهمة الحضارية في المجتمع، هذا الأمر كان من أسبابه في بعض العصور إهمال بذل العناية الصحية اللازمة للحيلولة دون تفشي الأمراض وشيوعها وقصور بعض البيمارستانات القائمة عن أداء مهماتها الوظيفية في تقديم العلاجات المناسبة والأدوية المفيدة لمواجهة ذلك، وربما ارتبط هذا الأمر بحالة من التدهور السياسي المصحوب بالانحطاط الاقتصادي الذي ربما أدى إلى اقتطاع السلاطين لبعض المدفوعات والمخصصات المقررة للمجال الصحي لتغطية بعض الاحتياجات المالية الأخرى بما أدى إلى تدني الخدمات الطبية اللازمة، وربما انعدامها وتوقفها في بعض العصور.

وأخيراً لعلّه من المناسب في ختام هذه الدراسة أن توصي الباحثة بالحاجة إلى توسيع الدراسات الحضارية المتصلة بتاريخ العلوم عند المسلمين وإنجازاتهم فيها، ومنها علم الطب، وتوجيه الطلبة والدارسين إليها، والتوكيد على تدريس ذلك ضمن خطط أقسام التاريخ والحضارة، وطلبة الطب بجامعةتنا، بهدف ربط الطلبة بحضارتهم عموماً، وتعريفهم بمنجزات أمتهم الحضارية في هذه المجالات، إضافة إلى الحاجة إلى تدريس أخلاق هذه المهنة وآدابها، وهي من الأمور التي أولها الأطباء والعلماء المسلمون عناية كبرى، ولهم فيها مصنفات فريدة ونافعة.

هذا وأسأل الله العليّ القدير أن ينفع بهذه الدراسة، وأن تكون قد أوفت فيما استهدفته، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله فاتحة كل خير وتمام كل نعمة.



ملاحق الرسالة

- قائمة بأسماء السلاطين المماليك وسني حكمهم.
- قائمة رصدٍ لبيمارستانات العصر المملوكي.
- قائمة رصدٍ للكوارث والأوبئة والأمراض في ذلك العصر.
- نسخ وثائقية لتواقيع ووصايا طبية.
- نصوص وثائقية عن بيمارستانات العصر.
- مجموعة صور فوتوغرافية لبيمارستانات العصر.
- صور لمجموعة من آلات الطب والجراحة المستخدمة في ذلك العصر.

الملحق الأول:

(١) قائمة بأسماء السلاطين المماليك وسني حكمهم.

أولاً : العهد البحري:

السلطان	زمن حكمه
المعز عز الدين أيك	٦٤٨ - ٦٥٤هـ / ١٢٥٠ - ١٢٥٧م
المنصور نور الدين على	٦٥٥ - ٦٥٦هـ / ١٢٥٧ - ١٢٥٨م
المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧ - ٦٥٨هـ / ١٢٥٨ - ١٢٥٩م
الظاهر ركن الدين بيبرس	٦٥٨ - ٦٧٦هـ / ١٢٥٩ - ١٢٧٧م
السعيد ناصر الدين محمد بركة خان	٦٧٦ - ٦٧٧هـ / ١٢٧٧ - ١٢٧٩م
العاذل بدر الدين سلامش	ربيع الأول - رجب ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م
المنصور سيف الدين قلاوون	٦٧٨ - ٦٨٩هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠م
الإشراف صلاح الدين خليل	٦٨٩ - ٦٩٣هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣م
الناصر ناصر الدين محمد (المدة الأولى)	٦٩٣ - ٦٩٤هـ / ١٢٩٣ - ١٢٩٤م
العاذل زين الدين كتبغا	٦٩٤ - ٦٩٦هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦م
المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٦ - ٦٩٨هـ / ١٢٩٦ - ١٢٩٨م
الناصر ناصر الدين محمد (المدة الثانية)	٦٩٨ - ٧٠٨هـ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨م
المظفر ركن الدين بيبرس	٧٠٨ - ٧٠٩هـ / ١٣٠٨ - ١٣٠٩م
الناصر ناصر الدين محمد (المدة الثالثة)	٧٠٩ - ٧٤١هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠م
المنصور سيف الدين أبو بكر	٧٤١ - ٧٤٢هـ / ١٣٤٠ - ١٣٤١م
الأشرف علاء الدين كجك	صفر - شوال ٧٤٢هـ / ١٣٤١م

(١) أعتد في نقل هذا الجدول على: صناعة الأسلحة الثقيلة والنارية في الدولة المملوكية (رسالة دكتوراه لم تنشر) مقدمة من عبدالله بن محمد النائل لقسم التاريخ والحضارة بكلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م) ص ٣٣٢ - ٣٣٥.

الملاحق

شوال ٧٤٢ - محرم ٧٤٧هـ / ١٣٤٢م	الناصر شهاب الدين أحمد
٧٤٣ - ٧٤٦هـ / ١٣٤٢ - ١٣٤٦م	الصالح عماد الدين إسماعيل
٧٤٦ - ٧٤٧هـ / ١٣٤٥ - ١٣٤٦م	الكامل سيف الدين شعبان
٧٤٧ - ٧٤٨هـ / ١٣٤٦ - ١٣٤٧م	المظفر سيف الدين حاجي
٧٤٨ - ٧٥٢هـ / ١٣٤٧ - ١٣٥١م	الناصر ناصر الدين حسن
٧٥٢ - ٧٥٥هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٤م	الصالح صلاح الدين صالح
٧٥٥ - ٧٦٢هـ / ١٣٥٤ - ١٣٦١م	الناصر صلاح الدين حسن
٧٦٢ - ٧٦٤هـ / ١٣٦١ - ١٣٦٣م	المنصور صلاح الدين محمد
٧٦٤ - ٧٧٨هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦م	الأشرف ناصر الدين شعبان
٧٧٨ - ٧٨٣هـ / ١٣٧٦ - ١٣٨١م	المنصور علاء الدين علي
٧٨٣ - ٧٨٤هـ / ١٣٨١ - ١٣٨٢م	الصالح صلاح الدين حاجي

ثانياً : العهد الجركسي:

السلطان	زمن حكمه
الظاهر سيف الدين برقوق (المدة الأولى)	٧٨٤ - ٧٩١هـ / ١٣٨٢ - ١٣٨٨م
المنصور صلاح الدين حاجي	٧٩١ - ٧٩٢هـ / ١٣٨٨ - ١٣٨٩م
الظاهر سيف الدين برقوق (المدة الثانية)	٧٩٢ - ٨٠١هـ / ١٣٨٩ - ١٣٩٨م
الناصر زين الدين فرج (المدة الأولى)	٨٠١ - ٨٠٨هـ / ١٣٩٨ - ١٤٠٥م
المنصور عز الدين عبد العزيز	ربيع أول - ربيع آخر ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م
الناصر زين الدين فرج (المدة الثانية)	٨٠٨ - ٨١٥هـ / ١٤٠٥ - ١٤١٢م
الخليفة العادل أبو العباس المستعين بالله	صفر - شعبان ٨١٥هـ / ١٤١٢م
المؤيد شيخ الدين شيخ	٨١٥ - ٨٢٤هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١م
المظفر شهاب الدين أحمد	محرم - شعبان ٨٢٤هـ / ١٤٢١م
الظاهر سيف الدين ططر	شعبان - ذو الحجة ٨٢٤هـ / ١٤٢١م

السلطان	زمن حكمه
الصالح ناصر الدين محمد	٨٢٤ - ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ هـ / ١٤٢٢ هـ
الأشرف سيف الدين برسباي	٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م
العزیز جمال الدين يوسف	٨٤١ - ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م
الظاهر سيف الدين جقمق	٨٤٢ - ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م
المنصور فخر الدين عثمان	٨٤٢ - ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م
الأشرف سيف الدين أینال	٨٥٧ - ٨٦٥ هـ / ١٤٥٣ - ١٤٦٠ م
المؤید شهاب الدين أحمد	٨٦٥ - ٨٦٥ هـ / ١٤٦٠ م
الظاهر سيف الدين خشقدم	٨٦٥ - ٨٧٢ هـ / ١٤٦٠ - ١٤٦٧ م
الظاهر سيف الدين يلباي	٨٧٢ - ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م
الظاهر سيف الدين تمرغا	٨٧٢ - ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م
الأشرف سيف الدين قايتباي	٨٧٢ - ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ - ١٤٩٥ م
الناصر ناصر الدين محمد (المدة الأولى)	٩٠١ - ٩٠٢ هـ / ١٤٩٥ - ١٤٩٧ م
الأشرف سيف الدين قانصوره خمسمائة	٩٠٢ - ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ - ١٤٩٦ م
الناصر ناصر الدين محمد (المدة الثانية)	٩٠٢ - ٩٠٤ هـ / ١٤٩٧ - ١٤٩٩ م
الظاهر سيف الدين قانصوره الأشرفي	٩٠٤ - ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ - ١٥٠٠ م
الأشرف سيف الدين جان بلاط	٩٠٥ - ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ - ١٥٠١ م
العادل طومان باي الأول	٩٠٦ - ٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م
الأشرف قانصوره الغوري	٩٠٦ - ٩٠٦ هـ / ١٥١٦ م
الأشرف طومان باي الثاني	٩٠٦ - ٩٠٦ هـ / ١٥١٧ م

الملحق الثاني:

قائمة رصدٍ لبيمارستانات العصر المملوكي

م	اسم البيمارستان	المدينة	المنسوب إليه	تاريخ إنشائه
١	البيمارستان النوري	دمشق	الملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكى	بعد ضمه لدمشق سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م).
٢	البيمارستان الكبير المنصوري (مارستان قلاوون).	القاهرة	السلطان المنصور سيف الدين قلاوون	٦٨٣هـ (١٢٨٤م)
٣	بيمارستان أرغون الكاملی.	حلب	الأمير سيف الدين أرغون الكاملی.	سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٤م).
٤	البيمارستان المؤيدي.	القاهرة	المؤيد شيخ المحمودي.	بين سنتي (٨٢١هـ) و (٨٢٣هـ)
٥	البيمارستان القيمري.	دمشق	الأمير سيف الدين القيمري.	في زمن منشئه المتوفى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م.
٦	مارستان مكة.	مكة	عمّره الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) وجدده السلطان الأشرف شعبان سنة (٧٧٧هـ).	سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٠م)
٧	مارستان المدينة.	المدينة	السلطان الظاهر بيبرس.	لم تُعلم سنة إنشائه
٨	مارستان الجبل.	دمشق	أقامه المماليك في أوائل حكمهم في دمشق.	لم تُعلم سنة إنشائه
٩	مارستان صفد.	صفد	سيف الدين تنكز.	في زمن منشئه المتوفى سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م
١٠	مارستان حصن الأكراد.	حصن الأكراد	بكتمر بن عبدالله الأشرفي.	سنة ٧١٩هـ (١٣١٩م)

الملاحق

١١	بيمارستان غزّة.	غزّة	الأمير علم الدين سنجر الجاولي.	في زمن منشئه المتوفى في رمضان سنة ٧٤٥هـ
١٢	بيمارستانا الرملة ونابلس.		فخر الدين محمد بن فضل الله القطبي.	في زمن منشئهما المتوفى سنة (٧٣٢هـ/١٣٣١م)
١٣	البيمارستان النصوري	الخليل	السلطان المنصور سيف الدين قلاوون	٦٨٠هـ (١٢٨١م)
١٤	البيمارستان الدقاعي بدمشق.	دمشق	دُقاق بن تُتُش السلجوقي (لعله نُسب إليه لإنشائه ضمن مرفق من مرافق دقاق في دمشق أو ضمن وقف له في هذا الموقع، ولذا غلب اسمه عليه).	٧٦٤هـ (١٣٦٢م)

الملحق الثالث:

(١) قائمة رصدٍ للكوارث والأوبئة والأمراض في ذلك العصر.

أولاً: الكوارث:

م	العام	سبب حدوث الأزمة	المصدر
١	١٢٦٣هـ/١٢٦٣م	انخفاض منسوب النيل	المقريزي - السلوك ج ١ ص ٥٠٦.
٢	١٢٨٧هـ/١٢٨٧م	سقوط البرد.	بيبرس المنصوري - زبدة ج ٩ ص ٢٤٣.
٣	١٢٩٤م/١٢٩٤هـ	انخفاض منسوب النيل ووقوع الوباء	بيبرس المنصوري - زبدة الفكرة ج ٩ ص ٢٨٦، المقريزي، السلوك ج ٣ ص ٨١٠.
٤	١٢٩٥هـ/١٢٩٥م	توقف زيادة النيل ونقصانه، هبوب رياح سوداء أضرت بالمحاصيل.	المقريزي - إغاثة ص - ٣٣، السلوك ج ٣ ص ٨١٤.
٥	١٢٩٦هـ/١٢٩٦م	انخفاض منسوب النيل وظهور الفئران.	العيني - عقد الجمان ص ٣٦٧، ابن إياس - بدائع ج ١ ص ٣٩٠.
٦	١٢٩٧هـ/١٢٩٧م	ظهور الفئران.	بيبرس المنصوري - زبدة ج ٩ ص ٣٠١.
٧	١٣٠٠هـ/١٣٠٠م	انتشار الوباء في الحيوانات	المقريزي - السلوك ج ٣ ص ٩٠٦.
٨	١٣٠٢هـ/١٣٠٢م	وقوع زلزال.	المقريزي - السلوك ج ٣ ص ٩٤٢.
٩	١٣٠٤هـ/١٣٠٤م	انخفاض منسوب النيل	ابن إياس - نشق الأزهار ورقة ٣٣٨ ب.

(١) أعتد في نقل هذه الجداول على كتاب الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي. - عثمان علي محمد عطا، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب (د . ت).

الملاحق

١٠	١٣٠٩/هـ٧٠٩	توقف زيادة النيل، الاحتكار.	بيبرس المنصوري - التحفة المملوكية ص١٩٢، أبو المحاسب النجوم ج٨ ص١٩٣، ابن إياس - بدائع ج١ ق١ ص٤٢٤
١١	١٣٢٠م/هـ٧٢٠	هبوط النيل قبل موعد الزراعة، انتشار الأمراض.	أبو المحاسن - النجوم ج٩ ص١٠
١٢	١٣٢٧م/هـ٧٢٨	هبوب رياح وانتشار الدود.	المقريزي - السلوك ج٢ ق١ ص٣٠٠.
١٣	١٣٣١م/هـ٧٣٢	فيضان عالي للنيل.	ابن الوردى - تتمة المختصر ج٢ ص٤٢٦.
١٤	١٣٣٥م/هـ٧٣٦	انتشار الوباء.	العيني - عقد الجمان ورقة ١٠١، ابن إياس - بدائع ج١ ق١ ص٤١٧
١٥	١٣٣٧م/هـ٧٣٨	هبوب رياح وسقوط البرد والمطر، وظهور الفئران.	المقريزي - السلوك ج٢-٢ ص٤٥٣، ٤٥٤.
١٦	١٣٣٨م/هـ٧٣٩	سرعة هبوط النيل قبل موعد الزراعة.	ابن إياس - نشق الأزهار ورقة ٣٤٨ أ.
١٧	١٣٤٣م/هـ٧٤٤	فيضان عالي للنيل.	ابن إياس - نشق الأزهار ورقة ٣٣٨ أ.
١٨	١٣٤٤م/هـ٧٤٥	هبوب الرياح، وسقوط المطر.	المقريزي - السلوك ج٢-٣ ص٦٧٣.
١٩	١٣٤٧م/هـ٧٤٨	اضطراب حالة النيل بين التوقف والزيادة وهبوب الرياح.	المقريزي - السلوك ج٢ ق٣ ص٧٥٣
٢٠	١٣٤٨م/هـ٧٤٩	انتشار الوباء الشهير بالفناء الكبير، وقد وقع للإنسان والحيوان.	أبو الحسن - النجوم ج١٠ ص٢١٠، ابن بهادر - فتوح النصر ورقة ٢٩٥، ابن إياس ج١ ق١ ص٥٣٠.
٢١	١٣٥٠م/هـ٧٥١	هبوط النيل قبل موعد الزراعة.	أبو المحاسن - النجوم - ج١٠ ص٢٥٠ ابن إياس - نشق الأزهار ورقة ٣٤٩ ب.

الملاحق

٢٢	١٣٥٤هـ/٧٥٥م	فيضان عالي للنيل.	المقريزي - السلوك ج٣ ق١ ص١٢.
٢٣	١٣٥٦هـ/٧٥٧م	سقوط المطر في غير مواعده.	المقريزي - السلوك ج٣ ق١ ص٢٨.
٢٤	١٣٥٨هـ/٧٦٠م	فيضان عالي.	ابن قاضي شبه - تاريخ ابن قاضي شبه ج٣ ص١٤٨ ، ابن إياس - نشق الأزهار ٣٤١ ب.
٢٥	١٣٥٩هـ/٧٦١م	فيضان عالي.	ابن إياس - نشق الأزهار ٣٤٢ أ.
٢٦	١٣٦٠هـ/٧٦٢م	وقوع الوباء.	ابن قاضي شبه - تاريخ ابن قاضي شبه ج٣ ص١٧٩.
٢٧	١٣٦٢هـ/٧٦٤م	هبوط النيل قبل موعد الزراعة.	ابن إياس - نشق الأزهار ورقة ٣٤٩ ب.
٢٨	١٣٧١هـ/٧٧٣م	فيضان عالي للنيل وثبوته إلى بعد فوات موعد الزراعة.	ابن حجر - إنباء ج١/ ص١٠ ، ابن قاضي شبهه - تاريخ ابن قاضي شبه ج٣ ص٣٩٧.
٢٩	١٣٧٣هـ/٧٧٥م	انخفاض منسوب النيل.	المقريزي - السلوك ج٣ ق١ ص٣١٨ ، ابن حبيب - درة الأسلاك ج٣ ورقة ٤٧٣.
٣٠	١٣٧٤هـ/٧٧٦م	هبوط النيل قبل الزراعة.	المقريزي - إغاثة ص٤٠ ، السلوك ج٣ ق١ ص٢٣٢ ، ابن حجر إنباء ج١ ص٧٢.
٣١	١٣٨٣هـ/٧٨٥م	فيضان عالي للنيل.	ابن حجر - إنباء ج١ ص ٢٧٦ ، ابن إياس - نشق الأزهار ورقة ٣٥٣ ، ابن الفرات - تاريخ ابن الفران ص٢٧.

الملاحق

٣٢	انتشار الطاعون.	ابن الفرات - تاريخ ابن الفرات صد ٢٧.	١٣٨٨هـ / ١٧٩٠م
٣٣	انتشار الوباء في الحيوانات.	الصيرفي - نزهة ج ١ صد ٣٤٧.	١٣٩١هـ / ١٧٩٤م
٣٤	هبوط النيل قبل موعد الزراعة.	المقريزي - إغاثة ج ١، ابن حجر - إنباء ج ١ ص ٤٧٧، أبو المحاسن النجوم ج ١٢ ص ١٤٣.	١٣٩٣هـ / ١٧٩٦م
٣٥	فيضان عالي	الصيرفي - نزهة ج ١ صد ٤٧٧.	١٣٩٤هـ / ١٧٩٧م
٣٦	الاحتكار وطرح البضائع.	ابن حجر - إنباء - ج ١ صد ٥٠٧، الصيرفي - النزهة ج ١ ص ٤٢٧.	١٣٩٥هـ / ١٧٩٨م
٣٧	هبوب رياح شديدة.	ابن حجر - إنباء ج ص ٢١.	١٣٩٧هـ / ١٨٠٠م
٣٨	انخفاض منسوب النيل.	ابن حجر - إنباء ج ص ٤٧٧، أبو المحاسن - النجوم ج ١٢ ص ١٤٣.	١٣٩٩هـ / ١٨٠٢م
٣٩	انخفاض منسوب النيل وتوقفه عن الزيادة، وانتشار الأمراض وهبوب الرياح.	العيني - عقد الجمان ورقة ٦٩، ابن إياس - نشق الأزهار ورقة ٣٣٩، المقريزي - السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١١٢٦.	١٤٠٣هـ / ١٨٠٦م
٤٠	فيضان عالي للنيل وهبوب رياح شديدة.	المقريزي - إغاثة ص ٤٢، ابن حجر - إنباء ج ٢ ص ٤٢، محمد مختار - التوفيقات ص ٨٤٣.	١٤٠٤هـ / ١٨٠٧م
٤١	انتشار الوباء ببلاد الصعيد في الإنسان والحيوانات.	المقريزي - السلوك ج ٤ ق ١ ص ١٩، ابن إياس - بدائع ج ١ ق ٢ ص ٧٣٨.	١٤٠٥هـ / ١٨٠٨م

الملاحق

٤٢	٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م	هبوب رياح.	المقريزي - السلوك ج٤ ق١ ص ١٣١.
٤٣	٨١١ هـ / ١٤٠٨ م	فيضان عالي للنيل.	ابن إياس - نشق الأزهار ٣٥٩ أ.
٤٤	٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م	فيضان عالي للنيل.	ابن حجر - إنباء ج٢ ص ٤٣٣.
٤٥	٨١٦ هـ / ١٤١٣ م	انتشار الطاعون.	العييني - السيف المهند ص ٣١٥. ابن حجر - إنباء ج ٣ ص ٨.
٤٦	٨١٨ هـ / ١٤١٥ م	ظهور الفئران.	ابن حجر - إنباء ج٢ ص ٤٣٣.
٤٧	٨١٩ هـ / ١٤١٦ م	توقف النيل عن الزيادة ونقصانه وانتشار الوباء.	ابن حجر - إنباء ج٣ ص ٩٣، ابن إياس - نشق الأزهار ٣٤١ ب، العيني - السيف المهند ص ٣٤٤.
٤٨	٨٢٠ هـ / ١٤١٨ م	توقف النيل عن الزيادة.	ابن إياس - نشق الأزهار ورقة ٣٤٢ أ.
٤٩	٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ م	سرعة هبوط النيل قبل موعد الزراعة، وسقوط مطر عظيم، وانتشر الدود.	العييني - عقد الجمان ص ٢٢٥، ابن حجر - إنباء ج ٣ ص ١٥٨، الصيرفي - نزهة ج ٢ ص ٤٢٠.
٥٠	٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م	انتشار الوباء.	الصيرفي - نزهة ج ٢ ص ٤٤٢.
٥١	٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ م	توقف النيل عن الزيادة.	العييني - عقد الجمان ص ٣٨٣، ابن حجر - إنباء ج٣ ص ٢١٩، أبو المحاسن - النجوم ج٤ ص ٩٧.
٥٢	٨٢٤ هـ / ١٣٢١ م	فيضان عالي للنيل.	ابن حجر - إنباء ج ٣ ص ٢٥٣.
٥٣	٨٢٦ هـ / ١٣٢١ م	فيضان عالي للنيل، وسقوط المطر الغزير لفترة طويلة.	العييني - عقد الجمان ص ١٨٣، ابن حجر - إنباء ج ٣ ص ٣٠٢.

الملاحق

٥٤	٨٢٣ هـ / ١٤٢٢ م	هبوب رياح.	ابن حجر — إنباء ج٣ ص٣٠١.
٥٥	٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م	توقف النيل عن الزيادة.	العيني — عقد الجمان ص٢٣٨ ، ابن حجر — إنباء ج٣ ص٣٢٧.
٥٦	٨٢٨ هـ / ١٤٢٤ م	قصور النيل وإهمال الجسور.	المقريزي — السلوك ج٤ ق ٢ ص٦٧٨ ، ابن حجر — إنباء ج٣ ص٣٥٠ ، الصيرفي — نزهة ج٣ ص٦٩.
٥٧	٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ م	انتشار الوباء في الحيوانات.	المقريزي — السلوك ج٣ ق٢ ص٧٠٩.
٥٨	٨٣٠ هـ / ١٤٢٦ م	توقف النيل عن الزيادة.	ابن إياس — نشق الأزهار ورقة ٣٤٢ أ.
٥٩	٨٣١ هـ / ١٤٢٧ م	هبوب رياح.	ابن حجر — إنباء الغمرج ص٣٣٩٩.
٦٠	٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م	سرعة هبوط النيل، وسقوط المطر الغزير، وهبوب الرياح.	العيني — عقد الجمان ص ٣٨١ ، ابن حجر — إنباء ج٣ ص٤٨١ ، الصيرفي — نزهة ج٣ ص١٥٥ ، ١٦٠.
٦١	٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م	انتشار الوباء في الإنسان والحيوان.	العيني — عقد الجمان ص٣٨١ ، ابن حجر — إنباء ج٣ ص٤٣٨ ، الصيرفي — نزهة ج٣ ص١٨٦.
٦٢	٨٣٦ هـ / ١٤٣٢ م	توقف النيل عن الزيادة، والاحتكار.	الصيرفي — نزهة ج٣ ص٢٦١
٦٣	٨٣٧ هـ / ١٤٣٤ م	هبوط النيل، وهبوب الرياح.	الصيرفي — نزهة ج٣ ص٢٧٣ ، ابن حجر — إنباء ج٣ ص٥١٠.
٦٤	٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م	فيضان عالي، وسقوط المطر الشديد.	الصيرفي — نزهة ج٣ ص٣١٨ ، ابن حجر — إنباء ج٣ ص٥٣٧ ، ٥٥٠.

٦٥	١٣٩ هـ / ١٤٣٥ م	الاحتكار .	الصيرفي - نزهة ج ٣ ص ٣٣٧، ابن حجر - إنباء ج ص ٣٧٤، العيني - عقد الجمان ص ٤٦٧.
٦٦	٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م	ظهور الجراد .	الصيرفي - نزهة ج ٣ ص ٤١٧
٦٧	٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م	فيضان عالي.	ابن إياس - نشق الأزهار ورقة ٣٥٠ أ.
٦٨	٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م	تذبذب حالة النيل بين النقصان والارتفاع.	أبو المحاسن - حوادث الدهور ج ١ ص ٢٤٨.
٦٩	٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م	توقف النيل عن الزيادة.	السخاوي - التبر المسبوك ج ٣١٠، أبو المحاسن - حوادث الدهور - ج ١ ص ٢٤٨.
٧٠	٨٥٩ هـ / ١٤٥٤ م	تقطع بعض الجسور.	أبو المحاسن - حوادث الدهور ج ١ ص ٤٦٦.
٧١	٨٦٠ هـ / ١٤٥٥ م	تصدير الغلال إلى البلاد الشامية.	أبو المحاسن - حوادث الدهور ج ١ ص ٤٩٣.
٧٢	٨٦١ هـ / ١٤٥٦ م	اضطراب سعر النقد.	أبو المحاسن - منتخبات من حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٩١.
٧٣	٨٦٤ هـ / ١٤٥٩ م	انتشار الطاعون	أبو المحاسن - النجوم ج ١٦ ص ١٣٧.
٧٤	٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م	توقف النيل عن الزيادة.	أبو المحاسن - منتخبات من حوادث الدهور ج ٣ ص ٤٢٤، ابن إياس - نشق الأزهار - ٣٤٤ أ، بدائع ج ٢ ص ٣٩٤.
٧٥	٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ م	توقف النيل عن الزيادة وهبوب الرياح.	أبو المحاسن - منتخبات من حوادث الدهور ج ٣ ص ٥٢٩

الملاحق

٧٦	٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م	توقف النيل الني عن الزيادة وانتشار الطاعون.	أبو المحاسن - منتخبات من حوادث الدهور ج٣ ص٦٧٦، ابن إياس - نشق الأزهار ٣٤٥ أ.
٧٧	٨٩٩ هـ / ١٤٩٣ م	توقف النيل عن الزيادة.	ابن إياس - بدائع ج٢ ص٢٨٤.
٧٨	٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ م	هبوب الرياح.	ابن إياس - بدائع ج٤ ص٦٠.
٧٩	٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م	وقوع الطاعون.	ابن إياس - بدائع ج٤ ص٧٦.
٨٠	٩١٦ هـ / ١٥١٠ م	قلة زيادة النيل.	ابن إياس - بدائع ج٤ ص٦٦.
٨١	٩١٧ هـ / ١٥١١ م	ظهور الفئران.	ابن إياس - بدائع ج٤ ص٢١٧.

ثانياً / الأوبئة والأمراض:

م	السنة	الحدث	المصدر
١	١٢٩٤ هـ / ١٢٩٤ م	حدث وباء وقع عقب أزمة اقتصادية وكان يموت كل يوم ألف لدرجة أن عجز الناس عن دفن الموتى .	العيبي - عقد الجمان - ص ٢٧٥ ، المقريري - السلوك - ج ١ ق ٣ ص ٨٠٩
٢	١٢٩٥ هـ / ١٢٩٥ م	استمر الوباء من العام الماضي وتزايد في هذا العام لدرجة أنهم أصبحوا يدفنون الأموات بغير غسل.	المقريري - السلوك ج ١ ، ق ٣ ص ٨١٤ ، ابن بهادر - فتوح النصر ص ١٨٤
٣	٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م	عمّ الوباء وفشت أمراض حادة فارتفعت أسعار ما يحتاج إليه المرضى.	المقريري - المقفى الكبير ج ٢ ص ٥٤٦ ، أبو المحاسن - النجوم - ج ٨ ، ص ١٩٢ .
٤	٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م	فشت أمراض حادة، ولم ينتشر الموت .	العيبي - عقد الجمان - مخطوط ورقة ٢٢ .
٥	٧٣١ هـ / ١٣٣٠ م	وباء يسير مات به بعض الأمراء الكبار.	ابن أبيك - كنز الدر- ج ٩ ، ص ٣٥٨ .
٦	٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م	وقع فناء ومات عدد كبير من الناس ووقع الغلاء عقب الفناء	ابن إياس - بدائع ج ١ ق ١ ص ٤١٧ .
٧	٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م	ابتدأ ظهور وباء الطاعون، وانتشر في أنحاء البلاد، وفني الكثير وأغلقت السواق لانعدام المترددين عليها.	أبو المحاسن - النجوم - ج ١٠ ص ١٩٨ ، ١٩٥ ، المقريري - السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ص ٧٧٢ .
٨	٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م	انتشر الوباء الذي بدأ في العام الماضي وكثر الموتى بحيث كان يموت بالقاهرة ما بين عشر آلاف إلى عشرين ألف نسمة في كل يوم .	المقريري - السابق الصحة نفسها ابن بهاد - فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر ورقة ٢٩٥ ، زكريا الأنصاري - تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين ورقة ٣١ .

الملاحق

٩	٧٦٢ هـ / ١٣٦٠ م	حدث فناء وكسببه كثرة المستتقات من فيض النيل، وكان يموت في كل يوم فوق الألفين .	ابن قاضي شهبة - تاريخه، ج٣، ص١٧٩، أبو المحاسن - النجوم ج١٠، ص٣١١.
١٠	٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م	فشت الطواعين والأمراض الحادة في الناس واستمر في رجب وشعبان ورمضان وبلغ عدد من يموت في اليوم ٣٠٠٠ فرد.	المقريزي - السلوك ج٣ - ق١ ص٨١، أبو المحاسن، النجوم، ج١١، ص١٧، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٢١٩.
١١	٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م	انتشر الوباء واستمر نحو أربعة أشهر وكان أكثر الموتى في الأطفال والغرباء.	ابن حبيب - تذكرة النبيه، ج٣، ص٣١٢، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٥.
١٢	٧٧٢ هـ / ١٣٧٠ م	كثرت الأمراض في فصل الخريف في القاهرة والوجه البحري وبلغ عدد الموتى نحو ٤٠٠ فرد في يوم.	ابن قاضي شهبة - تاريخه، ج٣، ص٣٨٢، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٠١.
١٣	٩٧٥ هـ / ١٣٧٣ م	وقع الوباء بعد أزمة اقتصادية وكان انتشاره في الإسكندرية والوجه البحري.	ابن حبيب - درة الأسلاك، فر دولة الأتراك، ج٣، ص٤٧٣.
١٤	٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م	ابتدأ الوباء في القاهرة وكثرة موت الفقراء والمساكين وارتفعت الأسعار.	المقريزي - السلوك - ج٣، ق١، ص٢٣٣، ابن حجر - الأنبياء ج١، ص٧٢.
١٥	٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م	انتشر الوباء في الإسكندرية وصار من يموت في كل يوم سبعمائة فرد.	المقريزي - السلوك، ج٣، ق١، ص٧٧٧.
١٦	٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م	حدث وباء في الإسكندرية واستمر إلى آخر السنة وكان يموت كل يوم مائة وخمسون نفساً.	ابن حجر - الأنبياء، ج١، ص٢١٤.

الملاحق

١٧	٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م	وقع طاعون بالإسكندرية وأدى إلى ارتفاع الأسعار. ج٤، ص ٤٩٩.	ابن حبيب - درة الأسلاك،
١٨	٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م	وقع طاعون بالقاهرة وارتفع سعر الفواكه ووصل عدد الموتى في كل يوم مئتين وخمسة وثلاثين نفراً.	ابن الفرات، تاريخه ص ٢٧.
١٩	٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ م	وقع وباء في الشرقية والغربية واستمر ثلاثة أشهر حتى خلت أكثر البلاد من سكانها.	العيني - عقد الجمان، ص ٣٩٠، ابن داود الصيرفي - النزهة - ج ١، ص ٤٧٢.
٢٠	٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م	فشيت الأمراض وتعطلت الأعمال وارتفعت الأسعار.	المقريزي، السلوك ج ٣، ق ٣، ص ١٠٠٣. اذ.
٢١	٨٠٦ هـ / ١٤٠٤ م	هبّت رياح الخماسيين محملة بالميكروبات التي أدت إلى انتشار الأمراض.	المقريزي - السابق ص ١١٢٦.
٢٢	٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م	فشى الطاعون في صعيد مصر حتى خلت عدة بلادها من سكانها.	المقريزي - السابق ج ٤، ق ١، ص ١٩.
٢٣	٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م	وقع الطاعون في شهر رمضان وكثر الموت فكان يموت في كل يوم في القاهرة ٢٥٠ نسمة واستمر هذا الطاعون إلى آخر السنة	المقريزي - السلوك - ج ٤، ق ١ ص ٤٢، ابن حجر - الإنباء، ج ٢، ص ٣٦٠.
٢٤	٨١٥ هـ / ١٤١٢ م	انتشر الطاعون وكثرت الوفيات وكان عدد من يموت كل يوم مائة وعشرون نفساً وارتفعت الأسعار	الصيرفي - نزهة النفوس - ج ٢، ص ٣٢٦، العيني - السيف المهند، ص ٣١٥، عقد الجمان - ص ١٦٥.
٢٦	٨١٩ هـ / ١٤١٦ م	وقع الفناء بالقاهرة وبلغ عدد الموتى كل يوم ٤٠٠ نسمة في شهر بيع الأول.	العيني - السيف المهند ص ٣٤٤، عقد الجمان، ص ٢٥٩، ابن حجر، الأبناء، ج ٣، ص ٨٧.

الملاحق

٢٧	٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م	انتشر الطاعون في ربيع الآخر وكثر الموت حتى بلغ عدد الموتى في شهر صفر إلى آخر ربيع الآخر ٧٦٥٢ نفساً.	العيني - عقد الجمان - ص ٣٦٢ ابن حجر - الأنباء - ج ٣، ص ١٩١، الصيرفي - نزهة، ج ٢، ص ٤٤٢.
٢٨	٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ م	كثر الوباء بالإسكندرية وما حولها .	العيني - عقد الجمان ص ٢٨٢.
٢٩	٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م	انتشر الطاعون ومات عدد كبير من الأطفال والعييد.	العيني - عقد الجمان - ص ٣٨١، المقرئ - السلوك - ج ٤، ق ٢، ص ٨٢٦.
٣٠	٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م	وقع الوباء ومات به خلق كثير.	ابن حجر - الأنباء - ج ٣، ص ٥٤٥.
٣١	٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م	في شهر رمضان دخل الطاعون الديار المصرية وبلغ عدد الموتى في شهر شوال ٢٠٠ فرد في كل يوم .	ابن حجر - الأنباء - ج ٣، ص ١٢، أبو المحاسن - النجوم، ج ١٥، ص ١٠٤.
٣٢	٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م	انتشر الطاعون بالقاهرة ووصل عدد الموتى في كل يوم ٥٠ فرداً وكان أكثرهم من الأطفال.	ابن حجر - الأنباء ج ٩، ص ٧١، المقرئ - السلوك، ج ٤، ق ٣، ص ١٠٩٨.
٣٣	٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ م	ابتدأ الطاعون بالديار المصرية في شهر ذي الحجة.	السخاوي - التبر المسبوك ص ٧٦، العيني - عقد الجمان - ص ٦١٩.
٣٤	٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ م	تزايد الطاعون وارتفع عدد الموتى فبلغ عددهم في كل يوم زيادة على مائة وعشرين وأكثر من يموت من الأطفال والرقيق.	ابن العماد الحنبلي - شذرات الذهب ج ٧، ص ٢٦١، أبو المحاسن - حوادث الدهور - ج ١، ص ٧١.
٣٥	٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م	دخل شهر المحرم والطاعون بين الناس وكان يموت في كل يوم زيادة على الألف.	السخاوي - التبر المسبوك ص ٢٥٣، أبو المحاسن - حوادث الدهور ج ١، ص ١٣٠.

الملاحق

٣٦	١٤٥٤هـ / ١٨٥٩م	انتهى شهر ربيع الآخر والطاعون موجود بالقاهرة ولكنه قليل جداً.	أبو المحاسن - حوادث الدهور، ج ١، ص ٤٥٠.
٣٧	١٤٥٩هـ / ١٨٦٤م	انتشر الوباء بعد أن ارتفعت الأسعار وكثر عدد الموت بحيث إنه إذا وقع في قرية فنى غالب من بها فازدادت الأسعار ارتفاعاً.	أبو المحاسن - النجوم، ج ١٦، ص ١٣٦: ص ١٤٦هـ
٣٨	١٤٦٨هـ / ١٨٧٣م	ابتدأ الطاعون بالإسكندرية مع ارتفاع الأسعار وبلغ عدد الموتى في شهر شعبان أربعة آلاف وأربعمئة فرد كل يوم.	أبو المحاسن - منتخبات من حوادث الدهور، ج ٣، ص ٦٧٨، ص ٧٠٣.
٣٩	١٤٧٦هـ / ١٨٨١م	أصيبت الديار المصرية بالطاعون وتوفى فيه جماعة كبير من المماليك والأطفال.	ابن إياس - بدائع، ج ٢، ص ١٧٠.
٤٠	١٤٩٧هـ / ١٤٩١م	انتشر الطاعون وكثرت الوفيات وبلغ عدد الموتى أكثر من ٢٠٠٠٠٠ فرد.	ابن إياس - بدائع - ج ٢، ص ٢٧٤.
٤١	١٤٩٧هـ / ١٩٠٣م	ظهر الطاعون بالقاهرة وتوفي به جماعة كبيرة من أهلها فبلغ عدد الموتى قرابة ٢٠٠٠٠ فرد.	ابن إياس - بدائع، ص ٣٣٨.
٤٢	١٥٠٣هـ / ١٩٠٩م	ظهر الطاعون بالديار المصرية ولكنه كان خفيفاً.	ابن إياس - السابق، ج ٤، ص ٦٣.

الملاحق

٤٣	١٥٠٤/هـ٩١٠م	انتشر الطاعون وكثرت الوفيات وبلغ عدد الموتى إلى أربعة آلاف فرد في كل يوم.	ابن إياس - السابق - ص ٧٦.
٤٤	١٥١٣/هـ٩١٩م	وقع الطاعون بالديار المصرية وبلغ عدد من يموت في كل يوم أكثر من ثلاث مئة وخمسة وستين فرداً.	ابن إياس - السابق - ص ٢٩٨: ص ٣٠٢.

الملحق الرابع:

نسخ وثائقية لتواقيع ووصايا طبية.

- ١ - نسخة توقيع برياسة الطب في الديار المصرية.
- ٢ - نسخة توقيع برياسة الطب من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، كتب بها لشهاب الدين الحكيم في المحرم سنة ٧٠٩هـ.
- ٣ - نسخة توقيع بتدريس الطب في البيمارستان المنصوري بالقاهرة.
- ٤ - وصية متطبب طبائعي.
- ٥ - وصية متطبب بالكحل.
- ٦ - وصية جرائحي.



(١) نسخة توقيع برياسة الطبّ، في الديار المصرية: ^(١)

الحمد لله مؤتي الحكمة من يشاء من عباده، ومعطي أمانة الأرواح من ترقى في حفظها إلى رتبة اجتهاده، وجاعل علم الأبدان أحد قسمي العلم المطلق في حالي اجتماعه وانفراده، وموفق من جعل نصح خلق الله فيه سبباً لسعادة دنياه وذخيرة صالحة ليوم معاده، ومبلغ من كان دائماً في إعانة البرية على طاعة ربها بدوام الصحة غاية مرامه وأقصى مراده، ورافع رتبة من دل اختياره واختباره على وفور علمه ونجح علاجه وإصابة رأيه وسداده.

نحمده على نعمه التي خصت بنعمنا من كُمل في نوعه وفضله وحسن في علمه وعمله قوله وفعله، وجمع من أمانة وظيفته ومعرفتها ما إذا جلس في أسنى مناصبها قيل: هذا أهله، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تشرق البصائر، بأضوائها وتفرق ^(٢) الضمائر بإخلاصها من أدوائها، وتغدق بيمينها أنواء التوفيق فتتأرجح رياض الإيمان بين روائها وإروائها، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أنارت ملته، فلم تخف على ذي نظر، وعلت أدلته، فلم ينلها من في باع رويته قصر، وبهرت معجزاته فلو حاولت الأنفاس حصرها أفناها العي والحصر، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كانوا لأدواء القلوب علاجاً، وللسبيل الإيمان مزاجاً، وللبصائر السائرة في دجى الشبهات سراجاً، صلاة دائمة الإقامة، متصلة الدوام إلى يوم القيامة، وسلم تسليماً كثيراً.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى. - ج ١١ ص ٣٧١ - ٣٧٤.

(٢) أفرق المريض: برأ.

وبعد: فإن صناعة الطب علم موضوعها حفظ الأبدان النفيسة، ومقصودها إعانة الطبيعة على حماية الأعضاء الرئيسة، ومدارها الأعم، على معرفة العوارض وأسبابها، ومدركها الأتم، الوقوع على الصواب في معرفة الجسوم وأوصابها، وحينئذ تتفاوت رتب أهلها عند تشعب مداركها، واختلاف مسالكها، وتشابه عللها، والتباس صوابها بخللها، إذ لا يميز ذلك حق تمييز إلا من طال في العلم تبخره، وحسن في رتب هذا الفن تصدره، وطابق بين نقله وعلاجه، وعرف حقيقة كل مركب من الأدوية ومفرد بعينه واسمه وصفته ومزاجه، وتكررت عليه الوقائع فعرّفها درية وأحكمها نقلاً، ولقب بشرعة التقوى إذ كان الإقدام على النفوس قبل تحقق الداء والدواء مذموماً شرعاً وعقلاً، ولذلك تحتاج إلى رئيس ينعم في مصالحتها نظره، ويجمل في منافعها ورده وصدره، ويعتبر أحوال أهلها بمعيار فضله، ويلزم الداخل فيها ببلوغ الحد الذي لا بد منه بين أرباب هذا الشأن وأهله، ويعرف لأكابر هذا الفن قدر ما منحهم الله من علم وعمل، ويبسط رجاء المبتدئ إذا كمل نفسه حتى لا يكون له فيها بغير كمال الاستحقاق طمع ولا أمل.

ولما كان المجلس السامي، القاضي، الأجل، الحكيم، فلان الدين: هو الذي بلغ مع العلم غاية مراده، واحتوى من هذا الشأن على ما جمع به رتب الفاضلين فيه على انفراد، فلو عاصره "الرئيس"⁽¹⁾ لاعتمد عليه في كليات قانونه، أو "الرازي" لعلم أن "حاويه" من بعض فنونه، قد حلب هذا العلم

(1) يقصد الشيخ الرئيس ابن سينا.

أشطره، وأكمل قراءة هذا الفن رموزه وأسطره، وحل أسراره الغامضة، وارتوى من سحب رموزه بأنواء لم يشم غير فكره بروقها الوامضة، وأسلف من خدمة أبوابنا العالية سفراً وحضراً ما اقتضى له مزية شكره، وتقاضى له مزيد التتبيه على قدره والتتويه بذكره، وحمد فيه الفريدان: صحة نقله وإصابة فكره، وعلم أنه جامع علوم هذه الصناعة فلا يشذ منها شيء عن خاطره ولا يغيب منها نقل عن ذكره.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال شهاب فضله لامعاً، وسحاب بره هامعاً - أن يكون فلان متولي رياسة الأطباء بالديار المصرية على عادة من تقدمه.

فليباشر هذه الرياسة ناظراً في مصالحها، مطلعاً من شهاب فضله ما يزين أفقها زينة السماء بمصاييحها، ومتفقداً أحوال مباشريها، متلمحاً أحوال المستقل بأعبائها والداخل فيها، سالكاً في ذلك سبيل من تقدمه من رؤسائها، حاكماً في أمورها بما جرت به العادة المستقرة بين أكابرها وعلمائها، مطارحاً من قدمت هجرته فيها بما يقتضى له مراجعة أصوله، ملزماً من ظهر قصوره فيها بالتدرب إلى حد لا يقنع منه بدون حصوله، مجيباً في الإذن لمن أظهر الاستحقاق صدق ما ادعاه، قابلاً في الثبوت من مشايخ هذه الصناعة من لا يشهد إلا بما علمه ولا يخبر من التدرب إلا بما رآه ووعاه، متحريراً في الثبوت لدينه، آذناً بعد ذلك في التصرف إن ترقى علمه باستحقاقه إلى رتبة تعيينه، وليعط هذه الوظيفة حقها من تقديم المبرزين في علمها، وتكريم من منحه الله درجتي نقلها وفهمها، وتعليم من ليس عليه

من أدواتها المعتبرة غير وسمها واسمها ، ومنع من يتطرق من الطرقية إلى معالجة وهو عار من رذائها ، وكفّ يد من يتهجم على النفوس فيما غمض من أدوائها قبل تحقق ذوائها ، واعتبار التقوى فيمن يتصدى لهذه الوظيفة فإنها أحد أركانها ، واختيار الأمانة فيمن يصلح للاطلاع على الأعضاء التي لولا الضرورة المبيحة حرم الوقوف على مكانها ، وليكن في ذلك جميعه مجانبا للهوى ، ناويا نفع الناس فإنما لكل امرئ ما نوى ، والله تعالى يحقق له الأمل ، ويسدده في القول والعمل ، بمنه وكرمه .



(٢) نسخة توقيع برياسة الطب، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، كتب بها لـ " شهاب الدين الحكيم " في المحرم سنة تسع وسبعمائة للهجرة: ^(١)

أما بعد حمد الله حاسم أدواء القلوب بلطائف حكمته، وقاسم أنواع العلوم بين من كمل استعدادهم لقبول ما اقتضته حكمة قسمته، وجاعل لباس العافية من نعمه التي هي بعد الإيمان أفضل ما أفاض على العبد من بره وأسبغ عليه من نعمته، والمنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته، ومقرب ما نأى من الفضائل على من أسرى إليها على مطايا عزمه وسرى لتحصيلها على جياذ همته، وملهم آرائنا بتفويض أمانة الأرواح إلى من أنفق في خدمة الطبيعة أيام عمره فكان بلوغ الغاية في علمها نتيجة خدمته، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي شرح الله بالهدى صدور أمته، وخصه منهم بأعلام كل علم وأئتمته، وجلا بيقين ملته عن كل قلب ما ران عليه من الشك وغمته، وعلى آله وصحبه الذي حماهم من الزيف والزلل ما فجر الهدى لهم من جوامع الكلم وأفاض التقى عليهم من أنوار عصمته - فإن أولى الأمور أن يعتمد فيها على طبيبها الخبير، ويصان جوهرها عن عرض العرض على غير ناقدتها البصير، وتحمى مواردنا عنمن لم يعرف كيف يجتنب مواقع التكدير، وترفع كواكبها عنمن لم تدرك أفكاره دقائق الحوادث وحقائق التأثير - أمر صناعة الطب التي موضعها الأبدان القائمة بالعبادة، والأجسام القائمة بما يتعاقب عليها من الحوادث

(١) القلقشندي، صبح الأعشى.. ج ١١ ص ٣٧٤-٣٧٧.

والزيادة، والنفوس التي ما عنها إن حصل فيها التفريط بدل ولا عوض، والأرواح التي إن عرض الفناء لجوهرها فلا بقاء بعده للعرض، والطبيعة التي إن خدمت على ما يحب نهضت على ما يجب بالصحة حق النهوض، والأمزجة التي إن نفرت لعدم التآتي في سياستها أعجزت من يروض.

ولذلك تفتقر على كثرة أربابها، وتحتاج مع غزارة المتمسكين بأسبابها، وتضطر وإن اندفعت الضرورات بكثرة متقنيها، وتتشوف وإن وجد الجم الغفير من المتلبسين بأدواتها والمتبحرين فيها - إلى رئيس ينعم في اعتبار أكفائها النظر، ويدفع عن رتبها بتطرق غير أهلها الغير، ويعرف من أحوال مباشرها ما لا يكفي في خبرها الخبر، فلا يقبل إلا من علم مقدار علمه، ووثق مع الحفظ بصحة فهمه، ورضي عن خبره في الطب واجتهاده، واعتبر منه كل نوع تحت أجناسه المتعددة على حدته وانفراده، وجاراه في كليات الفن فرآه في كل نوع تحت أجناسه المتعددة على حدته وانفراده، وجاراه في كليات الفن فرآه في كل حلبة راكضاً، وطارحه في فصول العلم فوجده يحمل أعباء ما تفرع منها ناهضاً، واختبر دربته فوجدها موافقة لتحصيله، مطابقة لما حواه من إجمال كل فن وتفصيله، وتتبع مواقع دينه فوجدها متينة، ومواضع أمانته فألفها مكينة، وأسباب شفقتة ونصحه فعرف أنها على ما جمع من الأدوات الكاملة معينة، ويتعين أن يكون هذا "الرئيس" في أوانه، و"الرازي" في زمانه، و"الفارابي" في كونه أصلاً تتفرع فنون الحكم من أفنانه، علاجه شفاء حاضر، وكلاءته نجاة من كل خطر مخامر، وتدييره للصحة تقويم، وتصفحه تثقيف لعلماء الصناعة وتسليم، ودروسه ذخائر ينفق من جواهر حكمها كل حكيم.

ولما كان المجلس العالي الصدري، الشهابي، وهو المراد بالتعيين لهذه الوظيفة، والمقصود بما أشير إليه في استحقاق هذه الرتبة من عبارة صريحة أو كناية لطيفة، وأنه جمع من أدوات هذا الفن ما افترق، واحتوى على أصوله وفروعه فاجتمعت على أولويته الطوائف واتفقت على تفضيله الفرق، فلو عاصره "أبقراط" لقضى له في شرح فصوله بالتقدمة، ولو أدرك "جالينوس" لاقتدى في العلاج بما علمه، مع مباشرة ألفت بين الصحة والنفوس، وملاطفة أشرفت مواقع البرء بها في الأجساد إشراق الشموس، وإطلاع يعرف به مبلغ ما عند كل متصد لهذه الصناعة من العلم، وتبحر في الفنون لا يُسلم به لأحد دعوى الأهلية إلا بعد حرب جدال هو في الحقيقة عين السلم - فرسم بالأمر العالي أن يستقر فلان في رئاسة الأطباء الطبائعية بالديار المصرية والشام المحروس، على عادته وعادة من تقدمه في ذلك، ويكون مستقلاً فيها بمفرده.

فليُنظر في أمر هذه الطائفة نظراً تبرأ به الذمة، ويحصل به على رضا الله تعالى ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم في الشفقة على الأمة، ويعطي به الصناعة حقها، ويطلق من يد من تناول إليها بغير أهلية رقها، ويصون النفوس من إقدام من تقدم بغير خبرة كاملة عليها، ويذب عن الأرواح تطرق من يتطرق بغير معرفة وافرة إليها، فإن فارط التفريط في النفوس قل أن يستدرك، ومن لم تجتمع فيه أدوات المعرفة التامة والدين فما ينبغي له أن يدخل في المعالجة قبل الكمال وإن دخل فلا يترك، فإن من لازم صلاح الأرواح صلاح الأجساد، وإن الداء الذي لا دواء له أن تكون العلة في واد والمعالجة في واد، فلا يقبل في التزكية إلا من يثق بدينه كوثوقه بعلمه، ولا

يصرف أحداً في هذه الصناعة إلا الذين زكت أعمالهم قبل التزكية،
وليشفعها بالامتحانات التي تسفر عن وجوه الوثوق بالأهلية لثام دقائقها
المنكية، فإن العيان شاهد لنفسه، ومن لم تنفعه شهادة فعله في يومه لم
ينفعه غيره في أمسه، ولا يمض فيها حكماً قبل استكمال نصاب الشهادة،
وقبل التثبت بعد كمالها: فإن المعالجة محاربة للدعاء، والموت بجهالة
المحارب له شهادة، وليأمر من أُلجئ إلى معالجة مرض لا يعرفه بمتابعة من
هو أوفق منه بالتقديم، ومراجعة من هو أعلم منه به: فإن الحوادث قد
تختلف: { وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ }^(١) وملاك
الأمور تقوى الله فليجعلها حجة فيما بين الله وبينه، والافتقار إلى توفيقه
فليصرف إلى ذلك قلبه وعينه، والخير يكون إن شاء الله تعالى.



(١) سورة يوسف / ٧٦.

(٣) نسخة توقيع بتدريس الطب بالبيمارستان المنصوري، كتب بها للطبيب مهذب الدين بن الموفق بن النجم:^(١)

الحمد لله الذي دبر بحكمته الوجود، وعمّ برحمته كل موجود، وحال
بنفع الدواء بين ضر الداء كما حالت عطاياه دون الوعود، نحمده ونشكره
وهو المشكور المحمود، ونثني عليه خير الثناء قياماً وقعوداً وعلى الجنوب
وفي السجود، ونستزيده من فضله فإنه أهل الفضل والجود.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة الله بها والملائكة
وأولو العلم شهود، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المبشر لأمته بالجنات
والخلود، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة دائمة إلى اليوم الموعود.

وبعد، فإننا لما أقام الله بنا شعائر الإيمان، وأصبح دينه بحمد الله
منصوراً بنا على سائر الأديان، وجاهدنا في الله حق الجهاد باليد والقلب
واللسان، وشيدنا لعلومه وشرائعه كل بديع الإتقان، ورتبنا فيه من العلماء
الأعيان كل رفيع الشأن، واخترنا له الأخيار من أهل العلم بالطب والفقهِ
والحديث والقرآن، ورأينا كل من تقدمنا من الملوك، وإن سلك في سياسة
الرعية أحسن سلوك، قد اهتم بعلم الأديان، وأهمل علم الأبدان، وأنشأ
كل منهم مدرسة، ولم يحفل ببيمارستان، وغفل عن قوله ﷺ: العلم
علمان، ولم يأخذ أحداً من رعيته بالاشتغال بعلم الطب المضطر إليه، ولا
وقّف وقفاً على طلبه هذا العلم المنصوص عليه، ولا أعد له مكاناً يحضر
من يشتغل بهذا الفن فيه، ولا نصب له شخصاً يتمثل هذا المشتغل لديه،
علمنا نحن بحمد الله تعالى من ذلك ما جهلوه، وذكرنا من هذه القرية ما

(١) ابن عبدالظاهر. تشریف الأيام والعصور. ص ٢٢٨-٢٣٠.

أهملوه، ووصلنا من هذه الأسباب الدينية والدينيوية ما فصلوه، وأنشأنا بيمارستاناً يبهر العيون بهجة، ويفوق الأبنية بالدليل والحجة، ويحفظ الصحة والعافية على كل مهجة، لو حلّه من أشفى لعوجل بالشفاء، أو جاءه أكمده السقم لا شتقى، أو أشرف عليه العُمر بلا شفاء لعاد عنه بشفا، ووقفنا عليه من الأوقاف المبرورة ما يملأ العينين، ويطلق سماع جملته الأذنين، ويعيد عنه من أمه مملوء اليدين، وأبحنا التداوي فيه لكل شريف ومشروف ومأمور وأمير، وساوينا في الانتفاع به بين كل صغير وكبير، وغني وفقير، وعلمنا أن لا نظير لنا في ملكنا، ولا نظير له في إتقانه، فلم نجعل لوقفه وشرطه من نظير، وجعلنا فيه مكاناً للاشتغال بعلم الطب الذي كاد أن يجهل، وشرعنا للناس إلى ورد بحره أعذب منهل، وسهلنا عليهم من أمره ما كان الحلم به من اليقظة أسهل، وارتدنا له من علماء الطب من يصلح لإلقاء الدروس، وينتفع به الرئيس من أهل الصناعة والمرءوس، ويؤتمن على صحة الأبدان وحفظ النفوس، فلم نجد غير رئيس هذه الطائفة أهلاً لهذه المرتبة، ولم نرض لها من لم تكن له هذه المنقبة، وعلمنا أنه متى وليها أمسى بها معجباً، وأضحت به معجبة.

ولما كان المجلس السامي مهذب الدين هو الرئيس المشار إليه، والوحيد الذي تعقد الخناصر عليه، وكان هو الحكيم بقراط، بل الجليل سقراط، بل الفاضل "جالينوس"، بل الأفضل ديسقوريدوس اقتضت الآراء الشريفة أن تزداد جلالته بتولية هذا المنصب الجليل جلالته، وأن تُزف إليه تجر أذيالها، ويزف إليها يجرر أذياله، وأن يقال له: لم يك يصلح إلا لها، ولم تك تصلح إلا له.

فلذلك رسم بالأمر العالي - لا زال للدين ناصرًا ، ولأعلام العلوم ناشراً - أن يفوض إليه تدريس الطب بالبيمارستان المبارك المنصوري، المستجد الإنشاء بالقاهرة المحروسة، علماً بأنه المتميز في هذا الفن، وأنه عند الفراسة فيه والظن، وأنه سقراط الإقليم إذا كان غيره سقراط الدن، وثقة بأنا للجوهر قد التقطنا، وبالخير قد اغتبطنا، وعلى الخير قد سقطنا.

فليتلق هذه النعمة بالشكر الجليل، والحمد الجزيل، والثناء الذي هو بالنماء والزيادة كفيل، ولينتصب لهذا العلم المبارك انتصاب من يقوم بالفرض منه والسنة، ويعرف له فيه الفضل، ويتقلد له فيه المنة، ويثني على آثاره الجميلة فيه، وتثني إليه الأعنة، وليبطل بتقويمه الصحة ما ألفه ابن بطلان،^(١) وليرنا بتدبيره جيلة البر، فإنه ابن سينا الأوان، وليجمع عنده شمل الطلبة، وليعط كل طالب منهم ما طلبه، وليبلغ كل متمن من الاشغال أربه، وليشرح لهم صدره، وليبذل لهم من عمره شطره، وليكشف لهم من هذا العلم المكنون سره، وليرهم ما خفي عنهم منه جهره، وليجعل منهم جماعة طبائعية، وطائفة كحالين وجرائحية، وقوماً مجبرين، وبالحديد عاملين، وآخرين بأسماء الحشايش، وقوى الأدوية وأوصافها عاملين، وليأمر كلا منهم بحفظ ما يجب حفظه، ومعرفة ما يزيد به حفظه، وليأخذ بما يصلح به لسانه ولفظه، ولا يفتر عنهم في الاشتغال لحظة، وليفرد لكل علم من العلوم طائفة، ولكل فن من فنونه جماعة لمحاسنه عارفة، وليصرف

(١) هو المختار بن الحسن بن عبدون بن بطلان: طيب نصراني من أهل بغداد. سافر إلى مصر وأقام فيها ثلاث سنوات، ورحل إلى القسطنطينية ثم إلى أنطاكية فترهب ومات فيها سنة ٤٥٨هـ. من كتبه "دعوة الأطباء" و"تقويم الصحة". (الزركلي، الأعلام، ١٩١/٧).

إليهم من وجوه فضائله كل عارفة، وليكشف لهم ما أشكل عليهم من غوامضه، فليس لها من دون إيضاحه كاشفة، لينشر في هذا المكان المبارك من أرباب هذه العلوم قوم بعد قوم، ويظهر منهم في الغد - إن شاء الله تعالى - أضعاف ما هو ظاهر منهم اليوم، وليقال لكل من طلبته إذا شرع في إجازته وتزكيته لقد أحسن شيخه الذي عليه تأدب، وإن من خرّج هذا المذهب، عاملاً في ذلك كله بشروط الواقف، أعز الله نصره، واقفاً عند أمره، أمضى الله أمره.^(١)



(١) وقع هذا التقليد في رمضان سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) وقد كتبه القاضي محمد بن المكرم.

(٤) وصية متطبب طبائعي: ^(١)

... وليتعرف أولاً حقيقة المرض بأسبابه وعلاماته، ويستقص أعراض المريض قبل مداواته، ثم ينظر إلى السن والفصل والبلد، ثم إذا عرف حقيقة المرض، وقدر ما يحتمله المزاج من الدواء لما عرض، يشرع في تخفيف الحاصل، وقطع الواصل، مع حفظ القوى. ولا يهاجم الداء، ولا يستغرب الدواء، ولا يقدم على الأبدان إلا بما يلائمها، ولا يبعد الشبه، ولا يخرج عن جادة الأطباء ولو ظن الإصابة حتى يقوى لديه الظن ويتبصر فيه برأي أمثاله، وليتجنب الدواء، ما أمكنه المعالجة بالغذاء، والمركب، ما أمكنه المعالجة بالمفرد، وإياه والقياس إلا ما صح بتجريب غيره من مثل مزاج من أخذ في علاجه، وما عرض له، وسنّه، وفصله، وبلده، ودرجة الدواء. وليحذر التجربة، فقد قال "أبقراط" وهو رأس القوم: إنها خطر. ثم إذا اضطر إلى وصف دواء صالح للعلّة نظر إلى ما فيه من المنافاة وإن قلت، وتحيل لإصلاحه بوصف يصلح معه، مع الاحتراز في وصف المقادير والكميات والكيفيات، في الاستعمال والأوقات، وما يتقدم ذلك الدواء أو يتأخر عنه، ولا يأمر باستعمال دواء، ولا ما يُستغرب من غذاء، حتى يحقق حقيقته، ويعرف جديده من عتيقه: ليعرف مقدار قوته في الفعل. وليعلم أن الإنسان هو بنية الله وملعون من هدمها، وأن الطبيعة مكافية وبؤسى لمن ظلمها، وقد سلّم الأرواح وهي وديعة الله في هذه الأجسام، فليحفظها وليتق الله ففي ذلك جميع الأقسام، وإياه ثم إياه أن يصف دواء ثم يكون هو الذي يأتي به، أو يدل عليه، أو المتولي لمناولته للمريض ليستعمله من يديه، وفي هذا كله لله المنة. ولنا إذ هديناه له وأرشدناه إليه.



(١) العُمري. التعريف بالمصطلح الشريف. ص ١٧٧، ١٧٨.

(ه) وصية متطبب بالكحل: ^(١)

وها أنت قد أفردت بتسليم أشرف الحواس الخمس، والجوارح التي لولاها لم تُعرف حقيقة ما يدرك بالسمع والذوق والشمّ واللمس؛ وهي العين التي تُفدى بالعين، وتوقى ساعة البين، وقد جعلت منها لمعالجة أشرف الأعضاء، وأشرف إنسان يحيط بصره بكل الفضاء؛ فاجعل عليها من مداراتك الواقية، وأبق بها من حسن الأثر ما يُرى والعين باقية؛ وتلطف بها في العلاج، وأرفق بها فإنها من طبقات: منها الزجاجية ومنها شبيهة الزجاج. ولا تقدم عليها بمداواة حتى تعرف حقيقة المرض، والسبب الذي نال به ذلك الجوهر العرض؛ ثم داوها مداواة تجلو بها القذى عن البصر، وتشفى ما بها من السقام إلا الذي في عيون الغيد من حور، وقيم بأجفانها عليها سنوراً، ويديم لإنسانها من ضوء البصر نوراً. ثم لاطف بما يُناسب من الغذاء ذلك الإنسان، وترفق به فإنك معروف بالإحسان؛ وصنّه عن قدح قاذح، وأعنه حتى لا يُقال يا أيها الإنسان إنك كاذح. وأعمل على ما فيه صلاح ذاك السواد الأعظم، والإمتاع بذلك السواد الذي لا يُشترى بملء الأرض ذهباً منه قدر نصف درهم؛ وتخير من الكحل ما فيه جلاء الأبصار، وشفاء العين مما يُخاف على الإنسان فيه الأخطار. وافعل في هذا كله ما إذا كنت بسواد الحدق لم تتسخ، وإذا قيس قدر ميل منه لم يبعد إليه ألف فرسخ؛ واستشر الأطباء الطبائعية فيما أهم، وفيما لا يُستغنى فيه عن رأي مثلهم، من تخفيف مادة بالاستفراغ أو نقص دم، إلى غير هذا مما إذا فعلته لم تُلم بعده بما أَلَمَّ.



(١) العمري. التعريف بالمصطلح الشريف. ص ١٧٨، ١٧٩.

(٦) وصية جرائحي: (١)

وأعرف ما تحتاج إليه هذه الوظيفة وأجبر كل كسر، وشُد كل كسر، وخُط كل فتق، وقوَّ كل رتق، وداو الكلوم، ودار باللطف فإنَّ إفراط القوة في الدواء يُلحقه بالسُّموم. وأعمل على حفظ الأعصاب، وشُدَّ الأعضاء حتى تتمكن من معالجة المصاب، والتوقي في كل أعماله، فإنه في صناعة كلِّها خطر، وجميع أمورها مغيبة لا يُوقف لها على خبر، وليبادر ما يفوت، ولا يكلم أحداً ما حسُن للسان حديد السكوت، وليحذر قطع شريانٍ ما قطع إلا نزف دم صاحبه حتى يموت، وليعد معه ما يكون لإخراج النصال فإنه يكون مع عساكرنا المنصورة أوقات الحرب والسهام تغوص في الأجسام، والرماح في رجل هي والحسام، وليكن في هذا كله مُزاح الأعدار، مُزال العوائق في مضايق أوقات لا يُستدرك فيها فائت الأعمار، وليعد لهذا الأمر عُدته، وليصرف إليه همته، وليفعل في هذا ما لا يبقى عليه به جناح، ولا يخطيء معه عمله نجاح، ولا يقاس به أحد وقد أفاد علمه وأجاد عمله وأجدى، وظهرت بركة معالجة يده التي إذا وضعها على الجرح يهدا.



(١) العُمري. التعريف بالمصطلح الشريف. ص ١٧٩، ١٨٠.

الملحق الخامس:
نصوص وثائقية
عن بيمارستانات العصر:

عاصم الخمار...
 انما هذا...
 المهاد...
 اسكن...
 واد...
 ذكر...
 روح...
 واجر...
 لسعد...
 المذكور...
 فالاص...
 للاج...
 فالاه...
 رجوع...
 صا...
 او...
 لسراج...
 وشا...
 وقيل...
 مسلمان...
 للشيخ...
 وطنا...
 وهو...
 تولا...

لوحة رقم (13) من وثيقة وقف بيمارستان قلاوون بالقاهرة

المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة.

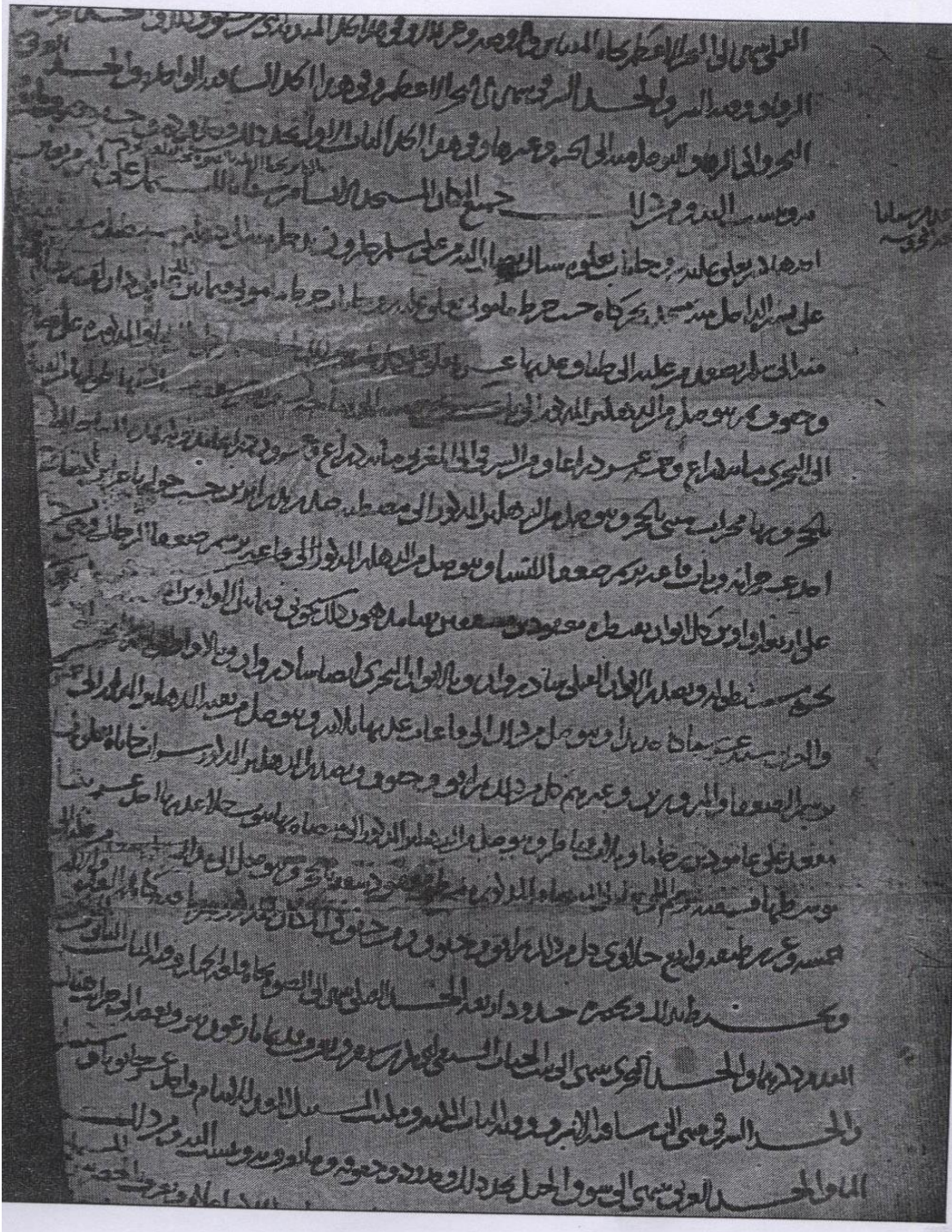
ما نظر عليها بمباينة وصدق العرش له بلع بعد التوفد وصدق
 لم يصب هذا الممارستان للمسلمين التماسين الخ من التوفد وصدق
 لاد وحق في العلو وصدق التماسين الخ من التوفد وصدق
 ان هذا الممارستان من مسانعة القامير الى التماسين الخ من التوفد وصدق
 راجع الممارستان من مسانعة القامير الى التماسين الخ من التوفد وصدق
 لصدق حكمه وصدق التماسين الخ من التوفد وصدق
 اعلم ان هذا الممارستان وطلوله من مسانعة القامير الى التماسين الخ من التوفد وصدق
 من طرقتهم وصدق التماسين الخ من التوفد وصدق
 لغرضه من حق الخصال للصدق مع راجع وصدق وصدق وصدق
 في حوالا حرم وشفاء وصدق التماسين الخ من التوفد وصدق
 على اصلاحه كل من كان له في حرم وصدق التماسين الخ من التوفد وصدق
 في التوفد الذي هو الممارستان من مسانعة القامير الى التماسين الخ من التوفد وصدق
 الموقد لصدق التماسين الخ من التوفد وصدق
 لصدق وصدق وصدق التماسين الخ من التوفد وصدق
 على الكافة في ذلك الممارستان وصدق التماسين الخ من التوفد وصدق
 هذا التماسين الخ من التوفد وصدق التماسين الخ من التوفد وصدق
 وحقه وصدق التماسين الخ من التوفد وصدق التماسين الخ من التوفد وصدق
 في سببه كان ذلك لصدق التماسين الخ من التوفد وصدق
 والملازمين مع التماسين الخ من التوفد وصدق التماسين الخ من التوفد وصدق
 للملازمين مع التماسين الخ من التوفد وصدق التماسين الخ من التوفد وصدق
 في ذلك الممارستان من مسانعة القامير الى التماسين الخ من التوفد وصدق
 الوطائف من التماسين الخ من التوفد وصدق التماسين الخ من التوفد وصدق

لوحة رقم (١٥) من وثيقة وقف بيمارستان قلاوون بالقاهرة

المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة.

عن آخره او نحو في الواقع المشارة اليه اعلان عن غير ولد ولا ولد
 من اعلانه صريح الوقف المذكور لثبوت الواقف المعلن والبيان اعلان من
 اسعد الى زيد الدين عبد المحسن النقا مشيخة من اقره عبد الملك بن حرم
 بعد اعلان خاصه للذكر على ان لا يفسد الحكم المشيخة اعلان
 سبق الوقف المذكور واولان خاصه او ما عبد المحسن سبق الوقف
 غير ولد خاصه صرف من الوقف المذكور اعلان حين ان لا يفسد الحكم
 فالشك الاول هو للبيمان تان المنصوري الكاوي طبر الصبر
 على طبره الناظر ويوردى اليه اجتهاد والشك الثاني هو في لغة الصبر
 الشريفة التي شرفها سدق الوعظ والشك الثالث هو في لغة الصبر
 بمدينة طبره الشريفة على الحال بها افضل الصلاة والسلام والحمد فان تعذر الصبر
 الحرمة المشارة اليهما اعلان صرف لغة الحرمة الاخر فان تعذر الصبر لغة
 للبيمان تان المنصوري المذكور اعلان مضافا لما هو معينه فلهذا اعلان
 الرابع المذكور للبيمان تان المذكور اعلان فان تعذر الصبر للبيمان تان المذكور
 لغة والمساكين من المسكين والمساكين والادوية والادوية المتقطعة انما كانوا حاشا
 على ما يراه الناظر ويوردى اليه اجتهاد فان كان الصبر المذكور في
 بشرطه وقد علم غير محرم في الحال في ذلك كيد للوجودا وعدها الى ان
 وتعال الاضرب من عليها ويخير الوارثين شرط الوقف المشارة
 قبل اسعد على يد غيره للادوية في وجهه هذا والولاية عليه لنفسه اياها
 للادوية فالادوية واولان من غير شيوه له وعقبه ذكر اكانوا وايضا كالمع
 العال المولوي السيد القاضوي العلي على ليد الفضل ناظر كما الى السلطان

نسخة لوثيقة وقف تربيه على البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظة رقم (٢٤) وحجة رقم (١٥٤) لوحة رقم ١٦.



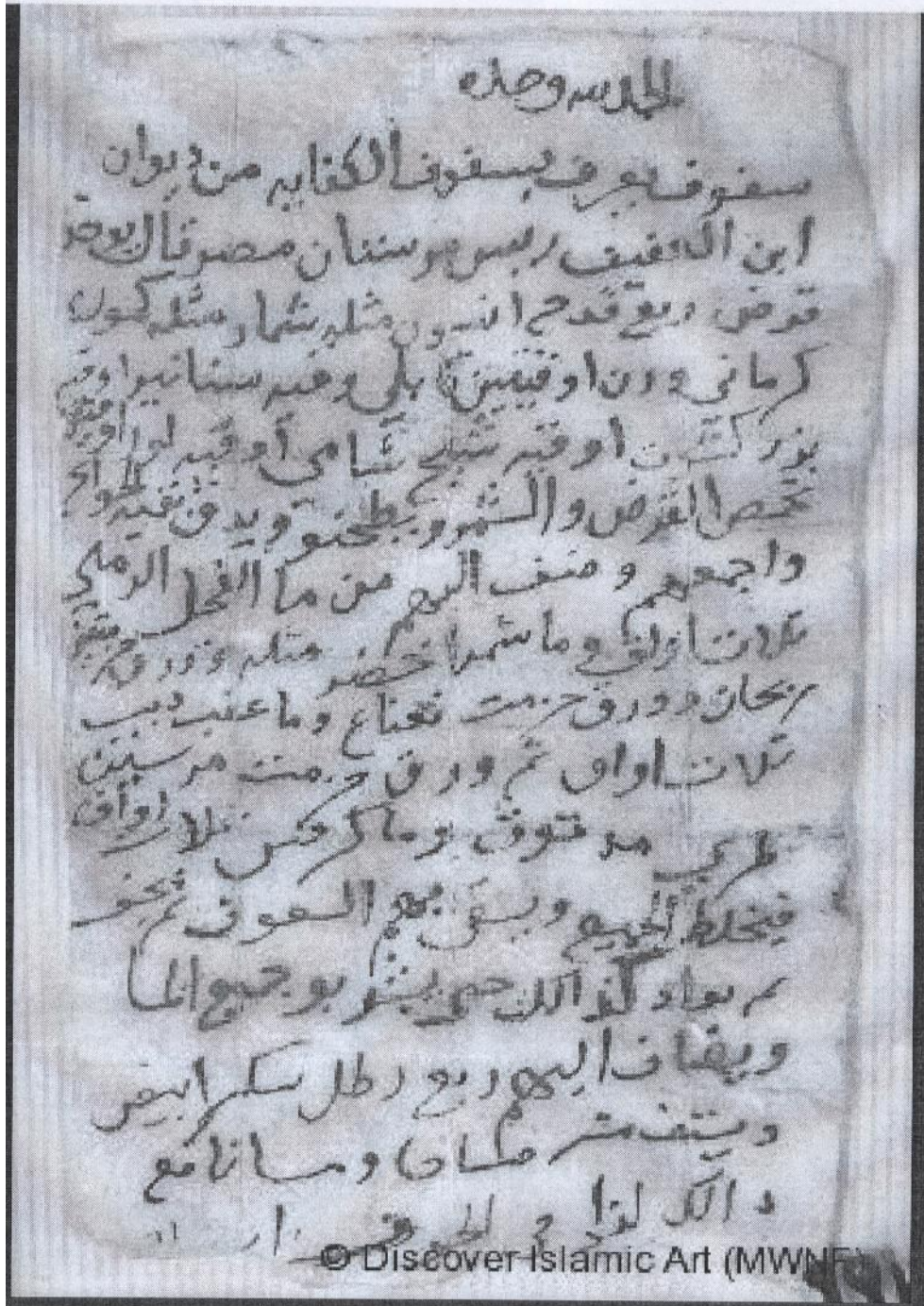
لوحة من وثيقة وقف البيمارستان المؤيدي بالقاهرة

من كتاب العمارة الإسلامية في عصر المماليك الجراكسة (عصر السلطان المؤيد شيخ)

لفهمي عبد العليم شكل (١١٣).



لوحة لماهو مكتوب على باب بيمارستان حصن الأكراد من كتاب تاريخ
البيمارستانات في الإسلام لأحمد عيسى بك.



صورة لوصفة طبية من العصر المملوكي تُنسب للطبيب شمس الدين بن العفيف رئيس الأطباء ببيمارستان قلاوون زمن الأشرف برسباي. محفوظة في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

الملحق السادس:

صور فوتوغرافية لبيمارستانات العصر:

- ١ - واجهة البيمارستان النوري بدمشق.
- ٢ - صورة من الداخل لبيمارستان قلاوون بالقاهرة.
- ٣ - صورة لداخلية بيمارستان قلاوون بالقاهرة.
- ٤ - صورة لبيمارستان قلاوون المعمول به حالياً.
- ٥ - صورة لواجهة بيمارستان أرغون بحلب.
- ٦ - صورة لبيمارستان أرغون بحلب من الداخل.
- ٧ - صورة للواجهة وباب البيمارستان المؤيدي بالقاهرة.
- ٨ - صورة للبيمارستان المؤيدي بالقاهرة من الخارج.
- ٩ - صورة للبيمارستان المؤيدي بالقاهرة من الداخل.
- ١٠ - واجهة البيمارستان القيمري بدمشق.
- ١١ - أساسات البيمارستان القيمري بدمشق.



واجهة المستشفى النوري بدمشق من كتاب الحياة العلمية في العهد الزنكي -
أ.د. إبراهيم بن محمد المزيني.



صورة من الداخل لبيمارستان قلاوون بالقاهرة

(تصوير الباحثة)



صورة لداخلية بيمارستان قلاوون بالقاهرة
(تصوير الباحثة)



صورة لبيمارستان قلاوون المعمول به حالياً
(تصوير الباحثة)



صورة لواجهة بیمارستان أرغون بحلب
(تصوير خاص بالبحث)



صورة لبيمارستان أرغون بحلب من الداخل

(تصوير خاص بالبحث)



صورة للواجهة وباب اليمارستان المؤيدي بالقاهرة

(تصوير الباحثة)

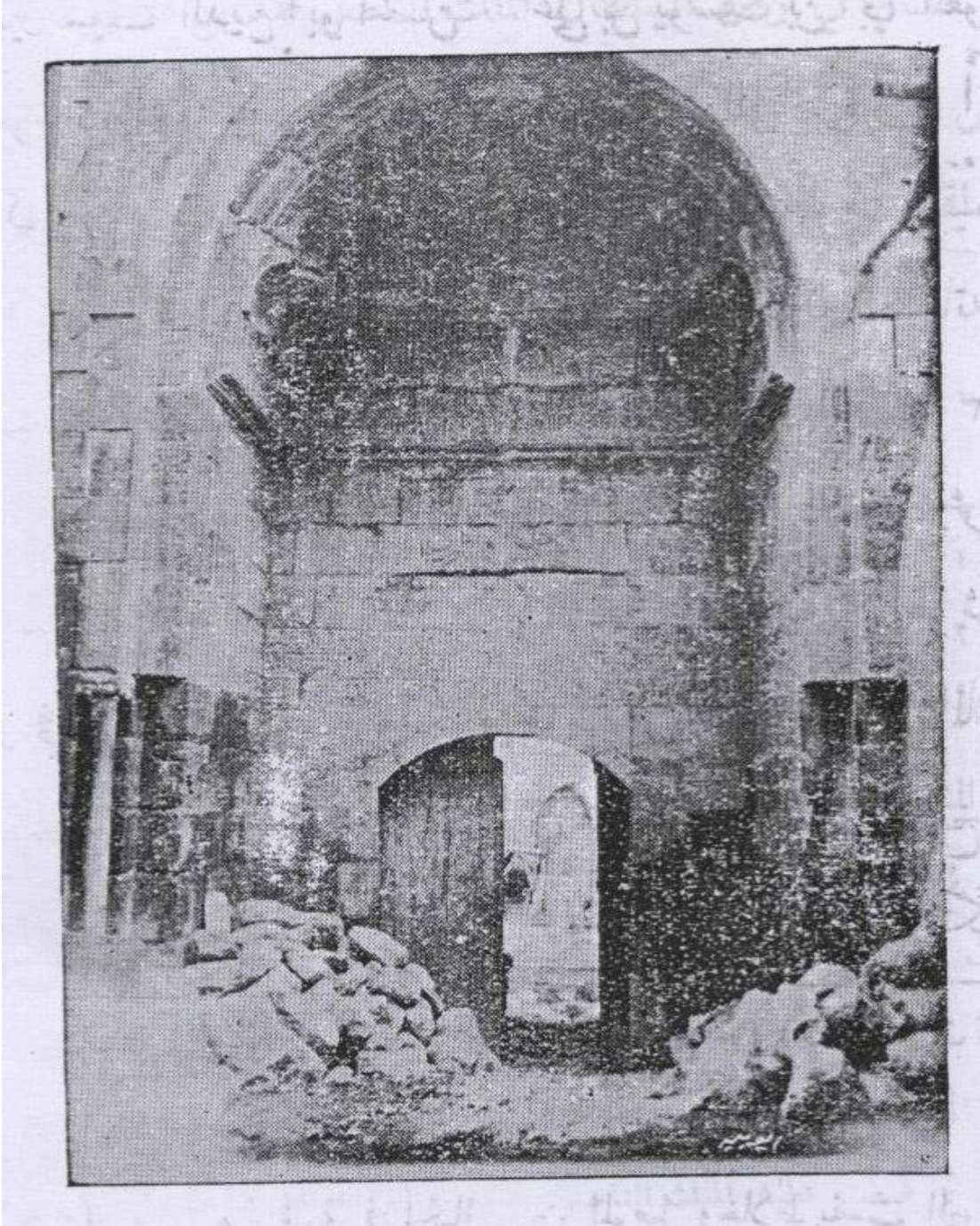


صورة للبيمارستان المؤيدي بالقاهرة من الخارج.

(تصوير الباحثة)

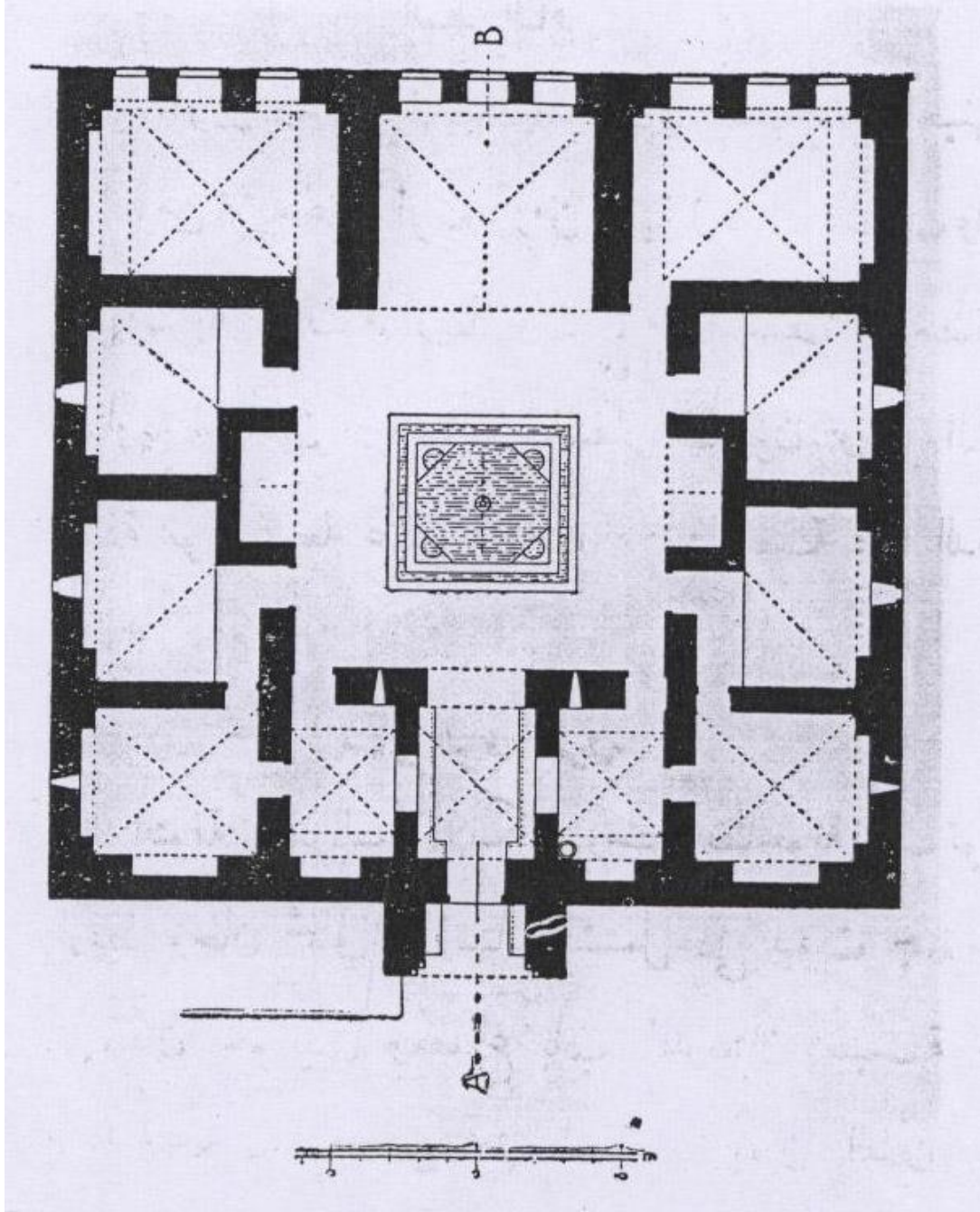


صورة للبيمارستان المؤيدي بالقاهرة من الداخل
(تصوير الباحثة)



واجهه البيمارستان القيصري بدمشق من كتاب تاريخ البيمارستانات في الإسلام

لأحمد عيسى بك.

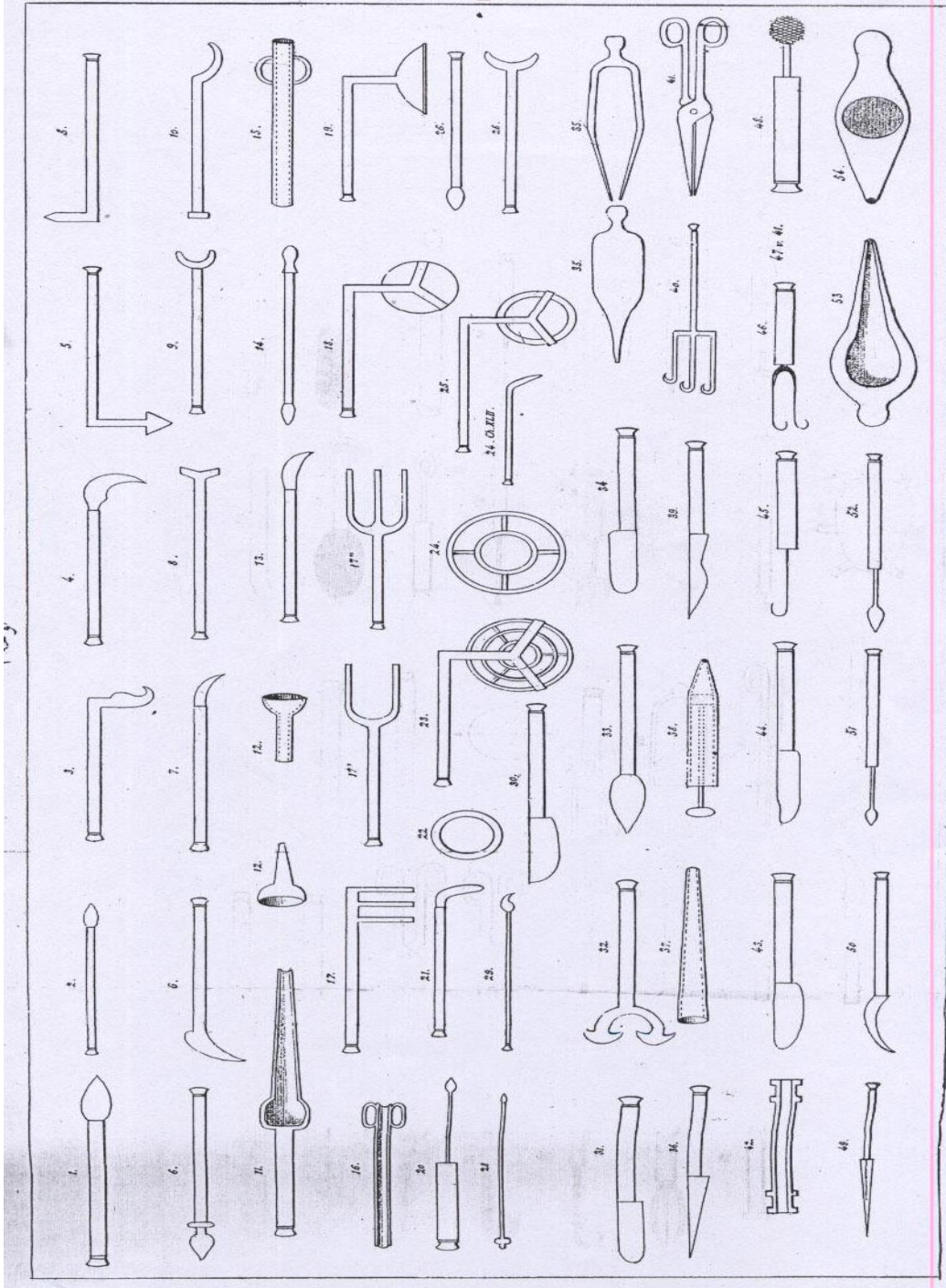


تخطيط أساسات بیمارستان القيمري بدمشق
عن كارل ولزنجر وكارل وتزنجر

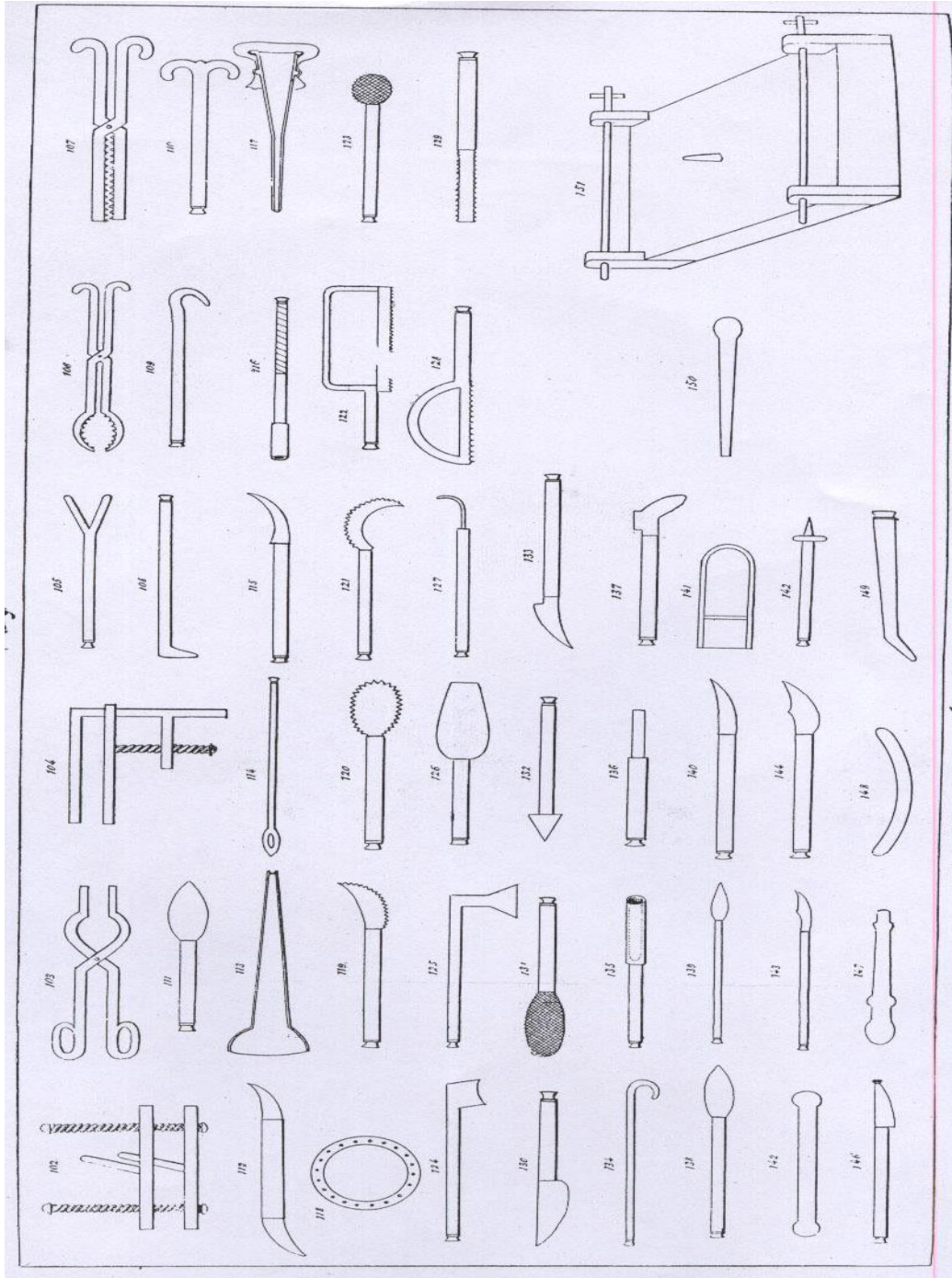
الملحق السابع:

صور لمجموعة من آلات الطب
والجراحة المستخدمة في ذلك

.....

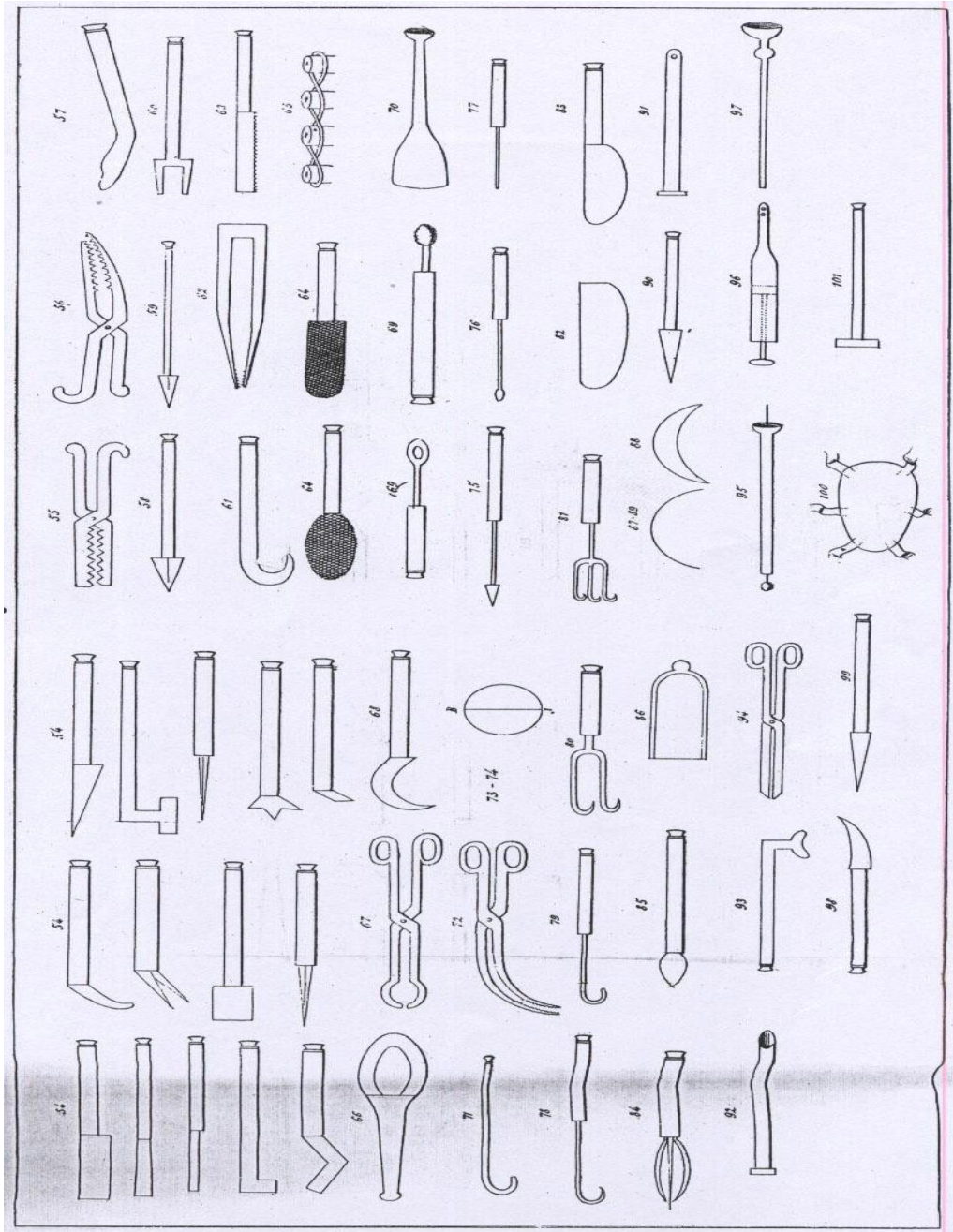


صور لألات الطب والجراحة والتوليد التي جاءت في كتاب التصريف للزهراوي
 نقلاً عن كتاب في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية للدكتور عامر النجار





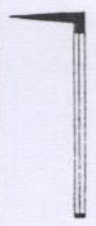

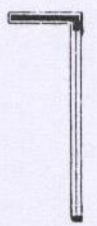
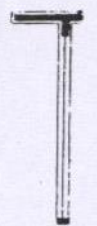



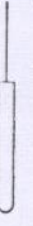

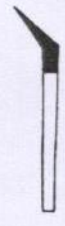
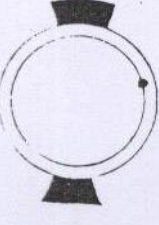





صور لألات الطب والجراحة والتوليد التي جاءت في كتاب التصريف للزهراوي

نقلاً عن كتاب في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية للدكتور عامر النجار




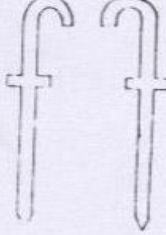











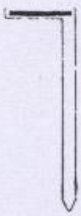

صور لألات الطب والجراحة والتوليد التي جاءت في كتاب التصريف للزهراوي

نقلاً عن كتاب في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية للدكتور عامر النجار

24	23	22	21	20	19
					
چفت	مِخْف	مكواة موضع الشعر	مِكْوَاة العَرَب	مكواة الصدغين	مكواة اليافوخ
30	29	28	27	26	25
					
جرکان وإبرة	انبوبة المنله	مهمت مجوف	مهمت مدور	سكين تعرف بالشوكية	ذات الشعيرة
36	35	34	33	32	31
					
حَلْفَة	كلبتان نصولية	مِخْف دَفِق	دصاص الثقيل	منعط وَقْرَب	دهق التشمير

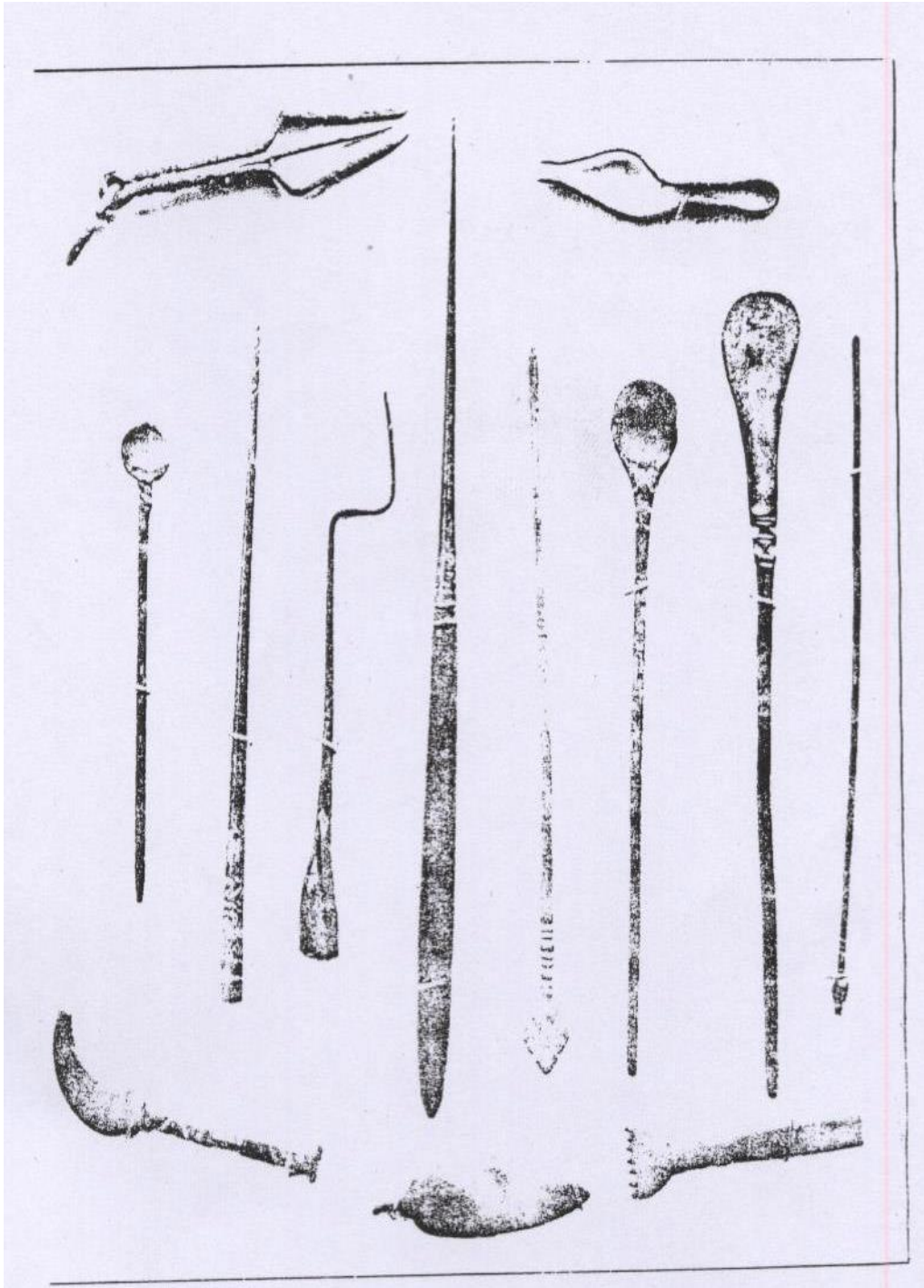
صور آلات الكحالة كما جاءت في كتاب الكافي في الكحل لخليفة الحلبي

نقلًا عن الطب عند العرب للدكتورة حنيفة الخطيب.

5	4	3	2	1
				
قَادِينُ	فَاخَات	كَاز بمعنى المقص	مِقْرَاض	مَقْصَر
11	10	9	8	7
				
طَبْر	آسَه	حَرْبَه	نَضْفَ وِرْدَه	وَزْدَه
17	16	15	14	13
				
مَنْقَاش	مِجَل	مِبْضَاع مدور الرأس	مِجْرَاد	مِشْرَط

صور آلات الكحالة كما جاءت في كتاب الكافي في الحل لخليفة الحلبي

نقلًا عن الطب عند العرب للدكتورة حنيفة الخطيب.



صور لبعض الآلات الطبية والجراحية المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة

نقلًا عن الطب عند العرب للدكتورة حنيفة الخطيب.

فهرس المصادر والهراجع

أولاً: الوثائق.

ثانياً: المصادر المخطوطة.

ثالثاً: المصادر المطبوعة.

رابعاً: المراجع العربية.

خامساً: المراجع المعربة.

سادساً: الأبحاث والدراسات.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق:

- وثيقة وقف البيمارستان المنصوري المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظة رقم (١٣) وحجة رقم (١٥).
- وثيقة وقف بيمارستان المؤيد شيخ المحمودي بالقاهرة المحفوظة بوزارة الأوقاف برقم (٩٣٨).
- وثيقة وقف الطبيب أبي زكريا بن عبدالله رئيس المجبرين والجراحين بيمارستان قلاوون المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة بمحفظة رقم (٢٤) وحجة رقم (١٥٤).



ثانياً: المصادر المخطوطة:

- ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر الحلبى (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م).
- درة الأسلاك في دولة الأتراك، نسخة مصورة في جامعة القاهرة برقم (٢٢٩٦١).
- الخالدي، بهاء الدين محمد بن لطف الله العمري (ت ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م).
- المقصد الرفيع المنشأ الهادي إلى صناعة الإنشاء، نسخة مصورة بجامعة القاهرة رقم (٢٤٠٤٥).
- مؤلف مجهول.
- في تاريخ مصر، نسخة مصورة بجامعة القاهرة رقم (٢٤٠٢٢).



ثالثاً: المصادر المطبوعة:

- ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م).
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ضبطه محمد باسل عيُون السُّود. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية. (١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).
- ١ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبدالقادر أحمد طليعات. القاهرة: دار الكتب الحديثة. (د. ت).
- ٢ - الكامل في التاريخ، تحقيق علي شيري. ط ١. لبنان: دار إحياء التراث العربي. (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤).
- ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٩م).
- معالم القرية في أحكام الحسبة، نقله وصححه روبن ليوي. القاهرة: مكتبة المتنبى. (د. ت).
- ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٤٩٩م).
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى. ط ٢. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م).
- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت: دار صادر. (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).

- البغدادي، عبدا للطفيف بن يوسف بن محمد بن علي (ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١م).
- الطب في الكتاب والسنة، تحقيق عبدالمعطي أمين قلعة جي. ط٢. دار المعرفة. (١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م).
- البلوي، خالد بن عيسى (ت بعد ٧٦٧هـ).
- تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، مقدمه وتحقيق الحسن السائح. المغرب: مطبعة فضالة. (د.ت).
- البنداري، الفتح بن علي بن محمد (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م).
- تاريخ دولة آل سلجوق، وهو مختصر من كتاب "نصرة الفترة وعصر الفطرة" لعماد الدين محمد المشهور بالعماد الكاتب (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م). ط٣. بيروت: دار الآفاق الجديدة. (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م).
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م).
- ١- الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم محمد شلتوت. مكة المكرمة: نشر مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي. (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م).
- ٢- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد أمين. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (١٩٨٦م).
- ٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق جمال محمد محرز وفهيم محمد شلتوت. نشر تراثا. (د.ت).

- الجبرتي، عبد الرحمن بن الحسن. (ت ٢٣٧هـ / ١٨٢٢م) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ط٢. بيروت: دار الجيل. (١٩٧٨م).
- ابن جُبَيْر، أبو الحُسَيْن محمد بن أحمد بن جُبَيْر الكِنَانِي الأندلسي البلسي (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م).
- رحلة ابن جُبَيْر، بيروت: دار بيروت (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).
- الجزري، محمد بن إبراهيم بن أبي بكر القرشي (ت ٧٣٨هـ / ١٣٣٩م).
- تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه (المعروف بتاريخ ابن الجزري)، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري. ط١. بيروت: المكتبة العصرية. (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م).
- الجزيري، عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الجزيري الحنبلي (ت ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م).
- الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، نشر حمد الجاسر. ط١. الرياض: منشورات دار اليمامة. - ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).
- ابن جُلْجُل، سليمان بن حسان الأندلسي (ت بعد سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م).
- طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد السيد. ط٢. بيروت: مؤسسة الرسالة. (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م).
- الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م).
- الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق عبدالغفور عطار. - ط٤. بيروت: دار العلم للملايين، (١٤٠٠هـ).

- ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر الحلبى (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م).
- تذكرة النبىه فى أيام المنصور وبنىه، تحقيق محمد محمد أمين. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (١٩٨٢م).
- ابن حجر العسقلانى: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلانى (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م).
- ١- الإصابة فى تمييز الصحابة، القاهرة: مطبعة السعادة. (١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م).
- ٢- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ضبطه وصححه عبد الوارث محمد علي. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية. (١٩٩٧/١٤١٨هـ).
- ابن الحمصى: أحمد بن محمد بن عمر (ت ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م).
- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق عبدالعزيز فياض خرفوش. ط ١. بيروت: دار النفائس للطباعة والنشر. (١٤٢١هـ).
- الحنبلى، أبي اليمن مجير الدين عبدالرحمن بن محمد عبدالرحمن بن محمد العليمى (ت ٩٢٨هـ / ١٥٢١م).
- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ط ١. النجف: المطبعة الحيدرية. (١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م).
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر. (١٩٧٢م).

- أبو داود، الإمام سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م). سنن أبي داود. إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس وعابد السيّد. - بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ (١٩٩٧م).
- الدوادار، بيبرس بن عبد الله المنصوري (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م).
- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالدس. ريتشاردز. ط ١. بيروت: المؤسسة الألمانية للطباعة والنشر. (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م).
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م).
- ١ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، (مج ١٥ [٦٦١]-٧٠٠هـ) تحقيق بشار عواد معروف. ط ١. بيروت: دار الغرب الإسلامي. (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م).
- ٢ - سير إلام النبلاء، ط ٢. بيروت: مؤسسة الرسالة. (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م).
- ٣ - معجم الشيوخ " المعجم الكبير"، تحقيق محمد الحبيب الهيلة. ط ١. الطائف: مكتبة الصديق. (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م).
- السخاوي. محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ / ٤٩٦م).
- ١- التبر المسبوك في ذيل السلوك. القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية. (١٠٥٣م).
- ٢- الذيل على رفع الأصر، تحقيق جودة هلال ومحمد صبح. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (٢٠٠٠م).
- ٣- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط ١. بيروت: دار الجيل (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م).
- الشافعي، الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس (ت ٢٤٠هـ / ٨١٩م).
- الأم، بولاق. ١٣٢١هـ.

- أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م).
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، نشر وتحقيق محمد حلمي أحمد. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. (١٩٥٦م).
- ابن شاهين، عز الدين خليل الظاهري (ت ٨٧٢هـ/١٤٦٧م).
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بولس راويس. ط ٢. القاهرة: دار العرب، (١٩٨٨م).
- ابن الشحنة، أبو الفضل محب الدين الحلبي (ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م).
- الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب، نشر يوسف بن إليان سركييس. دمشق: دار الكتاب العربي. (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).
- الشيرازي، قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي (ت ٧١٠هـ/١٣١١).
- في بيان الحاجة إلى الطب والأطباء ووصاياهم، تحقيق محمد فؤاد الذاكري. ط ١. الإمارات العربية المتحدة. مركز زايد للتراث والتاريخ. (١٤٢١هـ/٢٠٠١م).
- الشيزري. عبدا لرحمن بن نصر (ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣م).
- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني. بيروت: دار الثقافة. (د. ت.).
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (٧٦٤هـ/١٣٦٣م).
- الوافي بالوفيات، باعثناء بيراند راتكه. ط ٢. بيروت: دار صادر. (١٤١١هـ/١٩٩١م).
- ابن الصيرفي، نور الدين علي بن داود بن إبراهيم الجوهري (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٥م).
- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي. القاهرة: دار الكتب (١٩٧٠م).

- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن محمد الصالحي
الدمشقي (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م).
- القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحيّة، تحقيق محمد أحمد دهمان.
دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربيّة. (١٤٠١هـ/١٩٨٠م).
- ابن عبد الظاهر، محيي الدين عبدالله بن رشيد الدين (ت ٦٩٢هـ
/ ١٢٩٢م).
- تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل.
ط١. القاهرة: الشركة العربيّة للطباعة والنشر. (د.ت).
- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحى بن أحمد (ت ١٠٨٩هـ/
١٦٧٩م).
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة جديدة. بيروت: دار إحياء
التراث العربي. (د.ت).
- العُمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م).
- ١- التعريف بالمصطلح الشريف، حققه وضبطه محمد حسين شمس
الدين. ط١. بيروت: دار الكتب العلميّة. (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م).
- ٢ - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " دولة المماليك الأولى"، دراسة
وتحقيق دُوروتيا كرافولسكي. ط١. بيروت: المركز الإسلامي
للبحوث. (١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م).
- العيني، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م).
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد أحمد أمين.
القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب. (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م).

- الغزي، كامل بن حسين محمد (ت ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م).
- نهر الذهب في تاريخ حلب، حلب: المطبعة المارونية. (١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م).
- الغزي، نجم الدين بن بدر الدين (ت ١٠٦١هـ / ١٦٥١م).
- الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تحقيق جبرائيل سليمان جبور. ط٢. بيروت: دار الأفاق الجديدة. (د.ت).
- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م).
- - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق مصطفى محمد الذهبي. ط٢. مكة: النهضة الحديثة. (١٩٩٩م).
- أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن علي (ت: ٧٣٢هـ / ١٣٣١م).
- المختصر في أخبار البشر، بيروت، دار المعرفة. (د.ت).
- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد الأسدي الدمشقي (ت ٨٥١هـ / ١٤٤٨م).
- تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش. دمشق: المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية. (١٩٧٧م).
- القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م).
- أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة: مكتبة المتنبى. (د.ت).
- القلانسي، بدر الدين محمد بن بهرام السمرقندي (كان حياً حوالي ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م).
- أقرباذين القلانسي، تحقيق محمد زهير البابا. حلب: معهد التراث العلمي العربي. (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م).

- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي الدمشقي (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م).
- تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار. دمشق: دار حسان. (١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م).
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م).
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية. (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م).
- ابن قيّم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م).
- الطب النبوي، مراجعة وتعليق: عبد الغني عبد الخالق، ط ٢، بيروت: دار القلم (١٩٨٤م).
- الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ).
- فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر. (د.ت).
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م).
- البداية والنهاية، اعتنى به حسان عبد المنان. لبنان: بيت الأفكار الدولية. (٢٠٠٤م).
- المحبي، محمد أمين بن فضل الله الدمشقي (ت ١١١١هـ / ١٦٩٩م).
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، بيروت: دار صادر. (د.ت).
- المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م).

- ١- إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق جمال الدين الشيال. ط١. بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية. (١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م).
 - ٢- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية. (١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م).
 - ٣- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقرزية)، نشر محمد علي بيضون. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية. (١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م).
- ابن مماتي، أسعد (ت٦٠٦هـ / ٢٠٩م).
- كتاب قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سُوريال عطية. ط١. القاهرة: مكتبة مدبولي. (١٤١١ هـ / ١٩٩١ م).
 - مؤلف مجهول (من مخزرمي رجال القرنين الثامن والتاسع للهجرة).
- المنتقى من درة الأسلاك في دولة ملك الأتراك في تاريخ حلب الشهباء للحسن بن عمر بن الحسن بن عمر الحلبي (ت٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)، تحقيق عبد الجبار زكار. ط١. دمشق: دار الملاح. (١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م).
 - النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق (ت٤٣٨هـ / ١٠٤٦م).
- الفهرست، تحقيق ناهد عباس عثمان. الدوحة: دار قطري بن الفجاءة. (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م).
 - النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت٩٢٧هـ / ١٥٢١).
- المدارس في تاريخ المدارس، أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية. (١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م).
 - ابن النفيس، علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي (ت٦٨٧هـ / ١٢٨٨م).

١ - المهذب في الكحل المجرب، تحقيق محمد الوقائي ومحمد القلعة جي. ط٢. المغرب: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م).

٢- الموجز في الطب، تحقيق عبد لكريم العزباوي. القاهرة: لجنة أحياء التراث الإسلامي. (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م).

▪ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ / ١٣٣٢م).

— نهاية الأرب في فنون الأدب، (الجزء الثلاثون) تحقيق محمد عبدالهادي شعيره. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (١٤١٠هـ / ١٩٩٠م).

— نهاية الأرب في فنون الأدب، (الجزء الحادي والثلاثون) تحقيق الباز العريني. - مراجعة عبدالعزيز الأهواني. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م).

▪ ابن هبل، أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن هبل البغدادي (ت ٦١٠هـ / ١٢١٣م).

— المختارات في الطب، الهند: مطبعة دائرة المعارف العثمانية. (د. ت).

▪ ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٨هـ / ٧٣٣م).

— السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. (١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م).

▪ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م).

— مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق حسنين محمد ربيع. مصر: مطبعة دار الكتب المصرية. (١٩٧٧م).

- ابن الوردى، زين الدين عمر بن الوردى (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م).
- تاريخ ابن الوردى، النجف: المطبعة الحيدرية. (د.ت).
- ياقوت، شهاب الدين بن عبدالله الحموي الرومى البغدادي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م).
- معجم البلدان، طبعة جديدة مصححة. بيروت: دار إحياء التراث العربى. (د.ت).
- اليونينى، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م).
- ذيل مرآة الزمان، ط ١. الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية. (١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م).



رابعًا: المراجع العربية:

- إبراهيم بن محمد المزيني. الحياة العلمية في العهد الزنكي. ط ١، الرياض، المؤلف، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م).
- أحمد أحمد بدوي. الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، القاهرة: دار نهضة مصر.
- أحمد عيسى (ت ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م).
- ١- تاريخ اليمارستانات في الإسلام، ط ٢. بيروت: دار الرائد العربي. (١٤٠١هـ / ١٩٨١م).
- ٢- مُعجم الأطباء "ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة"، ط ٢. بيروت: دار الرائد العربي (١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م).
- أحمد مختار العبادي. في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت: دار النهضة العربية.
- حسن أحمد إبراهيم. "العرب وإثراء الدراسات الطبية"، مجلة تصدرها الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب العدد (١٧). بغداد. (١٤٠١هـ / ١٩٨١م).
- حسن الباشا. الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة: دار النهضة العربية.
- حمود بن محمد النجدي. النظام النقدي المملوكي (٦٤٨-٩٢٢هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م) دراسة تاريخية حضارية، الرياض: مكتبة العبيكان. (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م).
- حنيفة الخطيب. الطب عند العرب. بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، (١٩٨٨م).

- حياة ناصر الحجى.
- ١ - السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف فى عهدة، ط١. الكويت: مكتبة الفلاح. (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م).
- ٢ - حياة ناصر الحجى. أحوال العامة فى حكم الممالىك، ط٢. الكويت: دار القلم. (١٩٩٤م).
- راجى التكرىتى. الإسناد الطبى فى الجىوش العربىة الإسلامىة، بغداد: دائرة الشؤون الثقافىة. (١٩٨٤م).
- راشد بن سعد القحطانى. أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمىن، إعادة طبع الطبعة الأولى (١٩٩٤م). الرىاض: مكتبة الملك فهد الوطنىة. (١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م)
- رشىد عبد الله الجمىلى. دولة الأتابكة فى الموصل بعد عماد الدىن زنىكى، بیروت: دار النهضة العربىة. (١٩٧٠م).
- الزركلى خىر الدىن بن محمود الدمشقى. الأعلام، ط٧. لبنان: دار العلم للملایىن. (١٩٨٤م).
- سعید السدیوه جى. الموجز فى الطب الإسلامى، ط١. الكويت: سلسلة الكتب المتخصصة، (١٩٨٩م).
- سعید عاشور. مصر والشام فى عصر الأیوبىین والممالىك، بیروت: دار النهضة العربىة.
- السىد النشار. تاریخ المکتبات فى مصر، ط١. القاهرة: الدار المصرىة اللبنانىة، (١٤١٣هـ / ١٩٩٣م).
- عامر النجار. فى تاریخ الطب فى الدولة الإسلامىة، ط٣. القاهرة: دار المعارف. (١٩٩٤م).

- عبد العظيم صابر وعبد الحليم منتصر. موجز تاريخ الصيدلة، ضمن كتاب الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، إشراف محمد كامل حسين. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (د.ت).
- عبد الغني محمود عبد العاطي. التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، القاهرة: دار المعارف.
- عثمان علي محمد عطا. الأزمت الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب (د.ت).
- علي سالم النباهين. نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك، ط ١. القاهرة: دار الرائد العربي. (١٩٨١م).
- فهمي عبد العليم. العمارة الإسلامية في عصر المماليك الجراكسة "عصر السلطان المؤيد شيخ"، سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية. العدد ٣٣ (د.ت).
- قاسم عبده قاسم. النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط ١. القاهرة: دار المعارف. (١٩٧٨م).
- كرد علي، محمد بن عمر الرزاق (ت ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م). خطط الشام، ط ٣. دمشق: مكتبة النوري. (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م).
- مجمع اللغة العربية. المعجم الوسيط. تأليف بعض أعضاء المجمع. بإشراف عبد السلام هارون. استانبول: الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع. (د.ت).
- محمد التونجي. المعجم الذهبي [فارسي عربي]، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٩م.

- محمد الحداد. السلطان المنصور قلاوون، ط ١. القاهرة: نشر مكتبة مدبولي. - ١٤١٣هـ (١٩٩٣م).
- محمد خير الدين الأسدي. موسوعة حلب المقارنة، حلب: مطبعة جامعة حلب. (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).
- محمد راغب الطباخ (ت ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م). أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ط ٢. حلب: دار القلم العربي. (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م).
- محمد عبد الرحيم غنيمية. تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، تطوان: دار الطباعة المغربية. (١٩٥٣م).
- محمد علي البار. المسؤولية الطبية وأخلاقيات الطبيب ضمان الطبيب وإذن المريض، ط ١. جدة: دار المنارة للنشر والتوزيع. (١٤١٦هـ / ١٩٩٥م).
- محمد محمد أمين. الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر. ط ١. القاهرة: دار النهضة العربية. (١٩٨٠م).
- محمد محمد أمين ولى إبراهيم. المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية. القاهرة: دار النشر بالجامعة الأمريكية، ١٩٩٠م.
- محمود الحاج قاسم محمد. الطب عند العرب والمسلمين "تاريخ ومساهمات"، ط ١. جدة: الدار السعودية. (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م).
- مريزن سعيد مريزن عسيري. تعليم الطب في المشرق الإسلامي نظمه ومناهجه حتى نهاية القرن السابع الهجري، مكة المكرمة: جامعة أم القرى. سلسلة بحوث الدراسات الإسلامية (١٦). ١٤١٢هـ.

- مصطفى السباعي. من روائع حضارتنا، ط ١. بيروت: دار الوراق للنشر والتوزيع. (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).
- ياسين خليل. الطب والصيدلة عند العرب، بغداد: التراث العلمي العربي. (١٩٧٩م).



خامساً: المراجع المُعرّبة:

- آنخل جنثالث بالنشيا. - تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الأسبانية حسين مؤنس. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. ص ٤٦٦، وقد جعل وفاته سنة ٤٠٣هـ (١٠١٣م).
- زيغريد هونكه. - شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال الدسوقي. ط٨. بيروت: دار الجيل ودار الأفاق الجديدة. (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- كارل ولزنجر وكارل وتزنجر. الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، تعريب قاسم طوير، دمشق (١٩٨٤م).
- ماكس مايرهوف. - العلوم والطب ضمن مجلد تراث الإسلام، تأليف جمهرة من المستشرقين بإشراف سير توماس أرنولد. تعريب وتعليق جرجيس فتح الله. ط٣. بيروت: دار الطليعة، (١٩٧٨م).



سادساً: الأبحاث والدراسات:

- إبراهيم بن محمد المزيني.
١- انتقال العلوم الطبية عند المسلمين إلى أوروبا وأثر ذلك في تطور علم الطب عند الأوروبيين " بحث منشور في مجلة التاريخ العربي"، الرباط: جمعية المؤرخين المغاربة. العدد ١٣. شتاء. (١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م)
- ٢- المدارس الطبيّة المتخصصة في الحضارة الإسلاميّة، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة العدد الثالث عشر. ذوالقعدة. (١٤١٥هـ). (٣٤٩ - ٤١١).
- حسن حبشي. "الاحتكار المملوكي وعلاقته بالحالة الصحية"، حوليات كلية الآداب. جامعة عين شمس، القاهرة: دار ومطابع الشعب. مج ٩. (١٩٦٤م). (١٣٣-١٥٧).
- عبدالله بن محمد الناييل. صناعة الأسلحة الثقيلة والنارية في الدولة المملوكية، (رسالة دكتوراه - لم تنشر- مقدمة إلى قسم التاريخ والحضارة في كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة. الرياض. (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م)).
- علي السيد علي محمود. "الرعاية الصحية في مكة المكرمة في العصر المملوكي"، المجلة التاريخية المصرية. الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. (١٤١٦هـ / ١٩٩٥م). (١٣١ - ١٥٨).
- فيصل دبدوب. "مقالة الحواس لعبد اللطيف البغدادي"، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. مج ٥٤. (١٩٧٠م).

- محمد سيف النصر أبو الفتوح. منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة، (رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة أسيوط، كلية الآداب، ١٩٨٠م).



رفع مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك